الثقافة الجديدة

الذكرى التاسعة والخمسون لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي

عاش الحزب الشيوعي العراقي
حزب الوطن والناس

من عمل الرسام العراقي فيصل لعيبي البصري

254





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

254

العدد 4 السنة 40 آذار - نيسان/ ١٩٩٣

فهرست

93 – أدب وفن

• اذاعة حزبنا • الاتحاد • الوطن • الموقف • بغداد

• الحملة من أجل عراق ديمقراطي • د. أنور الغساني

الغلاف الأول: پوستر للفنان فيصل لعيبي

الغلاف الأخير: مأساة حلبچه، للفنان عدنان شبنو ـ دهوك

في عيد الشيوعيين التاسع والخمسين

أين يكمن مغزى العيد وجدواه ؟

يستعد الشيوعيون العراقيون، من مواقعهم الكفاحية المتباعدة، للاحتفال بعيد تأسيس حزبهم المجيد، مواصلين بذلك تقاليدهم الثورية، وحرصهم على تأكيد انتمائهم للقضية التي كرسوا لها عقولهم وأفئدتهم.. بل حياتهم.. ويمكن القول، دون مبالغة أو ادعاء، أنهم ومحبيهم حريصون على الارتقاء باحتفالاتهم والارتفاع إلى مستوى المخاطر والتحديات التي تجابه الحزب ودوره السياسي الراهن، ومشروعه المستقبلي التغييري.

وهم، إذ يحافظون على تقاليدهم، يدركون أن العالم من حولهم قد عصفت به تغيّرات دراماتيكية، انهارت بفعلها نماذج «الاشتراكية» وسواء تم هذا الانهيار بسبب تراكم الأخطاء، في التطبيق، أو بسبب قصور النظرية وشيخوخة عناصر وجوانب منها، وعجز مدرستها الرسمية عن متابعة اغنائها وتطويرها باعتماد منهجها الجدلي العظيم، وشجرة الحياة الخضراء، فإن قضية الاشتراكية، بجوانبها النظرية والتطبيقية وأدواتها ورسالتها التبشيرية الواعدة أصبحت كلها مطروحة للنقاش والتساؤلات.

وهنا يكمن مغزى الاحتفال بذكرى تأسيس الحزب وجدواه!

والتحدي، بما يحتله من مساحة نظرية وعملية، لايتحمل التردد أو المكابرة وبدون خوض غماره بجرأة وإقدام ثوريين انتقدناهما في منعطفات هامة فإن مصائر الحزب تصبح موضع المساءلة في الحياة السياسية في بلادنا كما يمني البعض أنفسهم هذه الأيام.

ولكي لاتدفع الثمن غالياً، فإن علينا أن نهجر الاكتفاء بتمجيد الماضي، دون أن نتردد عن استلهام دروسه وتجاربه التاريخية الغنية، وأن نندفع بارادة جماعية وعقول متفتحة على العلم والحياة لاستنهاض الحزب وتحويله إلى أداة أكثر قدرة وفعالية للاستجابة لنبض الحياة المعاصرة، وتجسيد أماني الناس وتوقها لحياة عادلة، وحقها في أن تحلم بامكانية مستقبل لاوجود فيه للاستغلال والعسف، وأن تعمل في سبيل تقريب ذلك العصر.

إن مثل هذه المهمة النبيلة يمكن أن تتيسر فقط عبر استنهاض طاقات الحزب، بل وكل القوى الديمقراطية التي يهمها تحرير عقل الانسان وارادته. إن الشيوعيين العراقيين، وهم يحتفلون بعيد حزبهم، حريصون على استيعاب دروس عمليات ماأطلق عليه «البيريسترويكا» أو التجديد، أو اعادة البناء» وماالتسمت به من طابع عدمي وتغلب العامل الذاتي في حسم اتجاهها نحو مسارها التدميري وتوظيفها لصالح اعادة الاعتبار للرأسمالية وقيمها. إلا أن هذا التقييم لايعني، كما يريد البعض أن يستنتج، نكوص الشيوعيين عن قناعاتهم بالطابع الموضوعي لعمليات التغيير كضرورة لتأكيد أفضليات الاشتراكية، كمنظومة مبادىء وقيم انسانية، وكمسار تاريخي لخلاص الانسان من حالات اغترابه.

وهم، إذ يفتحون ملفات الحزب، ويتصدون لمختلف القضايا الفكرية والعملية التي تتعلق بنشاطاته الراهنة منها والتاريخية، بهدف استنهاضه وتأكيد دوره في النضال الحالي من أجل البديل الديمقراطي، ومهامه التبشيرية ذات الطابع التغييري الجذري، فإنما ينطلقون من قناعة عميقة بأن الحزب لم يكن، منذ تأسيسه وفي مختلف مراحل تطوره، حالة سياسية طارئة، أو تعبيراً عن نزعة ارادوية لنخبة من المغامرين الباحثين عن الجاه والسلطة، لأن الشيوعية والحزب لم يكونا يوماً ما في عراقنا إلا درب المحن والتضحيات والآلام الجسيمة، بل كان الحزب ولايزال ظاهرة سياسية ومؤسسة وطنية مشهوداً لها، رغم كل أخطائها بحق نفسها قبل الآخرين، بالمسؤولية إزاء المصالح العليا للشعب والوطن، والاستعداد الدائم للتضحية في سبيل الذود عنها.

ورغم كل الخراب الذي حل بالعالم ، بعد انهيار نماذج الأنظمة «الاشتراكية» وسعي الرأسمالية ومركزها المقرر لفرض سيادتها المطلقة على مصائر كوكبنا، فإن قيم السوق الرأسمالية الفتاكة وبدائلها لم تقدم حتى في البلدان الأكثر تطوراً ونمواً، من حيث الخيرات والنموذج السائد فيها، إلا المزيد من المعاناة والحرمان والاغتراب لقطاعات تعدادها ملايين متزايدة من البشر!!

ومع تصاعد وانبعاث المد الأصولي السلفي والظلامية الفكرية، بعد الحملة الصليبية التي أعقبت انهيار العالم «الاشتراكي القديم»، فإن ترسانة النظرية الرأسمالية العالمية، لم تستطع أن «تبدع» أو تفند منجزات العلم الاشتراكي والمنهج المادي الجدلي، إلا باستنتاجها التافه حول «نهاية التاريخ»!! عند تخوم الرأسمالية.

إن ضرورة استمرار الحزب، كمؤسسة وطنية عراقية، متجددة على أرضية النظرية العامة،

وهويته الطبقية، وطابعه الأممي، ومضامينه العلمانية، لاتمليها دواعي التراث والأمجاد التاريخية.. ، وإنما حركة مجتمعنا ، والتناقضات التي تنخر في بنيانه، والخراب المادي والروحي الذي حل في البلاد وآثارها المدمرة على حياة ومصائر الغالبية الساحقة من أبناء شعبنا ، والتي تضيق الخناق دوماً رحمة على العمال والفلاحين وشغيلة اليد والفكر، وتدفعها إلى حافة المجاعة والبؤس.

ويؤكد هذه الضرورة ويكرسها ، انبعاث الظاهرات الرجعية بشتى أشكالها وعناصرها: التعصب السلفي والطائفي، وانفلات التعصب القومي والشوفينية السوداء، ونزعات التفتيت المديني والعشائري والعائلي، وتغلغل مفاهيمها وقيمها في مسامات المجتمع، في ظروف تراجع الحركة الديمقراطية.. والحزب الشيوعي وتهميش دورهما.

لقد آن الأوان للخلاص من الصدمة التي خلفها الانهيار الكبير في عصرنا... المتمثل في تراجع الاشتراكية المؤقت تاريخياً، بسقوط نماذج الأنظمة الاشتراكية.. والانتقال إلى مرحلة استيعاب نتائجها والبحث العميق في مكوناتها للخروج بصياغة نظرية وبرنامج سياسي ومايتلاءم معهما من أطر تنظيمية وشعارات وأساليب عمل للشروع بتحقيق نهوض الحزب.

افتتاحية (طريق الشعب) بالمناسبة

طريقي إلى الشيوعية ونظرتي إلى الحاضر والمستقبل

عزيز محمد

تعد الزميلة (صوت الوطن) مجلة حزب الشعب الفلسطيني،ملفاً يوجز فيه قادة الأحزاب الشيوعية طريقهم إلى الشيوعية والحزب و نظرتهم إلى واقع الحركة ورؤيتهم لمستقبل الاشتراكية وفيما يلي اجابة الرفيق عزيز محمد السكرتير العام للجنة المركزية لحزبنا:

كنت يافعاً، وحتى خالي الذهن من السياسة. ولم أكن أفهم من معانيها إلا ما كنت إتلقاه من الآخرين، وكنت ريفي الطبع ومنطوياً على نفسي عندما فوتحت بفكرة الانضمام إلى حزب «هيوا» (الأمل)، القومي الكردي، وكان ذلك بين عامي ١٩٤٠ - ١٩٤١ أي عندما كنت في السابعة عشر من عمري. لم يمر طويل وقت حتى بدأت ألمانيا الحرب ضد الاتحاد السوفيتي. لم تكن بداياتها مثيرة ولكن ماأن رُدت جحافل القوات الألمانية على أبواب موسكو، وبخاصة بعد معركة ستالينغراد وبعد أن با ءت بالخسران كل التوقعات التي كانت تحدد أسابيع، أو على أكثر تقدير شهوراً معدودة لالحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي، حتى بدأت الأنظار تتوجه إلى هذا البلد المعجزة، وبعد أن تحددت وتقررت نتائج الحرب (وماتبقى من أيامها لم يكن سوى قضية وقت) هبت على العالم رياح منعشة، وموجة من الديمقراطية شملت العالم، وبخاصة منطقتنا التي ابتليت بالاستعمار وأعوان الاستعمار. إلى جانب ذلك فإن البطولات، التي اجترحها الجيش الأحمر والشعب السوفياتي، أصبحت ملهماً وقدوة ومثالاً للشباب المتطلع، والمتقد حماساً. وأصبحنا نذكر اسم الاتحاد السوفياتي باعتزاز بالغ ويفخر بعد أن لم نكن نعرف إلا اسم روسيا.

وأثر كل هذا تأثيراً سحرياً على أوساط واسعة من شبيبه (هيوا) ودفع بالكثيرين منهم نحو التنظيمات أو التنظيم الماركسي. وكنت أنا من بينهم.دخلت الحزب أواسط شتاء ٤٥ - ٤٦ ولكن بعد أن مررت بتشكيلات ماركسية أخرى مثل جمعية الشعب ووحدة النضال وحزب «شورش» (الثورة).

لم أتجاوز في تعليمي الدراسة الابتدائية، لهذا لم أدخل الحزب الشيوعي، أو لم ارتبط بالحركة الشيوعية من بابها الفكري الفلسفي، بل ولجتها من خلال الانبهار بقوة المثل التي قدمتها الاشتراكية ممثلة في بلد الاشتراكية الأول والانتصارات المذهلة التي أحرزها على ألمانيا الفاشية رغم كل جبروتها العسكري والصناعي، ومن خلال القناعة إن الاضطهادالاجتماعي والقومي لاينتهيان إلا في الاشتراكية، وإن العمال والفلاحين يتبوأون الصدارة في المجتمع الاشتراكي الذي تنطلق فيه طاقات الشعب الابداعية في كل مجال من مجالات الحياة.

قلت لم أبلغ من التعليم شيئاً يذكر لهذا كان عليّ أن أتعلم، ولكن كيف؟ يختلف الأمر بالنسبة لمن كان يعرف لغة أجنبية وبخاصة الانكليزية وهم كانوا قلة،فكيف بي وأنا لم أكن أعرف حتى اللغة العربية. هذا مع الندرة الشديدة للمصادر العربية وقتئذ (٤٢ - ٤٥).ولئن تعلمت شيئاً، فقد تعلمته من الحزب وداخله، وخاصة فترة السنوات العشر التي قضيتها في السجن، حيث أتيحت لي فرصة تعلم اللغة العربية. واستفدت من الدورات التثقيفية التي كنا ننظمها في السجن، بالاستعانة بعدد من الرفاق المؤهلين ثقافياً، لدراسة الاقتصاد والفلسفة والتأريخ والبناء الحزبي، وذلك في الفترات التي كنا نكسب فيها بعض حقوقنا كسجناء سياسيين (باضرابات طويلة عن الطعام ومعارك قاسية مع ادارات السجون) فضلاً عن الندوات الثقافية، التي كان يسهم فيها عدد من خيرة المثقفين الشيوعيين والديمقراطيين، من أمثال الشهيد محمد حسين أبو العيس، ومحمد شرارة، وعبد الرزاق الشيخ علي وزكي خيري وغيرهم.

أما بخصوص كيف أنظر إلى مستقبل الحركة الشيوعية في البلدان العربية، فهو أمر من غير السهل تناوله، خصوصاً الدخول في تفاصيله. ومع ذلك فمن أجل أن نلقي نظرة على الحركة ومستقبلها في بلداننا، لابد من الالمام، ولو بشكل عام،بما حصل لحركتنا في العالم. لماذا حصل ماحصل؟ هل العلة في النظرية أم في التطبيق أم في كليهما؟ أم لأننا نواكب التطور ولم نجدد، الأمر الذي يخالف المنهج الماركسي الذي هو نقيض الجمود؟ عند ذلك وعلى ضوء ذلك فقط، وبعد الدراسة الدقيقة لأوضاع بلداننا، ماضيها وحاضرها، موروثاتها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية، وتبايناتها، والمرحلة التي تجتازها في سلم التطور الحضاري، مع اتقان علم وفن السير على طريق الأخذ بالتوجهات الاشتراكية الناضجة، والتي تأخذ بعين الاعتبار، مكوناتنا وتراثنا والخصوصيات التي تكونت تاريخياً، عند ذلك فقط تنجلي الأمور وتتوضح الرؤية.

وأظن أن مايجري الآن من محاولات جادة داخل الحركة الشيوعية لدراسة الأحداث المأساوية

واستخلاص الدروس الضرورية منها، وبذل الجهود لامتصاص الصدمة، واحتواء الهجمة الشرسة، وتجاوز الاحباط وعقدة الشعور بالذنب والتمييز بين التجديد و(الغورباتشوفية)، على أساس أنهما شيئان مختلفان، فلو حصل الأول لما حصل الثاني، أقول أن كل هذا الذي يجري داخل حركتنا الاشتراكية هو خطوات لابد منها على الطريق الصائب، على طريق الصحوة والوعي بما حصل ومواصلة المسير.

هل أنا متفائل بمستقبل الاشتراكية في بلداننا؟ نعم لاأرى في النهاية مستقبلاً غيره، صحيح أنه لم نعد نفكر بتحقيقها، ببنائها، في القريب القادم، كما كنا نتصور بالأمس، ولكنه آت لاريب فيه. إنها حركة التاريخ ولامرد لحركته. ولن يمنع أو يحجب ظهور هذا الفجر كل جبروت الرأسمالية وقوى الشر الامبريالي. لقد قيل بصواب، وبمامعناه، أن آلاف الأطنان من الكتب التي دبجتها أيادي سدنة الرأسمالية والتي نددت بالاشتراكية وبشعتها، والأكداس الهائلة من الأخطاء التي ارتكبت في عملية بناء الاشتراكية، كل ذلك لايلغي كون الاشتراكية هي بديل الرأسمالية وحتفها، في نهاية المطاف.

لقد دخلت الحزب وأنا لاأملك من عدد النضال، أو من المعارف، غير الشعور بالغبن والظلم الاجتماعي والقومي، وفيض من المشاعر والعواطف تجاه الأفكار الاشتراكية، التي اعتبرتها، ولازلت، ملاذاً ورجاء، وإذا تعلمت شيئاً فقد تعلمته من الحزب وداخله. وهاأنني الآن أشعر بثقل سنوات عمري التي قاربت السبعين. هل من شيء أغيّره؟ نعم ثمة أشياء كثيرة خاصة وعامة، لو أتيحت امكانية تغييرها لغيرتها، إلا انشدادي إلى الاشتراكية ومثلها. هل هو حنين إلى الماضي؟ هل هو الشعور بأنني لاأملك، ولن تتاح لي فرصة أن أملك غير هذا الماضي؟ يمكن أن يكون لهذا وذاك تأثير ما، سواء شعرت بذلك أو لم أشعر. لكن الأمر ليس في هذا بل في أن المجتمع الذي حلم به وناضل من أجله خيرة مفكري العالم وأنبلهم، ومنذ عهد بعيد، ،مجتمع العدالة والديمقراطية والاشتراكية، يلغي فيه استغلال الانسان للانسان، إن مجتمعاً كهذا لهو جدير بأن يحلم به المرء ويناضل من أجله ويضحي في سبيله.

شقلاوة - كردستان العراق
آذار ١٩٩٣

ملاحظات على بيان اللجنة المركزية لحزبنا

زكي خيري

لي ملاحظات على بيان اللجنة المركزية الصادر عن الاجتماع الاعتيادي الكامل في أواخر تشرين الأول/ ١٩٩٢ المنشور في العدد (٥) من طريق الشعب الصادر في أواخر تشرين الثاني/ ١٩٩٢.

وقد كرس الفصل الأخير للقضية العالمية تحت عنوان في «الوضع الدولي» وهو أهم الفصول ولب البيان والمصدر الفكري الجديد لبرنامج الحزب واستراتيجيته وتاكتيكه، وأخطر مافيه الحكم الآتي:

«لقد حسمت الحياة خلال الأشهر الماضية النقاش والجدل الذي كان يدور في الأوساط السياسية وعند الجماهير والمجتمع الدولي، حول مصير الاتحاد السوفيتي ووجهة مسيرته إذ انهارت الدولة العظمى وتفتت البناء الشامخ الذي شيد عل مدى سبعة عقود وتبعثر في دول ودويلات، وتشرذم الحزب الشيوعي وتحدد التحول الاقتصادي الاجتماعي نحو النظام الرأسمالي (الخط بقلمي/ ز.خ) وانفجرت الأزمة السياسية والاقتصادية والقومية والثقافية

والأخلاقية بصورة مذهلة وتعمق الخلل في ميزان القوى لصالح الرأسمالية والامبريالية ولغير صالح الشعوب».

أخطر مافي هذا النص: «وتحدد التحول الاقتصادي الاجتماعي نحو النظام الرأسمالي» فالسيرورة التاريخية العالمية وفي كل بلد تتعلق بما إذا كان هذا الحكم متسرعاً أو باطلاً أم أمراً

منتهياً ومفروغاً منه كما جاء في البيان. وبناء على ماتقدم من أحكام يتحدث البيان عن الأفق الدولي:

«... إن انعكاسات هذا التغيير ماتزال في بدايتها وسيزداد تأثيرها في الأمم المتحدة والتجمعات الدولية والإقليمية الأخرى وسيزداد أيضاً دور العامل الخارجي في التغيرات الوطنية الداخلية وسيكون حاسماً في ظروف معينة (وهنا بيت القصيد ـ ز.خ) وماسيترتب على ذلك سيتعمق ويطول. فالقوى الرأسمالية المنتصرة ذات القدرات المتنوعة الهائلة سوف لن تكتف بما حققته وإنما ستعمل بكل الوسائل على توسيعه ومنع الرجعة عنه ... وذلك (لا) بالاحتفاظ بالوضع القائم بين النظامين العالميين الاشتراكي والرأسمالي (بل) والانتقال إلى الوضع القائم قبل قيام النظام الاشتراكي» وهكذا دار العالم دورته فعاد كهيئته يوم خلقه الله كما قال المتصوفة!

وبعد هذه الصورة الحالكة التي يرسمها البيان لمستقبل العالم يعزّي حركة الطبقة العاملة العالمية التي فقدت أعظم منجزاتها وهو النظام الاشتراكي بقوله مستدركاً: «ولكن كل الذي حصل لايمكن أن يلغي ماحققه نضال الشعوب وحركة الطبقة العاملة العالمية ومساهمتها في بناء العالم الحديث ولاسيما في القرن العشرين ولايلغي الآمال المعقودة على الاشتراكية العلمية وبناء مجتمع العدالة الاجتماعية، والخلاص من الاستغلال وسيادة القيم الانسانية الرفيعة وذلك بالاسترشاد بها.»

وبعد أن نوه البيان «بالقدرات المتنوعة الهائلة للقوى الرأسمالية المنتصرة» إنتهى إلى عجزها عن إيجاد حلول إيجابية لمشاكل العالم.. وهذا ديدن البيان من أوله إلى آخره: إجراء معادلات وموازنات بين السلبيات والايجابيات مع ترجيح كفة السلبيات على مستقبل العالم.

ـ ١ ـ

الموضوعة الرئيسية هي مصير الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وقد أصدر البيان حكمه بانهيارها «وبتحديد التحول الاجتماعي الاقتصادي نحو النظام الرأسمالي» وإن الفترة الحاسمة لهذا التحول هي أشهر (١٩٩١ ـــ ١٩٩٢) وإن العامل الحاسم هو الأفراد المتنفذين في قيادة الدولة والحزب إلى جانب العوامل الموضوعية أي العلل التي رافقت الاشتراكية السوفيتية ردحاً طويلاً من الزمن، وهي علل مزمنة لم تؤد كما يوضح البيان إلى تقويض الاشتراكية رغم جميع المحن التي اجتازها الاتحاد السوفيتي فكيف استطاع الأفراد مهما كانوا متنفذين تحقيق ذلك؟ لابد أنها معجزة سلبية لامثيل لها في التاريخ العالمي!

والحقيقة هي أن الأزمة الاقتصادية لعبت الدور الحاسم في الأحداث الكبرى التي أطلق عليها «كارثة تاريخية» و«انهيار» وإلخ.. والأزمة الاقتصادية ليست جديدة بل ترجع إلى بداية السبعينات وخلال (١٥) سنة (١٩٧٦ - ١٩٨٠) هبطت وتيرة النمو السنوية للدخل الوطني للاستهلاك والتنمية إلى (١ و٠٪) أي لاشيء عملياً. وكانت هذه الأزمة تختلف عن أزمة الاقتصاد الرأسمالي لأنها جاءت نتيجة التلكؤ في إدخال الثورة العلمية التكنولوجية بعكس تلك. وفي ظل

الأزمة الاقتصادية السوفيتية نشأ اقتصاد الظل أي الاقتصاد غير المشروع لتلبية حاجات السكان النامية فانتشر الفساد والاجرام والسكر مع اقتصاد الظل.

وفي نيسان ١٩٨٥ انتخبت اللجنة المركزية قيادة جديدة وعلى رأسها غورباتشوف وقد أمهلها التاريخ خمس سنوات للخروج من الأزمة ورفعت القيادة الجديدة راية التجديد والاصلاح ولكنها لم تحدد الحلقة المركزية فشنت هجوماً على جميع الجبهات بما فيها جبهة الفودكا، ولكن الأزمة الاقتصادية تفاقمت في السنوات الأخيرة (١٩٩٠ - ١٩٩٢)وهبط الانتاج الصناعي بنسبة (٣٠٪) والحيواني بنسبة (٤٠٪) وتطورت الأزمة المعيشية من أزمة لحوم إلى أزمة خبز ليكفر الشعب الروسي بالاشتراكية وهو الذي سكب دمه أنهاراً في سبيلها. فانتخبوا المغامر البونابارتي . يلتسن الذي وعدهم بحل سريع للأزمة. وقد أعطاه البرلمان الروسي صلاحيات واسعة لايجاد حلول للأزمة فجرب مايسميه بيان اللجنة المركزية لحزبنا «التحول الاقتصادي الاجتماعي نحو النظام الرأسمالي» باطلاق العنان لقوى السوق العمياء أو مايسميه الاقتصاديون الرأسماليون «العلاج بالصدمة» فتدهور الاقتصاد الوطني أكثر فأكثر الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في معيشة الجماهير التي لمست لمس اليد مايعنيه «التحول نحو النظام الرأسمالي» من فاقة وبؤس وخراب اقتصادي «خلال الأشهر الماضية» بالذات التي يتحدث عنها بياننا.وفي هذا الظرف تصلب ظهر البرلمان الروسي فطرد حكومة گايدار صنيعة يلتسن ورفض «التحول نحو الرأسمالية» ومن الأمثلة على ذلك رفض البرلمان قانون تمليك الأرض الذي يبيح للأفراد بيعها وشراءها، وحصر حق حيازة الأرض باستثمارها فقط وبذلك حافظ على تأميم الأرض منذ أممها لينين في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى بموجب مرسوم الأرض كأول خطوة نحو الاشتراكية.

وقد عمدت الحكومة الجديدة التي اختارها البرلمان الروسي خلفاً لحكومة گايدار إلى تحديد أسعار المواد الضرورية للمعيشة: الخبز والحليب واللحم وبذلك أخضعت آلية السوق لانضباط الدولة وهذا لايتعارض مع الاشتراكية ولايعني هذا نبذ آلية السوق بالمرة لأنها ضرورية لرقابة المستهلك على الانتاج ضمن رقابة الدولة في النظام الاشتراكي أيضاً، والصراع لايزال يحتدم ويتفاقم.. وتلكم هي مؤشرات تدل على أن الشعب الروسي العظيم بدأ يستفيق من دوخة الصدمة.

ومما له مغزاه تجربة لتوانيا وهي من أصغر جمهوريات الاتحاد السوفيتي (٣,٧ مليون نسمة) وفي مقدمة الجمهوريات التي انفصلت عنه ومن أشدها حمية في التحول الرأسمالي. وبعد ثلاث سنوات من التجارب وتشجيع الرأسمالية العالمية بالكلام فاز في الانتخابات حزب العمال (الشيوعي سابقاً) ببرنامج يتضمن:

١ ـ إعادة العلاقات الاقتصادية مع جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

٢ ـ إعادة تأسيس الكولخوزات.

وتدل النقطة الأولى على أن الاتحاد السوفيتي لم يكن محض علاقة فوقية قسرية مفروضة هي

والاشتراكية على لتوانيا من روسيا بل تكامل بنيوي، وإن لأزمته بعض العلل كالمبالغة في المركزية والبيروقراطية. وإن الكولخوزات وهي شكل من أشكال الاشتراكية الفعلية السوفيتية ملائمة أيضاً للفلاح الليتواني الذي يحظى بثقافة غربية، وليس فقط الفلاح الروسي الأقرب عهداً بالقنانة والثقافة الباترياركية الأسيوية. وقد فشل في الانتخابات اللتوانية الحزب الحاكم برئاسة لاندسبرغيز وهو أشد الانفصاليين سعاراً وتحمساً للتحول الرأسمالي وعلل فشله بسببين:

١ ـ خذلان البلدان الرأسمالية له إذ لم تقدم له المساعدة الضرورية.

٢ ـ إستعجاله التحول الرأسمالي وتجاهله لحنين الفلاح اللتواني (أكثرية السكان) للاشتراكية.

وهكذا لو تأخر الاجتماع الاعتيادي الكامل للجنة المركزية شهراً واحداً لما نظرت إلى الدنيا بهذا المنظار المعتم الذي هو بيانها موضع المناقشة.

ولحد الآن لم تجلب محاولات إعادة الرأسمالية إلا الغلاء ونقصان الخدمات الاجتماعية والبطالة وغيرها من المآسي بالنسبة لأوسع جماهير الشعب. والتحول نحو الرأسمالية يصطدم بعقبات متباينة بين بلد وآخر وكان أوفر حظاً في النجاح في بولونيا وهنغاريا وتشيكيا» وهي في الأصل بلدان رأسمالية متطورة قبل أن تتحول إلى الاشتراكية. وقد غزتها الرساميل الأوربية. أما بالنسبة لروسيا وبلدان أوربا الشرقية الأخرى فإن الرأسمال الأجنبي لم يقترب إلا من حقول النفط في كازاخستان وتركمينستان. فهو ينتظر خراب الاقتصاد الروسي تماماً حتى تعود روسيا من بلدان العالم الثالث ليستثمر مواردها الطبيعية الغزيرة والأيدي العاملة المتعطلة الرخيصة وعندئذ تصبح روسيا خاضعة للرأسمال الأجنبي.. ولكن عجلة التاريخ لن تعود إلى الوراء ولذلك نجد اتفاق القوميين الروس مع الشيوعيين ضد نهج التحول الرأسمالي الذي اتبعه يلتسين ورئيس وزرائه گايدر..

إن خروج روسيا من الأزمة الاقتصادية لايتحقق عن طريق التحول الرأسمالي بل بالعكس بالمحافظة على الاشتراكية ولكن هذا لايعني العودة إلى الماضي فالماضي لايعود وإن الاشتراكية إزاء ولادة جديدة تخلصها من شوائبها القديمة التي عددها البيان: «غياب الديمقراطية وتفشي الأمرية البيروقراطية بدلها في الحزب والدولة والمؤسسات، والتخلف العلمي والتكنولوجي واتساع الفجوة في هذا المجال بين الإتحاد السوفيتي السابق والبلدان الرأسمالية المتطورة وحرق المراحل والقفز عليها في البرامج والتخطيط والتنفيذ وإرهاق المجتمع بكلف سباق التسلح فائق التطور والجمود في الفكر والثقافة وإغتراب الشغيلة والجماهير وقاعدة الحزب عن ثروات المجتمع والملكية العامة وإبعادهم عن عملية البناء وإدارة وتسيير المجتمع الاشتراكي...»

وهكذا ستولد الاشتراكية من جديد وتكتسب سمات جديدة. ولايشترط لقيام الاشتراكية تأميم ١٠٠٪ من وسائل الإنتاج بأي حال من الأحوال وقد قدر ريجكوف آخر رئيس وزراء للاتحاد السوفيتي وهو من معارضي غورباتشوف ويلتسن ويعتبره الاعلام الغربي «شيوعياً محافظاً» يعني متمسك بمبادىء الشيوعية العلمية: إن ٤٠٪ من وسائل الانتاج في الإتحاد السوفيتي كان كافياً

إيداعها لعهدة الدولة والحفاظ على النظام الاشتراكي مع إحالة (٦٠٪) إلى عهدة التعاونيات والقطاع الخاص. كما يجب إستخدام آلية السوق كأداةلفرض رقابة المستهلك على المنتج على أن تبقى السوق تحت هيمنة الدولة.

وكل شيء يتوقف على تنظيم الشغيلة أي على نهوض الحزب الشيوعي من جديد وكذلك النقابات والمنظمات الجماهيرية... وتنتظر الحركة الشيوعية العالمية ولادة جديدة أيضاً بعد أن تتجدد أحزابها.

لم يذكر البيان كلمة واحدة عن إيجابيات حركة التجديد وكأنها محض سلبيات سببها أفراد «متنفذون في قيادة الحزب والدولة». يمكن أن يذكر المرء حسنة واحدة لحركة التجديد على الأقل هو أنها كسرت الجليد القديم الذي إكتنف النظام الإشتراكي والحركة الشيوعية لفترة طويلة وإن كانت قد تركت كل شيء في حالة فوضى.

كما أن الشعب الروسي يستفيق الآن من الدوخة الوقتية التي أصابته وزعزعت ثقته. وهو ليس شعباً مغلوباً على أمره بل يملك حق تقرير مصيره بنفسه ويتمتع بحريات ديمقراطية لانظير لها في العالم اليوم. وبهزة من كتفه يستطيع أن يسقط أي نير بلمح البصر وعندئذ سوف تعود موسكو منارة للاشتراكية وللديمقراطية أيضاً.

مسألة إيجابية أخرى لم يعرها البيان أي إهتمام وهي توقف سباق التسلح الذي كان يكلف شعوب الاتحاد السوفيتي خمسة أثمان الانتاج السنوي.

والثورة العلمية التكنولوجية تضع الانسانية أمام أحد خيارين لاثالث لهما فإما الاشتراكية أو البربرية، وهو ماتجمع عليه خيرة العقول المفكرة في عالم اليوم وليس الشيوعيين فقط. فلايزال عصرنا عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية على النطاق العالمي وليس عصر «التحول الاقتصادي الاجتماعي نحو النظام الرأسمالي».

* * *

ضرورة كسب القوات المسلحة وجمهرة حزب السلطة:

يشير البيان إلى أن سبب فشل إنتفاضة آذار/ ١٩٩١ هو غياب القيادة السياسية الموحدة على ساحة النضال. في حين نحن نعلم أن نجاح ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨ يعود إلى حضور هذه القيادة المؤلفة من الأحزاب السياسية الوطنية المتحالفة في جبهة الاتحاد الوطني مع حركة الضباط الأحرار في الجيش العراقي والدعم الجماهيري المباشر والفوري في قلب بغداد وولاء حامية بغداد العسكرية للثورة.. في حين أن القسم الرئيسي من الجيش ولاسيما في بغداد لم يكن مع إنتفاضة آذار، لا لأن الجيش العراقي حتى بحجمه المصغر الحالي (٤٠٠٠٠٠) جندي وضابط محض أداة قمع بيد صدام حسين يستطيع تحريكها وفق أهوائه كما تظن المعارضة بل لأن القسم الرئيس من الجيش يخشى من أن تؤدي محاولة إسقاط صدام حسين إلى حرب أهلية من شأنها تمزيق العراق. وكان سلوك بعض

فئات المعارضة خلال انتفاضة آذار يغذي هذه المخاوف ،ولايبددها كما يشير البيان.

وتناول البيان أهمية كسب القوات المسلحة وحزب البعث بإيجاز فيقول: «في هذه الأوضاع التي تعيشها أجهزة الدولة العسكرية والمدنية بما فيها الأوساط المعارضة لنهج الدكتاتورية وسياستها داخل الحزب الحاكم، يترتب على حزبنا وقوى المعارضة جميعاً تنشيط العمل لإيجاد وتطوير الصلات بهذه الأوساط المؤثرة التي يعتمد على إنحيازها إلى صف الشعب حسم المعركة مع النظام والقوى المؤيدة له وتحسين مخاطبتها في الدعاية السياسية بما يؤمن التوقف عن تأييدها للنظام وتحولها إلى صفوف الشعب» ترى كيف يجب تحسين مخاطبتها في الدعاية السياسية؟ جاء في البيان.. ومن المهمات الجديرة بالاهتمام تطمين قاعدة حزب البعث الحاكم وإعداد غفيرة من منتسبيه على مستقبلهم ورعاية مصالحهم»! فالبيان يخاطب جيوبهم وجلودهم لجذبهم إلى جانب الشعب ضد الدكتاتورية بدلاً من مخاطبة عقولهم وقلوبهم وتحميلهم مسؤولية الحفاظ على استقلال العراق ووحدته وحثهم على النضال من أجل حريات شعبهم وخبزه والانضمام إلى المعارضة الوطنية كما فعل إخوانهم في ثورة ١٤/ تموز، لإسقاط الدكتاتورية وإنقاذ الوطن..

إن البيان يخاطبهم كما لو كانوا جميعاً أو في الأغلب الأعم من المرتزقة وليسوا وطنيين قلقين على مصير العراق. وبالطبع يوجد مجرمون سفاحون وقتلة سلابون كثيرون في صفوف حزب البعث والقوات المسلحة ولكن يجب مخاطبة الوطنيين من البعثيين وهم ليسوا قلة ولاسيما في القوات المسلحة. علينا أن ندعوهم إلى النضال لإنقاذ حزبهم بالذات من دكتاتورية صدام وشركائه ولتجديد حزبهم والعمل مع المعارضة لإنقاذ الوطن.

توجد قوى عراقية داخل العراق كافية لتغيير الوضع رأساً على عقب ولدى هذه القوى الوسائل الكافية لهذا التغيير. يجب تعبئتها وتوعيتها بمسؤوليتها والإعتماد عليها وليس على خطوط العرض ٣٢ و٣٦ أو شمالها أو جنوبها.

المناطق الآمنة: قضم للدكتاتورية أم هضم للعراق؟!

بقرار من مجلس الأمن الخاضع للولايات المتحدة حددت المناطق الآمنة شمال الخط ٣٦ وجنوب الخط ٣٢ بذريعة حماية المواطنين من بطش صدام حسين. ولو كان القصد منها حقاً ضمان أمن الشعب العراقي من بطش الدكتاتورية لما إحتاج الأمر إلى خطوط طول أو عرض بل لأصبح العراق منذ البدء منطقة آمنة واحدة ولضمنت هيئة الأمم إجراء انتخابات عامة حرة آمنة وإحترام مايقرره الشعب العراقي.

وقد سطر البيان السلبيات والإيجابيات لهذه القرارات مع الإنحياز غير المبرر للإيجابيات ويترك الشعب العراقي بعربه وأكراده وعينه تراقب ماسوف يأتي من الخارج.. فيقول: «ومن المتوقع أن تتحول (المنطقة جنوب الخط ٣٢) إلى ملاذ آمن على غرار ماتم في كردستان، وذلك بتحريم استخدام القوات البرية والدبابات والمدفعية في مجابهة نضالات قوى المعارضة وجماهير الشعب.

وتجدر الإشـارة إلى خطورة هذه الخطوة على النظام إذا أضـفنا إليـهـا المنطقـة الأمنيـة الأخـرى في كردستان العـراق.. » وبعد هذا الاطراء يستدرك البيـان قائلاً: «إن حزبنا إذ يبدي تفهـمـه لإقامـة المنطقـة يدرك جيداً مـاتعنيـه من مـخاطر جسيـمـة تمس سيـادة العـراق، وتهـديد لوحدة ترابه الوطني وصـيـانة كـيـانه السـيـاسي الموحد، وخطر على ثرواته البـتـروليـة الغـزيرة في هذا الجـزء من وطننا. وبالاضافة إلى ذلك فإنها تفسح في المجال للتدخل الخارجي.. »!

وهكذا يعبر البيـان عن اتجاهين متضـاربين سعى عبثـاً للتوفيق بينهـمـا فالأول: يرحب بالحمـاية الأمـريكيـة للمنطقـة باسم «مـلاذ آمن» والاتجـاه الآخر: يفضـح دوافع هذا الإجراء الحقـيـقـيـة التي تستهدف سيادة العراق ووحدته وثرواته البترولية.ومحاولة التوفيق هذه بين الاتجاهين المتضاربين مـحاولة يائسة. والغـريب أن تقف اللجنة المركزية هذا الموقف من هذه القضـيـة الخطيـرة التي يتوقف على مآلهـا كيان العراق كدولة واحدة ذات سيادة وتحويلها إلى دويلات طوائف ويؤمن للامبرياليـة منطقـة بتـروليـة غـزيرة كـانت الهـدف المركزي «لعاصـفـة الصـحـراء» ومنذ بداية حـرب الخليج كـان التلفزيون الأمريكي يقدم خارطة العراق بثلاثة ألوان: كردي، سني، شيعي.

لقد إتبع البيان أسلوباً اختيارياً: من جهـة «ملاذ آمن» ومن جهـة أخرى خطر يهدد وحدة العراق وسيادته وثرواته.. وهذه انتقائية في السياسة مرفوضة لأنها تضيع الهدف المركزي الذي يجب تركيز القوى نحوه وهو النضـال من أجل الحفاظ على استـقـلال العراق ووحدته وتحقـيـق الديمقـراطيـة.. ولم تسـتـهـدف الحمـاية الامبـرياليـة لجنوب الخط ٣٢ سوى ضـرب إسـتـقلال العـراق ووحـدتـه ونهب ثرواته النفطيـة الغـزيرة في هذه المنطقـة. وبعد ثلاثـة أشهـر تبين أن أمريكا أرادت تأمين المنطقـة لطائراتها التي قصفتها من دون سبب سوى اضعاف الدفاع العراقي.

إن الأساس الفكري لهـذا التردد في أخطر قضية يجابهها العراق هو الأوهام التي تـساور البعض بنوايا الامبـرياليـة تجـاه العـراق.. الأوهام التي تعلق عليها لإقامة الديمقراطية ورفـع مـستـوى الشـعب المعاشي والثقافي! التي لاتقل خطورة عن أوهام غورباتشوف ويلتسن بإستدعاء الرأسماليـة العالميـة لإنقاذ الإقتصاد السوفيتي!

لقد آن الأوان لنبذ هذه الأوهام ومجابهة الواقع وجهاً لوجه وتحمل مسؤولية تغييره.

وتحت عنوان «وضع جديد» يتوقع البيـان «..أن تنشأ ظروف تستدعي إقامة إدارة ذاتيـة شعبيـة في المنطقـة (جنوب الخط ٣٢) وينبغي العـمـل على جعلها تسـتـقطب كل القوى الناشطة في السـاحـة دون إستثناء وتجنب الأعـمـال والشعـارات الفئوية الضـيـقـة.. » ولايتحدث البيـان عـمـا إذا كـانت تلك «الإدارة الشعبية الذاتيـة» سوف تعتمد على حراب عراقيـة أم إيرانيـة أم أمريكيـة؟ ومـاإذا كـانت بمعزل عن الوضع في بغداد أم لا؟ أو سوف تـكون طائفية أم وطنية؟ قد يمكن تبرير إنفصـال كردستان على أساس حق تقرير المصير لكل شعب في إقليمه القومي ولكن على أي أساس يمكن تبرير تقسيم العراق العربي إلى دويلات طوائف؟ أو حسب خطوط العرض؟

حول أمن كردستان:

يبالغ البيان في الوضع الأمني في كردستان ويعتبره مثالاً يحتذى للمناطق العراقية الأخرى. ثم يعود وتحت عنوان «الآفاق المنظورة» فيضع إحتمال «الوصول إلى إتفاق في نهاية المطاف بين الولايات المتحدة والدول المتحالفة وبين صدام حسين لاستحصال موقف محايد من الحلفاء إزاء هجوم السلطة على كردستان..» ثم يرجح البيان احتمالاً معاكساً آخر فيقول: «ولكن التطور الأكثر إحتمالاً في أعقاب الإعلان عن المنطقة المحظورة على الطيران الحكومي في جنوبي العراق تنحو إلى أن على صدام حسين أن يرحل وينبغي التهيؤ للتعامل مع من يخلفه..»!

هذا ليس تحليلاً سياسياً بل محض تأويل.. فالولايات المتحدة لو كانت عازمة على إسقاط صدام حسين لواصلت قواتها زحفها براً أن وصلت نهر الفرات عند السماوة لتصل إلى بغداد وتعتقله كما فعلت في بنما مع نورييغا. ولكنها توقفت فلم يكن لديها بديل عن صدام حسين وخشيت أن تقع المنطقة الجنوبية الغنية بالنفط بيد ايران أو أن يكون فيها نظام تسوده الطائفة الشيعية وكلا الأمرين يقض مضاجع السعودية حليفة الولايات المتحدة الرئيسية في المنطقة. فتركت صدام حسين لتلعب به لعبة القط والفأر بأن تضعه في قفص محاط بالقطط لتقض مضاجعه فيسلم لها المواقع خطوة فخطوة..

وبعد إجتماع اللجنة المركزية وقبل نشر هذا البيان في جريدة الحزب المركزية حصل تطور جديد وهو إجتماع الدول الثلاثة (ايران ـ تركيا ـ سوريا) التي تحتوي على أجزاء من كردستان في أنقرة وأصدرت قراراً مشتركاً ضد قيام دولة كردية في شمال العراق..

إن الدول المتحالفة مع أمريكا بالإضافة إلى ايران لها مصالحها الاقليمية الخاصة بها، ولمصلحتها بالذات تحالفت مع أمريكا ضد العراق ولكل من أمريكا وكل حليف من حلفائها بديله الخاص عن صدام حسين ولم يتفقوا على هذا البديل وعلى هذا الأمل يعيش نظام صدام حسين بقدر مايتعلق الأمر بالعامل الدولي، مالم يرتكب حماقة كبرى ثالثة، مالم يقع في فخ أمريكي آخر تكون فيه نهايته.

إن الأمن في كردستان لايمكن أن تضمنه قوات التحالف التي تتزعمهما الولايات المتحدة إلا بمقدار مايفسح المجال لها ولحلفائها لتطمين مصالحهم. وإذا بدأ الصراع بين ايران ،وتركيا والعراق حول كردستان العراق ولايزال محصوراً في اللقاءات والمؤتمرات والتصريحات فإنه لابد أن ينفجر وتكون ساحته كردستان وضحيته الشعب الكردي. وعندئذ ستقف قوات التحالف كما سبق أن وقفت أثناء غزو تركيا لكردستان العراق بحجة ضرب أكراد تركيا..

إن أمن كردستان يستوجب إستثارة يقظة الشعب الكردي لحماية أمنه بتوحيد قواه الوطنية ولاسيما الجبهة الكردستانية والتحالف مع قوى المعارضة العراقية والتركية والايرانية وليس بالإطمئنان للأمن الحالي الهش والتعرض إلى عملية تهجير جماعي جديدة حالما يضطرب الأمن!

إن الإطمئنان للأمن الحالي بإعتباره مثالاً يحتذى لبقية مناطق العراق يخدر يقظة الشعب الكردي ويجعله يركز إهتمامه على المكتسبات الآنية الضرورية وغير الضرورية التي ستصبح عرضةً للضياع بضياع الأمن كما يتيح للعناصر المتطرفة وضيقة الأفق للإستخفاف بالحلفاء ووحدة الصف وتجميع القوى وبجميع الدعائم الأساسية للأمن الحقيقي لكردستان.



قرارات
تفضح إنتهاكات حقوق
الإنسان في العراق

شباط ١٩٩٣

اصدار

لجنة الدفاع عن حقوق الانسان في العراق

دروس من
انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة

آزاد

مع اطلالة آذار ١٩٩١ صعق العالم بخروج الشعب العراقي في انفجار هائل شكل حدثاً ثورياً فريداً في تاريخ العراق من حيث طابعه الشعبي وقوته ومداه، أعاد إلى الأذهان ذكرى الحصان الجامح الذي خرج فجأة عن القياد صبيحة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ وذكرى معارك الشعب المسلح بالفالة والمكوار مع أعتى امبراطورية استعمارية في ثورة العشرين المجيدة. ورغم أن نظام الاستبداد المعادي للشعب استطاع أن يخمد لهيب ذلك الانفجار بوحشية ليس لها نظير، إلا أنه مازال حتى بعد مرور سنتين من القمع والتقتيل والترقيعات والمناورات، لايستطيع الاطمئنان، ويعيش في رعب دائم من أن تشبّ النار في ثيابه في أية لحظة. فشعلة الانتفاضة مابرحت تضيء وتتصاعد في كردستان وفي أهوار الجنوب، وأكبر منها نار الحقد الذي يملأ الأفئدة وتنطق به العيون في كل مدينة وكل ناحية في عراقنا الجريح.

والحدث العظيم خلّف عِبراً ودروساً مازالت موضع المراجعة والنقاش في أذهان أبناء شعبنا الذين عاشوها وعلى شفاههم،وهي ماتني تتحدى كلّ أطراف المعارضة الوطنية أن تعطيها حقّها من الدرس والتسجيل والتعميم وصولاً ألى نتائج ومبادىء يلتزم بها الجميع قولاً وفعلاً لكي لاتتكرر الأخطاء ولكي لاتذهب التضحيات هدراً.

- ١ -

اتسمت الانتفاضة بالعفوية إلى حد كبير، وكانت تعبيراً صادقاً عن الغضب المكبوت طويلاً، عن قهر وذل الجنود والضباط الذين وجدوا أنفسهم مهزومين دون معركة، ومتروكين في العراء بدون حماية، بدون أوامر، وبدون أكل وشرب، عن يأس غالبية الشعب التي أخذت تعاني من ظروف معيشية مزرية، وارتفاع للأسعار، وانقطاع للماء والكهرباء وقصف متواصل من دول التحالف، والدكتاتور يواصل الاستهتار بمصيرهم ومصير الوطن، يتحدى بالمجان ثم يعلن تخليه عن كل شيء دفعة واحدة. في تلك اللحظة عادت ذكرى حرب الثمان سنوات مع الجارة ايران، ذكرى مئات ألوف الضحايا الذين ساقهم النظام للموت في سبيل الحقوق المضافة، ثم تبين أن التضحيات والدماء راحت هدراً بعد تخليه عن شط العرب وأراضي عراقية أخرى.

في تلك اللحظة أيضاً حانت تصفية الحساب مع من قتل الوطنيين من خيرة أبناء الشعب وضيعهم في السجون والمنافي البعيدة، مع من هجّر مئات الألوف من أبناء الشعب دون ذنب اقترفوه، وخنق بالغازات السامة حلبچة الشهيدة، حانت ساعة القصاص من أجهزة حزب السلطة المتنمرة ودولته الفاشية التي عاثت فساداً واستهترت بالمقدسات وانتهكت الحرمات.

وعبثاً تحاول أجهزة اعلام السلطة وبرامج فيصل الياسري وسواه أن تبرهن أن انفجار الانتفاضة كان بايعاز من الخارج. فتصريحات زعماء التحالف الغربي التي دعت الشعب العراقي إلى تغيير نظام حكمه لم تكن تقصد الشعب حقيقةً. وقد فوجئت بالطابع الشعبي للانتفاضة وبأهدافها، فوقفت ضدها منذ اللحظة الأولى وخففت الضغط على النظام وتواطأت معه للقضاء عليها، أو انهاك قواها إلى الحد الذي يمكن من فرض الشروط عليها، الأمر الذي أكدته مجريات الأحداث والتصريحات اللاحقة وتحول لغة أجهزة الاعلام في تلك الدول.

أما تدخلات بعض دول الجوار،التي يأتون بالشواهد على حصولها، فإنها هي الأخرى لم تقدم مساعدة حقيقية للانتفاضة، حتى إذا كانت تقصد ذلك فعلاً، لأنها كانت تنطلق من تصريحاتها الخاصة بالأساس، وحاولت دفع الأمور باتجاه احلال النظام الذي تريده للعراق، وبالنتيجة فقد أربكت الانتفاضة، وأبعدت بعض الأوساط الشعبية أو المثقفة عن المشاركة بحماس فيها، وطرحت أهدافاً غير مناسبة أدت إلى استعداء العالم على الانتفاضة وتشويه صورتها.

- ٢ -

قلنا إن أجهزة اعلام السلطة ماتزال تحاول عبثاً أن تبرهن أن الانتفاضة المجيدة كانت مدفوعة من الخارج. ولأن هذا التعبير يثير تداعيات واسعة فلابد من الوقوف عنده ملياً.

من المعلوم أن «الخارج» يستضيف مئات الألوف من العراقيين الذين هجرهم النظام بشكل جماعي في أوقات مختلفة بحجة تبعيتهم إلى دولة أجنبية وهم مازالوا يحنون إلى وطنهم العراق ويعتبرون أنفسهم جزءاً منه، وهناك أيضاً الأكراد الذين هربوا من البطش والأسلحة الكيمياوية، وأبناء الأقليات القومية الذين هاجروا بسبب التمييز والارهاب. كما يوجد في الخارج آلاف النشطاء السياسيين المعارضين من ممثلي أجيال مختلفة ومشارب متباينة، اضطروا إلى مغادرة الوطن في مختلف السنوات، وقسم منهم غادر العراق قبل الانتفاضة بوقت غير طويل وكانوا قبلها يشكلون جزءاً من النظام وأجهزته، إلا أنهم فقدوا الأمل ببقائه أو اختلفوا معه وفروا بجلودهم من بطشه. واذا كان نظام صدام لايستطيع أن يحرم على هؤلاء مشاركة شعبهم سراءه وضراءه فإنه لايستطيع، بالأحرى، أن يغطي على النضال البطولي للقوى والأحزاب الوطنية العربية والكردية ،من مختلف التيارات الفكرية والسياسية، اسلامية وعلمانية، ومن بينها القوى الديمقراطية التي يحتل حزبنا الشيوعي، بنضاله الطويل المتواصل، مكانة هامة بينها، نقول أن النظام لايستطيع أن يغطي على نضال هذه الأحزاب المعارضة أو أن يلغيها من الحساب. وإذا كانت أية قوة وطنية أو اسلامية لاتستطيع الادعاء بأنها هيأت وفجرت انتفاضة آذار، فان هذه الانتفاضة العفوية كانت تتويجاً لجميع النضالات التي خاضها الشعب وقواه السياسية الوطنية ضد النظام الدكتاتوري بمختلف أشكالها وخصوصاً استمرار نفوذها الفكري ووجودها السياسي وعملها التنظيمي التعبوي الذي، رغم ضعفه وانحساره وتذبذبه، لم ينقطع يوماً من الأيام، وكذلك الكفاح البطولي المتفاني للحركة القومية الكردية التحررية وبيشمركتها الأبطال وللأنصار الشيوعيين البواسل في كردستان، والكفاح

الفكري والعمل الدعائي والاعلامي للمعارضة الوطنية في الخارج. فقد ساهم في فضح جرائم النظام الدكتاتوري وتصعيد تضامن الرأي العام العالمي وقواه الديمقراطية ومنظماته الانسانية مع شعبنا العراقي في محنته، والتي لم تعد حتى الحكومات، وخصوصاً منذ خريف ١٩٨٨، قادرة على تجاهلها، بغض النظر عن مدى التطابق مع مصالحها.

أما أن قيادات القوى الوطنية المعارضة وكوادرها الأساسية موجودة في الخارج فهي لم تختر ذلك بمحض ارادتها بل اضطرها إليه بالأساس انعدام أية امكانية للعمل السياسي المعارض في ظل سلطة صدام حسين الدكتاتورية وارهابها الذي قل نظيره في العالم.

ـ ٣ ـ

قلنا إن قوى الشعب الوطنية المعارضة خاضت نضالاً بطولياً مختلف الأشكال والأساليب يستهدف في النهاية تحريض الشعب وتعبئته للثورة على النظام المجرم واقامة نظام ديمقراطي دستوري بديل عنه. وبهذا المعنى فإن قوى المعارضة الوطنية لم تفاجأ بالانتفاضة الشعبية عند حصولها. إلا أننا نستطيع القول دون أيّ تردد أن الانتفاضة كانت أكبر من أية قوة وطنية وأكبر من المعارضة

الوطنية بمجموعها، بسبب وجود الكثير من جوانب القصور الذاتي والتخلف عن ايقاع حركة الشعب لدى هذه المعارضة ولدى كلّ قوة من قواها، وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة في حديث لاحق.

أما الذي نريد قوله هنا فهو أن الانتفاضة لم تكن تتويجاً عادياً للنضالات التي سبقتها، لم تكن تكراراً أو اضافةً كميةً لها، بل كانت حدثاً ثورياً هائلاً حتى بالنسبة للشعب العراقي، هذا الشعب«المتمرد على مر تاريخه، شعب الوثبات والثورات.

والذي يعطيها أهميةً اضافية هو مجيئها بعد مايقارب من ربع قرن من الاستبداد وحكم الحزب الواحد والرجل المجرم الواحد هدمت خلاله قيم المجتمع العراقي، وزرعت الدكتاتورية وعياً اجتماعياً مشوهاً من خلال الارهاب المنفلت ومحاولة افساد ورشوة فئات اجتماعية واسعة. ولقد تبجح النظام كثيراً بأنه خلق مايسميه «بالانسان العراقي الجديد» قاصداً بذلك ماأشاعه من قيم وتقاليد الخنوع والولاء للفرد والاستسلام أمام الارهاب وقيم النزعة الفردية والعدوان واللاانسانية والارتزاق والتجسس، هذا الافساد الذي طال العلاقات حتى داخل العائلة الواحدة.

وإذا كان من المستحيل توقع أن لاتترك نتائج هذا الزرع الخبيث للدكتاتورية آثارها السلبية الواضحة على فعل ثوري بهذا المستوى من سعة المشاركة الشعبية، الأمر الذي تجلى في بعض مظاهر الفوضى والسرقات والتجاوزات التي حصلت هنا وهناك في مجرى الانتفاضة، فإن الأمر الرئيسي يبقى هو أن أوهام الدكتاتورية الغبية هذه قد انهارت خلال ساعات مع انهيار جدار الخوف في نفوس الجماهير، التي انطلقت كما ينطلق من قمقمه مارد جبار، لتخلق وتبلور في ممارستها الثورية خلال ايام الحرية المذبوحة تلك، قيماً جديدةً تصل ماانقطع من تقاليد شعبنا الثورية، بصورة أصيلة وفريدة ستبقى رافداً لاينضب من روافد النضال ضد الدكتاتورية.

ـ ٤ ـ

لقد تبجح النظام طويلاً بأنه قد ربّى جيلاً جديداً لثورته المزعومة قطعه عن التقاليد الثورية للشعب العراقي وعن أية خبرة نضالية، وسدّ قنوات التأثير عليه من قبل الحركات الثورية، واحتكر تعليمه ابتداء من رياض الأطفال وحتى الجامعة، وغذّاه بمعلومات مزيفة عن تاريخ الحركة الوطنية، ناهيك عن اشاعة الخوف والنزعة الفردية والتحلل، مما سبق الاشارة إليه.

وإذا بكلّ هذا ينقلب على النظام كما ينقلب السحر على الساحر. فالشبيبة التي تربّت ونشأت في ظل الارهاب وتأقلمت معه، واعتادت على أساليب النظام وعلى تضليله وديماغوجيته، وإذا بها تستغلّ تلك المعرفة وذلك الاعتياد لابتداع أساليب جديدة ومتنوعة لمواجهة النظام والتهرب من تأدية التزاماته الثقيلة والنفاذ من ثغرات مؤسساته، ثم وفي اللحظة الحاسمة انتقلت إلى الفعل، وأثبتت بالممارسة أنها وريث شرعي لشعب العراق ولتقاليده الثورية الخالدة، الأمر الذي اعترف به اعلام النظام وجاء على لسان ابن الدكتاتور عدي أكثر من مرة. إن غالبية المشاركين في الانتفاضة

كانوا من الشباب دون الخامسة والعشرين من العمر وكأننا بهم قرروا تقصير عمر النظام لتنفيذ شعاره التضليلي: نكسب الشباب لنكسب المستقبل.

إلا أننا سنجانب الصواب إذا زعمنا أن تلك الظروف الشاذة وذلك التشويه الذي عاش جيل الشباب في ظلّه لم تترك بصماتها على ممارستهم الثورية خلال الانتفاضة. فالعفوية والافتقار إلى أبسط خبرة تنظيمية، والموقف السلبي لأوساط واسعة من التنظيم، أيّ تنظيم، والنزعة العدوانية التي خلقتها حروب النظام وارهابه ووجدت متنفساً لها هنا وهناك في محجرى الانتفاضة، كلّ ذلك وسواه من المظاهر السلبية كان واضحاً وملموساً.

ومع هذا فقد اجترح الشباب آيات من البطولة وهبّوا هبة رجل واحد في المدن المنتفضة حيث كان يجري التعاون مع كل انسان معروف بنظافته السياسية ومعاداته للنظام دون السؤال عن هويته أو انتمائه. وكان عماد تلك الثقة هو المعرفة الشخصية الوثيقة ،نوع من أخوّة الجنود التي نشأت في ظروف المعاناة في الخنادق وقسّتها نيران الحروب. وكذلك تقاليد التعاون والتآزر بين الآلاف، أو قل عشرات الآلاف، من الهاربين من طاحونة الموت على جبهات القتال.

والحديث يدور عن اللحظات والأيام الأولى للانتفاضة التي سادها ذلك التعاون الجميل وتلك الوحدة الشاملة إلى أن جاءت لدعم الانتفاضة قوىً ركبت موجتها وحاولت جني مكاسب ضيقة منها، من خلال التركيز على شعارات طائفية أو فئوية ضارة. وقد تأتى ثقل تأثيرها من دخولها باندفاع من يقتحم باباً مفتوحاً، مستغلةً انهيار مقاومة أجهزة النظام القمعية أمام ضربات الثوار في المدن المنتفضة، ومحاولةً فرض الوصاية على الجماهير التي أنجزت المهمة الرئيسية. ومنذ تلك اللحظة أخذت العدوى المرضية للصراعات الحزبية الضيقة بالانتشار إلى كلّ مسجد وشارع، وحلّت الريبة والتوجس محلّ الثقة والتعاون والوصاية المفروضة من الخارج محلّ اخوية الجنود ومحلّ قيادات الشوارع من رموز الأقدام والتضحية والابداع الشعبي، التي استحقت مكانتها باسترخاص الأرواح.

ـ ٥ ـ

ومن أكبر الأوهام التي بددتها الانتفاضة الباسلة وهم أن نظام صدام الدكتاتوري يستحيل القضاء عليه أو زعزعة أركانه وأن كل محاولة للثورة عليه سيكون مصيرها الفشل الأكبر بسبب الولاء المطلق من قبل «الجيش العقائدي» المزعوم والذي طالما تبجح به النظام، والطابع الشمولي البوليسي للدكتاتورية التي لاتعرف الرحمة والتي اعتمدت الارهاب المنفلت والتصفيات الجسدية المستمرة لكل من يبدي أيّ نوعٍ من المعارضة أو النقد لسياستها، وأقامت جهازاً قمعياً متشعباً من مؤسسات أمنية ومن وأجهزة حماية خاصة تمتلك امكانيات مادية وفنية هائلة على حساب ثروة الشعب ومقدراته، تمدّ أذرعها مثل أخطبوط عملاق في كل زاوية داخل الوطن وخارجه لتحصي على

المواطنين أنفاسهم وتضمن ولاءهم للدكتاتور ومبايعتهم له أو تسليمهم ببقاءه كقدر محتوم. تدعمها في كل ذلك امتداداتها المسماة شعبية والتي تمثلها منظمات الحزب الحاكم وتوابعها من منظمات جماهيرية مهنية واجتماعية مزيفة ومنظمات تحرير عربية وأجنبية مزعومة تضم مرتزقة يحظون بالامتيازات على حساب شعب العراق في مقابل خدماتهم لحماية النظام الدكتاتوري عندما تحين الحاجة معتبرين ذلك مهمتهم الأولى. وقد هضم الشعب جيداً خلال سنوات حكم البعث العفلقي السوداء حقيقة أن هذه الأجهزة جميعاً، السريّ فيها والعلني، لاتشرف عليها وزارة أو دولة، بل هي توظف الدولة كلها لتنفيذ مآربها الشريرة، ولايخضع ارهابها لحدود من تشريع أو قانون، ولاتقيم وزناً لتقليد أو عرف ولاتحترم قدسية دين أو عائلة وهي تبتدع للانتقام من معارضيها أكثر الأساليب والوسائل وحشيةً وبربرية انتقاماً يصل تأثيره إلى سابع جار ورابع درجة من القرابة.

إلا أن كل هذا الجبروت انهار خلال ساعات قلائل أمام غضبة الشعب في المدن المنتفضة. وكان جنود جيش الطاغية العقائدي هم الذين أطلقوا القذيفة الأولى في الانتفاضة على صورته الكريهة معلنين انتقالهم إلى جيش الشعب ومؤذنين بحصول انقسام في الجيش لم يسبق له مثيل في عهد الدكتاتورية الراهنة تجلّى في انضمام عشرات الآلاف من الجنود والضباط إلى الانتفاضة بشكل منفرد أو كوحدات كذلك والاستسلام دون أدنى مقاومة من قبل وحدات عسكرية كبيرة في كردستان وفي الجنوب. ولم تكن هناك قيادة ثورية تتعامل مع هذا الجيش بصورة صحيحة وتعبئة للزحف على أوكار الطاغية في بغداد دون تلكؤ ودون اعطائه فرصةً لالتقاط الأنفاس وهو موضوع سنعود للحديث عنه مرةً أخرى.

أما عناصر أمن ومخابرات النظام وجلاوزة حزبه العفلقي الكريه فقد فرّ من استطاع الافلات منهم كالجرذان المذعورة وغسل من ألقي القبض عليه منهم بدموعه أحذية المنتفضين ممن كان يسومهم الذل والهوان،واستماتت بعضهم في مقاومة يائسة لادفاعاً عن الطاغية المجرم ولكن لأنهم يعرفون أفضل من غيرهم حجم الجرائم التي اقترفوها والمقابر الجماعية التي تقوم عليها أبنيتهم والمصير الأسود الذي ينتظرهم على يد شعب يحقدون عليه بقدر مايخافونه.

وكان أول شيء يفعله الطاغية بعد قمع الانتفاضة هو اعادة ترتيب أجهزته القمعية التي بانت هشاشتها للعيان فحلّ فرقاً من الجيش بكاملها وأحال إلى التقاعد آلاف الضباط وضباط الصف، وبدأ حملة تطهير في جهاز المخابرات والأمن والشرطة، وفتح باب الاستقالة من الحزب الحاكم فانهالت طلبات ألوف الناس الذين يريدون الخلاص من عار هذا الحزب والعودة إلى صفوف شعبهم، مما اضطره إلى منع الاستقالة مرة أخرى وأخذ يبحث عن مؤسسات بديلة لحمايته مثل مؤسسة العشائر المنقرضة ومااليها لكنه مهما فعل ومهما حاول فلن يعيد الوضع إلى ماكان عليه قبل الانتفاضة، ولن ينجح في إعادة بناء جدار الخوف الذي انهار.

أذيعت المقالة أوائل آذار على حلقات من اذاعة حزبنا.

العرب وتحديات الزمن الجديد

لطفي حاتم

حينما تقاتل حركة شعبية من اجل مستقبل زاهر لبلادها تضطر بين آونة واخرى الى مراجعة حصاد سنين نضالها السابقة التي توفر لها على الدوام مادة ملموسة تستطيع على ضوئها تجديد مسارها اللاحق. فان التفاتة سريعة لسنين الماضي المتخمة بالصراعات الكبيرة والصغيرة تقودنا الى معاينة المسالك التي طرقتها الحركات الشعبية العربية وما آلت اليه (الدولة الوطنية)[1]، التي تعد وليدة نضالها وما انتهت اليه من دروب وعرة تكاد تعصف بكل ما تبقى من منجزات حقبة الازدهار الماضية.

وتستمد هذه المراجعة اهميتها في ظرفنا الراهن من اشتداد نبرة الفرح الموهوم عند اولئك الحالمين بارساء تاريخنا على وحدانية الغزو والارهاب، وتلغيم الحدود، وارتهان الثروات، ووصاية الغرباء، متخطين بذلك مخافة الله وغضب الساخطين.

قفزة للوراء

منذ الوهلة الاولى علينا التأكيد على ان نجاحات وهزائم الحركات الشعبية العربية على صعيد انجاز الاستقلال السياسي وبناء دول وطنية قوية مستقلة ارتبطت بالثنائية التي حكمت عالمنا (القديم) حيث لم تكن تلك الانتصارات والتراجعات بمعزل عن الدعم الكبير الذي قدمته بلدان «الاشتراكية المغدورة». وبسبب هذا الدعم المتعدد الاشكال قطعت الدولة الوطنية اشواطاً كبيرة في نموها وتطورها، الذي تحددت ملامحه على اساس تدخلها بالحياة الاقتصادية وبناء قطاع دولة متطور، ومؤسسة عسكرية تدافع عن السيادة الوطنية والقضايا القومية. إلا ان هذه الانجازات مهما تبدت اهميتها في ذلك الحين، فقد تعثرت على عتبات الدمقراطية السياسية التي شكل غيابها الوعاء الحاضن لنمو بذور الارتدادات الكبرى والهزائم اللاحقة. وبالوقت الذي تتحدد فيه مسؤولية الفئات الاجتماعية الماسكة بسلطة الدولة وارتدادها نحو اليمين فان ذلك لا يعفي الحركات

الشعبية، الديمقراطية منها والقومية، من المسؤولية عن ذلك الارتداد.

اذا تعرضنا الى التكتيكات النضالية المعتمدة في ذلك الحين فانها تصدمنا بقواسمها المشتركة حيث انها تمثلت في تغليب الانجازات الخارجية لسياسة الدولة على الهموم الوطنية الداخلية. ففي الوقت الذي ارتكز تكتيك بعض القوى اليسارية على موضوعة التضامن الاممي، والذي تجسّد في منح التأييد لسلطة الدولة الوطنية انطلاقاً من مدى سعة وتطور علاقاتها مع دول «الاشتراكية المغدورة» والسعي إلى حث سلطة الدولة على استيراد ادوات النموذج الاشتراكي من قطاع دولة، الى أهمية التحولات الاجتماعية بظل دولة مركزية قوية، مهملة موضوعة الديمقراطية السياسية على الرغم من الارهاب المتواصل الذي تعرضت له. وقد ساعد هذا الاهمال على ان تستغل قيادة الدولة الوطنية هذه الثغرة المميتة لترسخ نظام لا ديمقراطي مُقلدة بذلك بناء الدولة في النموذج الاشتراكي الذي اعتمد على وحدانية الحزب الحاكم وغياب الديمقراطية وارهاب الدولة ضد الخصوم السياسيين.

ولم تسلم القوى القومية من هذا النقص الخطير فعلى اساس بنائها الفكري والذي تعلو فيه الاستراتيجية القومية على المهام الوطنية الاخرى شجعت بدورها على بناء دولة مركزية قوية تغيب فيها الحريات الديمقراطية وحقوق الانسان وتقرع فيها طبول الحرب ضد العدو الخارجي. وبهذا الصدد لا بد من الاشارة الى ان الحماس القومي الذي ميز نشاط بعض القوى القومية دفعها في احايين كثيرة الى الاندماج في اجهزة الدولة المختلفة افقدها القدرة على تأشير الحدود بين نشاطها كحركة شعبية وبين وظائفها الجديدة المكتسبة. وبالمحصلة فقد شكل ضعف النضال من اجل الديمقراطية السياسية وما رافق ذلك من تطورات اقتصادية واجتماعية الى ان يتعرض الجميع، دولاً وطنية وحركات شعبية، الى هزائم وكوارث كبرى ليس على الصعيد الوطني فحسب بل على الصعيد القومي ايضاً.

ولتدقيق هذه النتيجة نضطر للالتفات ولو قليلاً الى ما ادت اليه موضوعة بناء دولة وطنية مركزية قوية تتمتع بسيطرة كبيرة على اقتصادها من خلال بناء وتطوير القطاع العام الذي ساهم ليس في انعاش الحياة الاقتصادية للشغيلة فحسب بل ادى الى ولادة مبكرة مشوهة لشرائح اجتماعية متنوعة، استفادت من غياب الرقابة الشعبية لتمارس النهب المتواصل للثروة الوطنية. وبسبب النزاعات والتهديدات الخارجية اندفعت الى بناء ترسانة عسكرية كبيرة واجهزة امنية متطورة متزامنة مع نشوء وتطور جهاز بيروقراطي استمد تضخمه من تداخل الوظيفة الحزبية والحكومية خاصة في البلدان ذات الاحزاب الوحدانية الحاكمة والتي تدرج غياب الحس الوطني والقومي عند بعضها الى حد ارتهان الانجازات الوطنية ومصير البلد وتطوره اللاحق بقرارات فردية لهذا القائد أو ذاك.

وعلى الصعيد الخارجي فقد تطورت علاقات الدولة الوطنية مع العالم الرأسمالي بشكل كبير بسبب تشعب علاقاتها مع السوق الرأسمالية الامر الذي ساعد على تقوية البنية الطبقية للبرجوازية البيروقراطية وقوى من جرأتها السياسية للعمل على تشديد وتيرة الارهاب وتغيير النهج السياسي والاقتصادي بما يتلاءم ومصالحها الجديدة التي تسترت عليها بشعارات وطنية وقومية لفترة من الزمن، ويمكن وصف البرجوازية البيروقراطية التي افرزتها هذه الحقبة ببرجوازية «البخشيش» والتي تستمد ثراءها ليس من خلال سرقة قسم من الثروة الوطنية فحسب بل ومن عرض خدماتها على زبائنها الداخليين والخارجيين. وفي تطور لاحق ومن خلال عمليات الشد والطرد برز تشكيل قيادي جديد لقيادة الدولة الوطنية ذو سمات مختلفة عن السلف السابق، نتيجة لتزاوج البرجوازية البيروقراطية والطفيلية مع شبكة الكادر القيادي للمؤسسة العسكرية وتكوين طغمة حاكمة تستمد قوتها من المؤسسات القمعية التي بحوزتها. وقد سرّع من عملية هذا الانهيار التغييرات المتسارعة التي حدثت في بنية الجيش بعد استبعاد العناصر الوطنية المخلصة منه وربط طاقمه القيادي الجديد بمهمات الجيوش الاميركية والغربية من ناحية التدريب والايفاد والمناورات المشتركة، ناهيك عن التصنيع المشترك الذي وفّر لشبكة الكادر القيادية نوعاً من الوظيفة الاقتصادية التي قادته للدفاع عن سلطة الدولة القائمة باعتبارها حقلاً خصباً لمنافعه الجديدة. وقد ارتبطت تلك الاجراءات بأهداف اميركية واضحة تتلخص في تعديل الوظيفة الاساسية لبعض الجيوش العربية خاصة تلك التي لعبت دوراً وطنياً وقومياً مشهوداً من خلال ابعادها عن اهدافها النبيلة تمهيداً الى تسريب جزء من الوظيفة القمعية اليها من الدولة الامبريالية على النطاق الاقليمي.

لقد دلل الانصهار الحاصل بين الشرائح البيروقراطية والطفيلية وبين شبكة الكادر العسكري في الدولة الوطنية على مرحلة جديدة تتسم ببروز قوة طبقية فاعلة تعمل على حماية مصالحها الجديدة اضافة لحماية المصالح (الحيوية) للغرب الامبريالي على النطاق الاقليمي بعد ان فكت هذه الشرائح ارتباطها مع همومها الوطنية وتوجهاتها القومية السابقة.

لقد سارت البرجوازية البيروقراطية العراقية على هذا الطريق إلا انها تطورت بسرعة ملحوظة بمساعدة جهاز الدولة المركزية المتمتعة بثروات بترولية هائلة، والمدعومة بقوة عسكرية كبيرة جرى بناء حلقاتها القيادية بروحية التعالي والعدوان. ولذا فان البرجوازية العراقية اعتمرت منذ البدء الخوذة العسكرية مرتدية شكلاً ارهابياً ليس في علاقاتها مع الخصوم السياسيين في الداخل فحسب بل ومع خصومها في الخارج حيث حاولت بسط هيمنتها السياسية من خلال الحروب الدامية. وهذا الشذوذ للبرجوازية البيروقراطية العراقية الحاكمة المصرة على ارتداء البدلة المرشالية يفسر كارثة الخراب والدمار الذي لحق

بالعراق واهله جراء الخطة الاميركية الرامية الى تعديل مسار هذه البرجوازية البيروقراطية الجامحة بطريقة همجية هي الاخرى.

اخيراً ان التزاوج والانصهار بين الشرائح الطبقية الحاكمة في الدولة الوطنية وظهور التشكل القيادي الجديد، عرقل الى حد بعيد بروز النزعة الانقلابية وادى الى انحسارها في الظروف الراهنة، وفي حالة القيام بعمل انقلابي ناجح فانه لا يعدو ان يكون تعديلاً بسيطاً على شروط سيطرة التكتل المتعدد الاطراف بما يتناسب وصيانة المصالح الطبقية المكتسبة.

إن استعراضنا للتغيرات الحاصلة في البنية الطبقية والوظائف السياسية الجديدة للدولة الوطنية تضطرنا الى معاينة التطورات المهمة في بعض البلدان العربية والمسماة بالدول المحافظة، والتي نشأت في ظل استقرار اجتماعي ـ سياسي نسبي، مما وفر لها ارضية للتطور الهادىء بعيداً عن الهزات الاجتماعية الكبرى معتمدة بنفس الوقت على قاعدة اجتماعية عريضة تتمثل بهرمية راسخة للبنية العشائرية وكذلك الحماية الخارجية وقد استطاعت ان تطور جهاز دولة يستمد قوته وشرعيته من الهيمنة الاسرية، حيث افسح الاستقرار النسبي المجال امام انتقال اقسام من الهرم العشائري الى ارستقراطية مالية مستقرة والسماح لاقسام اخرى في التطور الى برجوازية كمبرادورية لتشكل قاعدة اجتماعية مضمونة لها[٢].

إن هذا التشكل الهرمي ذا القاعدة العشائرية يحدد احدى السمات النوعية للبلدان المحافظة، خاصة الخليجية منها، متميزة بذلك عن التكون القيادي الذي افرزته الدولة الوطنية والذي نتج عن انصهار فئات البيروقراطية المدنية والعسكرية مع الشرائح الطفيلية الاخرى مما أضفى عليها طابع الحركية والحداثة وعدم استقرار قاعدتها الاجتماعية.

وتظهر السمة الثانية للارستقراطية الحاكمة في الدولة المحافظة في محاولاتها الرامية للخروج من التبعية بالمعنى التقليدي للغرب الصناعي واصرارها على ان تكون شريكاً للاحتكارات الاجنبية، حتى وان ظهرت هذه الشراكة بصورة ناقصة غير متكافئة وجاءت المطالبة بالمشاركة هذه على اساس الريع الذي تحصل عليه النخب الحاكمة من العائدات المالية الضخمة الناتجة من الاسراف المتواصل في تبذير الثروة الوطنية وكذلك اصرارها المتواصل على توظيف عائداتها المالية ورساميلها المختلفة في البنوك الرأسمالية الكبرى مما عزّز من وشائج الشراكة والقرابة مع الرأسمال الاجنبي الذي بات يتقاسم وإياها نهب الثروات الوطنية[٣]. وبهذا الصدد يلاحظ جاك توبي عن حق ان «الدول الكبرى المنتجة للبترول صارت اكثر تضامناً مع العالم الرأسمالي»[٤] ومن الجدير بالذكر ان الشراكة المشار اليها لا تستهدف الجوانب المالية فقط بل تتعداها الى جوانب اقتصادية وسياسية.

وتساهم الاموال العربية الوافدة الى البلدان الرأسمالية في ادامة حركة الرساميل الاوربية والاميركية وتخفيف الازمات المالية عنها. وهذا الاستثمار العربي يشترط دفاع الغرب عن سلطة الاسر الحاكمة.

* * *

عند النظر الى مكانيزم قيادة الاسر الحاكمة للسلطة نجدها تعمل بروح التكافل والتضامن. فكما تقول انترنشينل هيرالد تربيون «فانها تعمل مثل شركة تعتمد في جبروتها على عدد هائل من حاملي الاسهم الذين هم في الواقع من الامراء والاميرات»[٥]. واذا اخذنا بنظر الاعتبار التحالف العسكري الاقتصادي لدول الخليج الست نصل الى ان «نقابة الاسر الحاكمة» تشكل طغمة مالية كبيرة تتشابك مصالحها مع الغرب الامبريالي. وتكتسب هذه الشراكة العضوية مضموناً جديداً يتحدد بالقاء المصلحة الوطنية حيث تتشبع الاجيال الجديدة تبعاً لذلك بروح الغرب وتوجهاته متجاوزة النفسية الوطنية والقومية. وبمساعدة الألة العسكرية والاقتصادية الاميركية برز توجه جديد في نشاط الاسر المالكة **يتسم في العمل على رشوة البرجوازية الحاكمة في الدولة الوطنية ومحاولة توظيفها في الدفاع عن المصالح المشتركة للحلف الغربي الخليجي ويعكس هذا التطور جوهر المرحلة الحالية التي تتناسب واهداف الاستراتيجية الاميركية في المنطقة.**

عواقب وخيمة

التطورات المشار اليها تكتمل برؤية اخرى انطلاقاً من مفهوم هيمنة القطب الواحد على النطاق الاقليمي والتي تلقي الضوء على فهم المضمون الجديد لصراعات الحدود والادعاءات التاريخية المتبادلة، والتي كانت ذروتها حروب الخليج الدامية التي خاضتها البرجوازية البيروقراطية في العراق ضد جيرانها والتي انتهت لا الى تحطيم الاسنان الفولاذية للدكتاتورية بل والى كارثة وطنية واقليمية يصعب تصور نتائجها المستقبلية المدمرة ولذا فمن الخطأ النظر بخفة الى هذه النتائج بل وضعها في زاوية استراتيجية متكاملة.

من الملاحظ ان صراعات الحدود، ومعظمها في منطقة الخليج[٦]، تكتسب اهميتها في الظرف الراهن من خلال المساعي الاميركية الرامية الى استكمال هيمنتها العسكرية والاقتصادية والسياسية على الخليج بالاعتماد على توطيد هيمنة دولة عربية مضمونة تشكل القبضة الضاربة لها. وتبرز السعودية كقوة اقليمية كبرى مرشحة لذلك لاسباب عديدة تتصدرها العلاقة التاريخية الاستراتيجية بينها وبين اميركا[٧] حيث تواجد قوة عسكرية اميركية كبيرة على اراضي المملكة وتتمتع الاخيرة بثروات واحتياطات بترولية ضخمة مضافاً

الى مواقعها الدينية في العالم الاسلامي خاصة اذا نظرنا اليها بالترابط مع «الصحوة الاسلامية» وانتشار الدين السياسي، واخيراً لا بد من الاشارة الى اهمية الاستقرار السياسي الاجتماعي[8] الذي تتمتع به المملكة السعودية حيث يشكل هذا الاستقرار دعامة للعوامل السابقة، ويتناسب ترشيحها كقوة اقليمية مهيمنة مع سياستها الخارجية المرتكزة على ما يسمى «بنظرية المجالات المركزية» لمصالحها والتي تحدد بدول الخليج والجزيرة العربية حيث يشكل الحلف الخليجي اداة السيطرة الرئيسية للنظرية المذكورة. وتبذل السعودية بهذا الاتجاه جهوداً مكثفة لا من اجل التفوق الاقتصادي الذي تحاول تعزيزه على اساس احكام السيطرة على المناطق الغنية بالبترول والمتنازع عليها مع اشقائها بل كذلك الهيمنة العسكرية والسياسية وذلك بالسعي **لتحويل نقابة الاسر الحاكمة الى حزب واحد تتحكم السعودية في قيادته وقراراته وبذلك تسلب امراء الخليج حركتهم السياسية وحرية التصرف بثروات اماراتهم، ووضعها تحت متطلبات الهيمنة الاميركية ـ السعودية.**

إن تنامي نزعات الضم والالحاق لاراضي الاشقاء الغنية بالثروات يخدم المحاولات الاميركية الهادفة الى تحقيق استراتيجية العزل الاقتصادي للبلدان الخليجية عن محيطها العربي وتفاعلاته السياسية والاجتماعية وامنه ومستقبله، وذلك يشد النخب الحاكمة وقاعدتها الاجتماعية البرجوازية الكمبرادورية الى المصالح «الحيوية» للغرب بشكل لا انفكاك منه، والسعي لتكوين مجتمعات تحمل سمات مشابهة لليونان القديمة حيث سادت ديمقراطية للسادة المالكين، وشغيلة محلية ووافدة بلا حقوق. وتتزامن تلك المساعي مع تصاعد وتائر العمل على اغراق هذه المجتمعات بأنماط وسلوك الحياة الغربية في محاولة لخلق نفسية معادية للانتماء العربي وصولاً الى **تحقيق استراتيجية التطويق النهائي التي تشكل قاعدة لسلخ هذه المناطق عن انتمائها العربي.** وتمثل مستويات هجرة الايدي العاملة الى دول الخليج والتي بلغت نحو ٥٤٪ من مجموع السكان العاملين والموزعة بين ٤٢٪ في السعودية و٨٩٪ في دولة الامارات و٧٨,٦٪ في الكويت[9] احد العوامل المهمة في تحقيق استراتيجية العزل المشار اليها، خاصة اذا اضفنا اليها مؤشرات السياسة الاقتصادية الجديدة للبلدان الخليجية بعد عاصفة الصحراء والتي تتضمن تقليص المساعدات المعتمدة للبلدان العربية وانخفاض نسبة الاستثمارات الخليجية في المحيط العربي، وكذلك الاستمرار في ابعاد العمالة العربية واستبدالها بعمالة وافدة من دول جنوب شرقي آسيا.

وعليه فان تطوير **التجزئة** وسلب استقلالية بعض الكيانات القائمة سيبقى هو التوجه المعتمد في الفترة اللاحقة. **الامر الذي يطرح بقوة خطر سلب بعض المناطق الغنية**

بالبترول من بعض البلدان العربية مثل العراق تحقيقاً لاهداف استراتيجية اميركية كبرى.

إن الاستنتاج يطرح قضية السيادة الوطنية وبالترابط مع هذه الاهداف في المرحلة الـراهنـة، وبسبب سعة الموضوع وتداخلاته نضطر الى ابداء ملاحظات مقتضبة عساها تكون مدخلاً لدراسة لاحقة.

من المعروف ان هناك علاقة وطيدة بين السيادة الوطنية والسلطة السياسية القائمة، وتتعقد هذه العلاقة من خلال التأثير المتبادل بينهما، فالوطن وسيادته ليسا مجرد حدود دولية معترف بها، بل منظومة متكاملة من عناصر متداخلة ومتشابكة يحتل الموقع المقرر فيها الدولة القائمة وسلطتها السياسية بأجهزتها المختلفة التي يضمن القانون الدولي لها حرية ممـارسـة انشـطتها المتنوعة على حدودها الوطنية وكذلك تنظيم علاقاتها مع المواطنين التابعين لها.

وبسبب حسـاسية العلاقة بين السلطة والمواطنين تنبع اهمية الشكل الذي ترتديه أجهزة الدولة في تنفيذ مهامها. وبالمحصلة يمكن القول ان السيادة الوطنية ترتبط بطبيعة وشكل الحكم القائم والذي تتفرع على اساسه موضوعات اساسية منها الوضعية القانونية التي تشرّعها سلطة الدولة لرعاياها ومدى التزامها واحترامها لحقوقهم المدنية والسياسية وبعبارة شاملة مدى تقيدها باحترام حقوق الانسان.

وفي زمن انهيار الانظمة الشمولية وازدياد المطالبة بالديمقراطية وحقوق الانسان تتخذ السيادة الوطنية مظهراً جديداً في مدى مشروعية السلطة القائمة ومبررات استمرارها في ادارة شؤون الـوطن. ومن هذا المنطلق فقد اقرت القوانين الدولية مبدأ الانتفاض على الانظمة الدكتاتورية والارهابية، ومساعدة المعارضة في نضالها للاطاحة بهذه الانظمة وبناء اخرى على انقاضها، وقد فرزت الحقبة الماضية امثلة عديدة متناقضة[١٠] لكنها تصب في مجرى واحد يؤكد على ان شرعية الحكم تتأتى فقط من خلال الارادة الشعبية التي توفرها الديمقراطية السياسية.

عالمنا العربي يفتقر الى سلطة سياسية تتمتع بالشرعية المطلوبة، ويشكل استمرار ذات القوى الاجتماعية بادارة شؤون الحكم بذرائع وراثية أو شرعية انقلابية سبباً رئيسياً في خرق السيادة الـوطنية وانتهاكها، ويتجلى هذا الخرق بطلب الحماية الاجنبية أو افساح المجال للتدخل في شؤونها الداخلية، وهذا الواقع الذي تعيشه منطقتنا العربية لا ترفضه العلاقات الدولية الحالية بل يتعزز بمضامين جديدة املتها متطلبات الهيمنة والمصالح «الحيوية».

وحدة الاعمال المشتركة

من الملح اعادة التفكير في السياسة المعتمدة والتكتيكات النضالية المصاحبة لها والتي لم تعد تتناسب ومرحلتنا الراهنة. ويتطلب ذلك جرأة في التفاعل مع الواقع والابتعاد عن العموميات وتكتسب اهمية الدعوة الى التجديد فعاليتها من جملة المصاعب المنتصبة امام الحركات الشعبية بتياراتها المختلفة والتي تحاصر تطورها وانتقالها الى حركة فاعلة مؤثرة. فاذا تركنا الارهاب السلطوي الممارس ضدها وما ينتج عنه من محاولات تحجيم دورها في الحياة السياسية تطالعنا اوجه اخرى قائمة تتبدى في استمرار بعض الحركات الشعبية في طرح برامج منتفخة بأهداف استراتيجية كبرى مكتفية بنشاط لا يتعدى الفعاليات الاعلامية الصاخبة مع عدم الالتفات الى الهموم اليومية للمواطنين.

وتتظافر مع هذا المنحى عوامل الانقسام والتشتت التي عمقتها غزوات الخليج الدامية، حيث اعاقت بدورها بناء وعي جماهيري متفاعل مع الاحداث السياسية الكبرى. وتشكل خيبة الامل لبعض المثقفين الذين ارتبطت ابحاثهم وتوجهاتهم الفكرية بما كان قائماً في بلدان «الاشتراكية المغدورة» سبباً اضافياً في تعطيل الانشطة الفكرية الموجهة الى منع الكادحين من الغوص في عدم الشعور بالمسؤولية واللامبالاة السياسية. ولدى دراسة هذه العوامل مجتمعة يطالعنا اليأس والاحباط للمواطن العربي مقترناً بعجز جزئي للحركات السياسية الشعبية عن تحريك الشارع الوطني، خاصة في المنعطفات السياسية الحادة.

المطالبة بتنسيق الاعمال المشتركة يتطلب التخلي عن البرامج ذات الاهداف الكبرى واستبدالها ببرامج مرحلية تستهدف اعادة تربية الجماهير وتسيسها بروح واقعية ملموسة، ويشكل الالتفات الى همومها ومشاكلها ومعاناتها المدخل الاساس لعملية التسيس هذه. وهذا التوجه ليس بالمستعصي الآن بل توفره طبيعة التوترات الاجتماعية المحتدمة في العديد من البلدان العربية ناهيك عن الطبيعة الارهابية للسلطة السياسية القائمة، الامر الذي يتطلب جهوداً مكثفة لتطوير الوعي السياسي للجماهير بما يتناسب والتأكيد على عدم شرعية الانظمة اللاديمقراطية التي تشكل تهديداً بمذابح جديدة لمواطنيها.

إن المطالبة بتنسيق الاعمال المشتركة بين الحركات الشعبية تفرضه ايضاً طبيعة المهمات الحالية التي تتوحد في اطارها اغلبية الفصائل العربية الناشطة والتي يمكن صياغة اهدافها في تحقيق الديمقراطية السياسية المرتكزة على نظام ديمقراطي يعيد بناء شكل الدولة بما يتناسب وموازنة مصالح القوميات في اطار الدولة الوطنية وموازنة المصالح

الطبقية للفئات الاجتماعية المختلفة بما يحقق دولة القانون والعدل الاجتماعي والتي تجد تعبيرها في عمق الروابط الانسانية والاخوية بين القوى الشعبية المختلفة.

والتشديد على الترابط بين الديمقراطية والوطنية تمليه جسامة الاخطار الناجمة عن سياسة الهيمنة التي تمارسها الولايات المتحدة الاميركية والرامية الى تكريس الاخلال بمبدأ موازنة المصالح في العلاقات الدولية الامر الذي يتطلب التشديد على السيادة الوطنية وتعرية الاسباب الحقيقية للاختراقات المتواصلة لها والتي ترتدي اشكالاً متعددة بدءاً بالتستر على الانظمة اللاديمقراطية والارهابية وانتهاء باقامة الاحلاف العسكرية وسياسة النهب والتطويق للمناطق البترولية. ومن هذا المنظور فان الوحدة بين الديمقراطية كشكل للحكم وكعلاقة انسانية بين القوى السياسية وبين الوطنية كمسؤولية تاريخية ازاء البلد وسيادته وثرواته ومستقبل ابنائه تستلزم بذات الوقت استنفاراً وتصعيداً لمشاعر التضامن الشعبي العربي الديمقراطي الذي يشكل ضمانة للجم المحاولات الرامية الى تفتيت الروابط الكفاحية بين شعوب اقطارنا العربية.

أخيراً لا بد من التنويه الى ان برنامج الديمقراطية الوطنية وقاعدته الاجتماعية التحالف العريض بين الحركات الشعبية لا بد له ان ينبثق في البدء على قاعدة قطرية خاصة في تلك البلدان التي تتعرض لكوارث لا تحصى (العراق مثلاً) حيث يشكل هذا التحالف اداة فعالة في الاطاحة بالانظمة اللاشرعية ومنها النظام الدكتاتوري في بلادنا، واقامة انظمة ديمقراطية على انقاضها تمهد الطريق لبناء علاقات اخوية بين البلدان العربية على اساس الحوار المثمر والعلاقات النافعة بدلاً من لغة المذابح والمدافع.

١٩٩٢/١١/٢٠

الهوامش

(١) استخدم مصطلح الدولة الوطنية من الناحية السياسية للتدليل على سلطة الدولة التي جرى استلامها عن طريق الانقلابات العسكرية في غمرة نضال حركة التحرر الوطني العربية.

(٢) لقد سمح آل سعود لممثلي الطبقة الوسطى بالاغتراف من منهل الثروة الوطنية وحولتهم الى شريحة من البرجوازية الكمبورادورية ووسعت بذلك قاعدة دعمها الاجتماعي.

(٣) تقدر الاموال الخليجية المستثمرة بشكل ايداعات مصرفية بـ ٦٧٠ مليار دولار وتشكل ٣٠٪ من مجمل الارصدة الاستثمارية لكل المجموعة الاوربية وتشكل ٩٠٪ من هذه الارصدة اموال سعودية وكويتية بالاساس. انظر عامر عبدالله لماذا كانت حرب الخليج الثانية ث.ج عدد ٢٤٣.

وتتعرض هذه الاموال في احايين كثيرة الى النهب نتيجة لارتباطها بمنظومة البنوك الرأسمالية التي يتعرض بعضها للافلاس كما حدث لانهيار بنك الاعتماد والتجارة الدولي (الاماراتي) أو ما تتعرض له الاستثمارات الكويتية في اسبانيا والبالغة ٤ , ٤ مليار دولار للضياع بسبب تعرض شركة توراس الاسبانية الى الافلاس حيث تعتبر الكويت المالك الرئيسي لها.

(٤) ألان غريش ـ دومنيك فيدال: الخليج مفاتيح لفهم حرب معلنة، دار قرطبة للنشر ص ٨٤.

(٥) سرغي لوسيف يوري تيسوفسكي: الشرق الادنى البترول والسياسة، دار التقدم، موسكو ص ١٨٨.

(٦) ان صراعات الحدود كثيرة ومعظمها يتركز في منطقة الخليج فبالاضافة الى الصراع العراقي الايراني حول شط العرب، ونزاع كويتي عراقي توجد هناك نزاعات وخلافات اخرى، فهناك خلاف حول احتلال ايران لجزيرة ابو موسى وطمب الكبرى والصغرى وخلاف سعودي مع اليمن حول منطقتي نجران وجيزان الواقعتين شمال اليمن، وخلاف سعودي كويتي حول المنطقة المحايدة المليئة بالنفط والتي جرى الاتفاق عليها عام ١٩٦٥، وخلاف سعودي عراقي بالمنطقة الحدودية ثم اقتسامها لكنها لازالت تجري حولها سجالات، ونزاع حدودي بين السعودية وقطر، ونزاع بين أبو ظبي وقطر حول منطقة فور العديد، ونزاع بين سلطنة عمان وأبو ظبي حول واحة البريمي والتي لا تزيد مساحتها الفي متر لكنها منطقة مائية تشكل اهمية لحياة البدو الرحل وفيها اكتشف النفط.

راجع ألان غريش ـ دومنيك فيدال: الخليج مفاتيح حرب معلنة، دار قرطبة للنشر، ملحق ٦ ص ٩٨.

(٧) أول علاقة بين السعودية واميركا ظهرت عام ١٩٣٣ عندما منح السعوديون للاميركيين امتياز استخراج النفط في الاحساء وتطور التعاون النفطي الى تعاون سياسي استراتيجي وفي عام ١٩٤٣ استخدمت اميركا قاعدة الظهران كقاعدة اساسية في حربها ضد اليابان. وفي عام ١٩٤٥ جرى لقاء قمة بين الرئيسين الاميركي روزفلت والملك عبد العزيز ليعزز لحمة محور واشنطن ـ الرياض.

(٨) ان اجهزة الدولة في السعودية موزعة ايضاً على اساس القاعدة الاسرية ـ العشائرية فالجيش مثلاً تسيطر عليه كتلة الصديري عشيرة الملك فهد، والحرس الوطني تحت امرة كتلة الجيلوية ويقودها أخ الملك من ابيه. والملاحظ ان الدكتاتورية في العراق حاولت ان تنهج نفس السبيل في حصر المسؤوليات بين الاسرة الواحدة والعشيرة الواحدة.

(٩) ألان غريش ـ دومنيك فيدال: الخليج مفاتيح لفهم حرب معلنة، دار قرطبة للنشر.

(١٠) لقد ساعد المجتمع الدولي بالاطاحة بنظام تشاوتشسكو بعد الانتفاضة الجماهيرية، ومن ثم الاشراف على الانتخابات في نيكاراغوا وتسلم اليمين الموالي للغرب السلطة على الرغم من التضحيات الكبيرة التي قدمها الساندانيون في نضالهم الدامي. واخيراً الاشراف الدولي على انتخابات انغولا.

نحو إعادة النظر
في ماإتفقنا عليه مما يتصل بـ. تاريخنا

عبد السلام سيد أحمد*

لم تعد «الزمنية» في عصرها الراهن مشروعاً فكرياً وحضارياً يقابل بالرفض أو القبول عبر الجدل والمحاجة الفكرية/ الفلسفية، وإنما بات نعتاً يطلق على كل ماهو وافد وغريب على مجتمعاتنا وحضارتنا. وهكذا دفعة واحدة تم إغتيال كامل تاريخ السجال الفكري الحيوي الذي بدأه ووضع أسسه زعماء حركة إصلاح الفكر الاسلامي في القرن الماضي والثلث الأول من هذا القرن، كما تم تكريس «القطيعة المعرفية» مع كامل التراث المستنير الذي أبدعته الحضارة العربية الاسلامية في عصرنا «الذهبي». وبقيت لدينا تهم التغريب والمروق والخيانة في هذا العصر الذي يصر البعض على تسميته بعصر «الصحوة».

ومن المؤسف حقاً أن يدفع شمول العصر الظلامي هذا الكثيرين من المثقفين المحسوبين على «التيار العلماني» إلى النكوص عن واجب البحث المسؤول والجاد في أطروحة العلمانية باعتبار مايحيط بها من خطر، والاكتفاء بالحديث الخجول عن «الديمقراطية أولاً».

هذا المقال محاولة لاتزعم لها الريادة لالقاء بعض الحجارة في هذه البحيرة الآسنة. إنها محاولة للبحث في التساؤلات القديمة المتجددة حول معنى العلمانية والعلمنة، وإن كان ثمة مكان لهما في مجتمعاتنا «الاسلامية» أو التي يغلب على أفرادها اعتناق الاسلام.

لقد نشأت فكرة العلمانية، كما هو معروف، في أوربا التي تبلور فيها الفكر العلماني ـ الليبرالي الحديث (في الفترة منذ القرن ١٦ وحتى القرن ١٩) في مقابل الفكر اللاهوتي. ومن ثم

أصبحت العلمانية والعلمنة إحدى ركائز المجتمعات الأوربية الحديثة.

ولمصطلح العلمانية SECULARISM واشتقاقاته المختلفة مثل العلمنة SECULAR-IZATION وعلماني SECULARIST عدة معاني بعضها متضارب وبعضها متقابل، وأخرى مترادفة. وللقضية بالطبع منظومة متكاملة ومتسعة أبداً من الأدب الخاص بها، ولاغرو فهي قضية شغلت ولاتزال تشغل بال علماء الاجتماع والتاريخ واختصاصيي الأديان.

لن نغرق هنا في لجة التفاسير الاصطلاحية والدلالات المتعارضة التي قد لاتفلح إلا في «تضييع» القارىء عن الغرض الأساسي لهذه المعالجة. بصفة عامة يمكن رد مصطلح علماني كما هو معروف في اللغات الأنكلو ـ ساكسونية إلى أصله اللاتيني «SAECULUM» والذي يعني «هذا العصر» أو «هذا العالم». وعلى رغم تعدد التفاسير التي لحقت وتلحق بمصطلح علماني وعلمانية (كما ذاع تعريبه)، فإن القاسم المشترك بين التفاسير هو دالتها على نمط لحياة خارج منطلق المنظور الديني وسلطانه. ومن الراجح أن النظر إلى قضية العلمانية يستند في المقام الأول على مدار الرؤية الفكرية والمنهجية للباحث وبالتالي فهي ترتدي معاني متعارضة تماماً بين نظرتي كل من عالم الاجتماع وعالم اللاهوت.

قد يكون من الضروري في هذه العجالة الاشارة إلى ضرورة التفريق بين مصطلح «العلمانية» الذي يشير إلى الايديولجية التي استصحبها الفكر الليبرالي في مواجهة اللاهوت والتسلط الكنسي القروسطي، وبين «العلمنة» بوصفها العملية التاريخية الناتجة عن هذا الصراع والتي لاتزال مستمرة وتنبغي، أيضاً الاشارة إلى أن العلمنة قد تبدت بأشكال وصور مختلفة في مختلف الأصعدة والأنشطة الانسانية.

وتعتبر الحضارة الأوربية الراهنة علمانية بوجه عام، ولكن من الثابت أن المسألة اتخذت مساراً معقداً ومطولاً حتى استقرت على شكلها الراهن.

برزت في عصر النهضة الأوربية (القرن السادس عشر ومايليه) قضية التفكير غير اللاهوتي والذي استقرت ممارسة عمله في ميدان العلوم الطبيعيةأولاً، ثم الانسانية، وذلك بعد معارك ضارية ودامية مع طغيان الفكر اللاهوتي القروسطي (ليست بعيدة عن الأذهان معارك غاليلو، وكوبر نيكس حول كروية الأرض ومسارها.. إلخ). ثم حل عصر التنوير ليدشن نهضة فكرية شاملة حملت معها بالطبع أبرز الطروحات العلمانية الأساسية في ميادين الاجتماع والسياسة، بعد ذلك جاءت الثورة الصناعية لتعطي بعداً إضافياً وأكثر «ملموسية» لهذه الأفكار والصيغ، وذلك بإكمالها التمفصل البنيوي للمجتمع المدني الأوربي. فألزمت الدول بمسائل الادارة والأمن والدفاع وجباية الضرائب، والكنيسة بالشؤون الروحية حصراً، ومن ثم تراجعت دائرة نفوذ اللاهوت وانطلق الفكر العقلاني الطبيعي من عقاله يرتاد المجالات كافة، وتزامن ذلك كله مع إنهيار التراتبية الكنسية ـ الاقطاعية القديمة، لتحل مكانها جدلية العمل ـ الرأسمال.

من خلال هذه التطورات وبإزائها كان يدور صراع ضار على النفوذ بين دوائر الدولة والكنيسة حتى حسم لصالح الأولى. وبحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر والأول من هذا القرن، كان قد تكرس مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، وتوطد قانوناً في المجتمعات الغربية كافة، وأن بأشكال متفاوتة ومختلفة طبقاً لاختلاف التطور التاريخي لهذه المجتمعات وتقاليدها السياسية.

نخلص مما تقدم إلى أن هناك دوائر رئيسية للعلمنة:

- العلمنة فكرياً والمتمثلة في بروز الفكر العقلاني ـ الطبيعي.
- العلمنة سياسياً والتي استقرت في مبدأ فصل الدين عن الدولة.
- ثم العلمنة إجتماعياً والتي تقوم على إحلال منظومة متكاملة من القيم والأخلاق والعلائق الانسانية أو «الأنسية» مقابل الدينية.

ومن الراجح أن أوروبا الراهنة قد حققت ـ حتى الآن ـ علمنة فكرية وسياسية. أما الشق الاجتماعي فظل موضع جدل وخلاف بين علماء الاجتماع والإناسة المعاصرين. ومن دون الدخول في تفصيلات هذا السجال وموضوعاته نبادر إلى القول أننا، خاصة في ما يتعلق بالمجتمعات والحضارة الاسلامية، معنيون بالأصعدة الفكرية والسياسية أي قضايا الفكر العقلاني.

ومن المقولات الشائعة أن العلمانية نشأت في أوربا باعتبارها ثورة ضد تسلط الكهنوت الكاثوليكي، وبما أنه ليس هناك كهنوتية في الاسلام فبالتالي لامكان للعلمانية فيه. ويمضي هذا السياق المنطقي إلى الاحتجاج بأن في المسيحية في الأصل «جذراً» علمانياً طالما أنها تقول بإعطاء مالله لله ومالقيصر لقيصر، بينما يقدم الاسلام نظاماً متكاملاً للحياة في مختلف جوانبها الروحية والمجتمعية وبالتالي فهو دين ودولة.

لقد ساد هذا المنطق لدرجة اليقين حتى أصبح له سلطانه الخاص، وهو سلطان دعمه ووطد من مكانته إزورار الكافة من المثقفين (مسلمين وحتى مستشرقين) عن المقاربة النقدية لهذه القضية. والراجح أن النظر الجدي في قضية العلمنة والحضارة الاسلامية لايتم عبر الاحتجاج بالنصوص، وإنما بالنظر الدقيق إلى ماحدث على أرض الواقع بالفعل خلال التاريخ الاسلامي في حقبه المختلفة وأطره السياسية، ونتاجه الفكري والحضاري.

صحيح، لم يعرف تاريخ الاسلام الطروحات العلمانية كما تطورت في أوربا الحديثة، ولم يعرف أيضاً أنماط الحداثة الليبرالية السائدة حالياً، ولكن عرف التاريخ الاسلامي التيارات الفكرية/ الفلسفية/ العقلانية، وعرف السلطة الزمنية/ الدنيوية.

الحديث النوستالجي

وباستثناء مراحل التكوين الأولى (ظهور الاسلام، حقبة الخلفاء الراشدين، وبناء الامبراطورية في صدر العصر الأموي) فإن الحضارة الاسلامية تنقسم إلى مرحلتين رئيسيتين: الأولى، العهد الزاهر، أو المرحلة «الكلاسيكية» والممتدة من القرن التاسع الميلادي وحتى الثاني عشر، والثانية

عهود الانحطاط وهي التي أعقبت ذلك التاريخ (خاصة بعد سقوط بغداد في ١٢٥٨) واستمرت حتى القرن التاسع عشر، بل يمكن القول أنها لاتزال مستمرة إلى يومنا هذا مع الأسف.

شهد عهد الحضارة الزاهر رقياً ورفاهاً مادياً، كما فرز نتاجاً غزيراً في مختلف ضروب العلم والفن (بالطبع وفق إمكانات ذلك العصر وضمن حدوده ومرجعيته المعرفية). ولانأتي بجديد إن قلنا أن هذا العهد قد أفرز تياراً عقلانياً رصيناً وجزئياً ومنفتحاً خلف آثاراً قيمة في مختلف ضروب الفكر والفلسفة. ولعل من أبرز أساطينه على سبيل المثال: أئمة المعتزلة والغزالي وابن رشد وابن سينا، ومن المتأخرين ابن خلدون، والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذه العجالة. ولولا أن هذا التيار العقلاني قد قمع باكراً أو همش، فلربما كان قدم مساهمات أغنى وأبعد أثراً في الحضارة الانسانية اللاحقة. وعلى رغم كثرة الحديث النوستالجي عن فضل المسلمين على أوربا عشية نهضتها، إلا أنه نادراً مايتم شرح هذا التأثير والتوقف المتأمل عنده. إن كتابات علماء المسلمين وفلاسفتهم الأجلاء التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية من أمثال ابن رشد وابن سينا وابن النفيس، بين آخرين، تشترك جميعاً في نسبتها إلى التيار العقلاني الذي جرى الحديث عنه أعلاه. وهذا التيار، كما هو معروف تعرض لحملات ضارية في عصره، بل لايزال لايحفل به من المسلمين إلا القلائل. أما الأكثرية فجلهم يناصبه العداء بفعل ماوصلهم من القدماء من شبهات حوله. هكذاو كما ينبئنا محمد أركون، تمارس غالبية مسلمي اليوم «قطيعة معرفية» مع أفضل إشراقات تراثها العقلاني المجيد، وتعتصم بتراث الفقهاء والمقلدين على رغم ظرفية اجتهادات هؤلاء.

نعم، لقد خصب نتاج هذا التيار العقلاني الاسلامي في فكر أوروبا النهضوي الذي وضع أساس الفكر التنويري اللاحق. وبالتالي يمكن القول أن الفكر الأوربي العقلاني/ العلماني الحديث يتصل نسبة بالفكر العقلاني الاسلامي. بل لقد ورد بالفعل إسم ابن رشد (AVEROS باللاتينية) ضمن الآباء القروسطيين للفكر العلماني. نسوق هذا القول ليس بغرض الخروج باستنتاج متعسف يزعم أن العلمانية هي في نهاية المطاف نتاج للفكر الاسلامي، أو أن الاسلام أسبق من أوربا إلى هذا الاكتشاف، وإنما لتقرير التواصل بين الحضارات وواحدية التراث الانساني أياً كان منبعه. هذه الحقيقة ـ كثيراً مايعمد الناس إلى تجاهلها والتمترس ضمن الحدود الضيقة للقوم أو الطائفة الدينية، أو الاطار المحلي (عرقياً كان أم اقليمياً).

واستطراداً نقول أن أية نهضة اسلامية مقبلة أو منظورة لن تحدث إلا تأسيساً على نتاج الحضارة الغربية الراهنة وفكرها «العلماني» (أقول تأسيساً وليس نسخاً أو مسخاً). ومن يقل بغير ذلك فليأتنا بمشروعه الحضاري المنتسب إلى حضارة الاسلام وحدها بلاشريك.

على الصعيد السياسي نجد أن التاريخ على مر عصوره أفرز مؤسسة (الخلافة)، وهي مؤسسة على رغم مرجعيتها الدينية التي تبلورت عبر العصور كإطار للشرعية، إلا أنها من حيث الجوهر لم تكن تختلف كثيراً عن مؤسسات الحكم القائمة حينذاك في الامبراطوريات والكيانات المعاصرة، بل

إن الخلافة الاسلامية ورثت الكثير من نظم وتقاليد الحكم والادارة التي كانت سائدة لدى الفرس والرومان.

فلقد كان الصالحون من الخلفاء منذ عهد معاوية وحتى إلغاء المؤسسة على يد أتاتورك عام ١٩٢٤ هم الاستثناء وليسوا القاعدة. والثابت أن الخلفاء الذين كان يخطب لهم في المساجد ويضرب باسمهم على العملة، لم يكونوا يتحكمون برقاب الناس وأموالهم إلا بسيف السلطة القائمة على عصبية العشيرة أو اصطناع الجند، أو تغلب ذوي الشوكة من أمراء الحروب (كما كان الأمر في عهود العباسيين المتأخرة)، وبالتالي لم يكن عقد الامامة التي وضعها وفصلها فقهاء ذلك العصر.

والخلاصة أن مؤسسة الخلافة التي سادت العالم الاسلامي في مختلف مراحل تاريخه كانت مؤسسة دنيوية (أي علمانية بالمعنى الحديث) في جوهرها أو تصرفات القائمين عليها الذين لم يتورع أكثرهم عن ظلم الرعية والغلو عليها، ولم يتردد بعضهم لحظة في اقتراف أبشع الجرائم (مثل هدم الكعبة وسفك دماء آل البيت) من أجل تدعيم سلطانهم. وعليه فإن مقولة الاسلام دين ودولة ظلت نموذجاً يتطلع إليه المسلمون، وليست تجربة واقعية ملموسة يضاهون بها بقية الأمم، هذا ماخلا تجربة المدينة في عهد الراشدين (رضي الله عنهم)، وتلك تجربة كانت لها ظروفها التاريخية وملابساتها الخاصة والتي يصعب إن لم يكن يستحيل تكرارها.

يتصل بهذا الموضوع قضية الكهنوتية والقول بعدم وجودها في الاسلام. والراجح أن الاسلام عرف أنماطاً مختلفة من «الكهنوتية» من دون أن تأخذ الشكل التراتبي الدقيق الذي ميز الكهنوتية الكاثوليكية. وحتى هذا الشكل عرفت بعض المجتمعات الاسلامية شبهاً له في عهد الخلافة العثمانية التي تم خلالها تنظيم طائفة العلماء بصورة هرمية يتربع على قمتها شيخ الاسلام في الأستانة. وبالطبع عرفت الشيعة الامامية منذ عهد بعيد النظام التراتبي الهرمي لعلمائهم. وعرفت مجتمعات أخرى أشكالاً أقل شأناً من هذه، ولكن يبقى القاسم المشترك بينها كلها إنفراد العلماء بإصدار الفتاوى والأحكام ومعرفة الحلال والحرام ومابينهما، وهي معرفة كانت تعطيهم سلطاناً كبيراً على عامة الناس. وحتى في ضحى الاسلام لم يخل الأمر من فرض الخلفاء لمذاهب بعينها بالقوة.

وإن لم يعرف حاضر العالم الاسلامي سيادة الفكر اللاهوتي في مجال العلوم الطبيعية وأمثالها بسبب طغيان الفكر الأوربي، فقد سمعنا بعض «العلماء» حتى وقت قريب يشككون في حقيقة صعود الانسان إلى القمر، وغيره، من الاكتشافات العلمية الحديثة. ولكن حيث أصبحت هذه المسائل حقيقة واقعة في عصرنا الفضائي التكنولوجي هذا، لم يجد «العلماء» بداً من التسليم، ثم محاولة دفع ذلك بأننا «عرفنا هذا قبل أوربا بأربعة عشر قرناً»!! لايدري أحد بالطبع ماكان سيصير عليه الأمر لو أن الظروف التي شهدتها أوربا في القرون ١٦-١٩ وتمخضت عنها حضارتها الحالية، كانت قد نضجت هي نفسها في العالم الاسلامي. وأغلب الظن أن معركة مشابهة كانت لتدور بين مجالي تفكير متعارضين. أما الآن فإن هيمنة الحضارة الأوربية أدت إلى أن تتخذ المعركة شكلاً آخر

وهو طبيعة الاستجابة الاسلامية للتحدي الأوربي/ الغربي، وهو سؤال ظل ماثلاً منذ القرن الماضي وحتى هذه اللحظة.

وصفوة القول أن الأفكار والمجتمعات الاسلامية عرفت تيارات مشرقة من التفكير العقلاني، كما عرفت أنماطاً من الدول الزمنية وهاتان الظاهرتان تعتبران بعض وجوه العلمنة، وإن اختلف السياق التاريخي. وإن اعتبرنا نمط التفكير العقلاني الذي أفرزه العهد الزاهر تراثاً حيوياً خليقاً بمسلمي اليوم أن يعرفوه، فإن مؤسسة الخلافة الدنيوية أفرزت الكثير من التجاوزات والتجارب المرة.

(عن الحياة) ٣/٣١

* أستاذ جامعي سوداني يقيم في بريطانيا.

واقع حقوق الانسان في كردستان

بتاريخ ١٠ ك٢ المنصرم وجه مكتب سكرتارية منظمة حقوق الانسان في كردستان التقرير أدناه إلى قيادة الجبهة الكردستانية:

تحية انسانية ...

طياً نسخة من التقرير الشهري لمنظمتنا حول واقع حقوق الانسان في كردستان، راجين الاطلاع عليه، وأملنا بذل الجهود الحقيقية لوضع حد للانتهاكات الحاصلة في كردستان وتناشد منظمتنا دراسة المقترحات الواردة فيه، وايجاد الحلول العملية والثابتة لها، خدمة للانسانية واحترام حقوق الانسان والحفاظ على التجربة الديمقراطية في كردستان. مع تحيات منظمتنا...

هذا وكان المحامي م.ص ناميدي قد قرأ التقرير في قاعة (ميديا) باربيل نيابة عن مكتب السكرتارية وذلك ضمن الأسبوع الثقافي لوزارة الثقافة في كردستان. وعمم التقرير على الصحافة للنشر.

تعتبر منظمة حقوق الانسان في كردستان المنظمة الوحيدة من نوعها التي تعمل في الساحة الكردستانية في الوقت الحاضر. وقد أطفأت الشمعة الأولى في العاشر من ك ١ في هذه السنة بمناسبة ذكرى تأسيسها، الذكرى التي تصادف تأريخ صدور ميثاق حقوق الانسان العالمي وقد

مارست المنظمة شرعيتها عبر مؤتمر تأسيسي صدق لائحة العمل لها والمبادىء العامة وانتخب هيئة ادارية ومكتب سكرتارية ولجاناً اختصاصية. ولها فروع في المحافظات الأربع وفرع آخر في مدينة استوكهولم في السويد وبلغ مجموع طلبات العضوية أكثر من (١٠٠٠) طلب.

إن المبادىء الأساسية للمنظمة تتكون من (٦٧) مادة، إضافة إلى المحور الثقافي والحضاري. وهي مقسمة على المبادىء الدستورية والقانونية والاجتماعية والحريات العامة والحقوق الشخصية وحقوق المرأة ومبادىء رعاية الأطفال وغيرها. ولايخفى على سيادتكم بأن هذه المنظمة قد تأسست من خلال لجنة تحضيرية ضمت مجموعة من الأطباء والشعراء والمحامين والكتاب وأساتذة الجامعة والمهندسين. وقد أصدرت مجموعة من البيانات والمذكرات الرسمية تناشد منظمات حقوق الانسان في العالم إدانة الانتهاكات والخروقات الفاضحة في العراق. وبعد التأسيس وضعت المنظمة خطة بالمحاور التالية:

١ ـ جرد وتوثيق ضحايا عمليات الأنفال سيئة الصيت.

٢ ـ جرد وتوثيق الضحايا من البارزانيين المفقودين.

٣ ـ جرد وتوثيق ضحايا الأسلحة الكيمياوية.

٤ ـ جرد وتوثيق ضحايا الاختفاء القسري في كردستان العراق.

٥ ـ الدخول في مشاريع وبحوث انسانية بالاشتراك مع منظمة (ميدل أيست ووج الأمريكية) ومنظمة العفو الدولية، والمعهد الكردي في باريس.

وقد تمخضت عن هذه الدراسات والبحوث نتائج ايجابية وأصبحت أساساً للدراسات اللاحقة ولازالت المنظمة بفروعها مستمرة في توثيق المحاور المذكورة أعلاه.

إن العمل في منظمتنا هو عمل طوعي وحر.هدفه حماية واحترام حقوق الانسان في كردستان، وكانت المنظمة قد وضعت أمام أنظارها أن مهمة احترام حقوق الانسان في كردستان ليست طريقاً معبداً ومفروشاً بالورود وإنما مهمة صعبة. وإن الناشطين فيها في أكثر الأحيان يصبحون عناصر غير مرغوبة من قبل الأجهزة الرسمية، يقتحمون أسوار السجون والمعتقلات ويراقبون الانتهاكات ويكشفون الأسرار التي تقبع في كواليس التحقيق، إنها ساحة المنازلات الشريفة والمباريات على الحق والواجب والانسان المقدس. فعليهم أن لايهابوا الموت في سبيل هذا الحق ولايرتعبوا من الارهاب والارهابيين سواء كانوا أشخاصاً أو سلطات أو منظمات. وكانت الحجج والذرائع تتردد لدى بعض زملائنا بأننا كشعب مغلوب على أمره خرجنا من بطش الارهاب والسلطة الدموية في بغداد، وإن جميع حقوقنا كانت منتهكة، علينا أن نفسح المجال للجبهة الكردستانية وأحزابها لكي تقوي أقدامها وتنظم الاطار العام لكردستان وتضع برامجها السياسية والديمقراطية والانسانية. فعلاً فتحنا الباب أمام فرصتهم التأريخية وسكتنا عن انتهاكات كثيرة. سكتنا لسببين/ الأول، إتاحة الفرصة للجبهة الكردستانية والأحزاب لكي تقوى ساعدها وتقود المجتمع كونها سلطة الأمر الواقع،

والثاني، لكي لايستفيد العدو من قصورنا وانتهاكاتنا وتصبح مادة لأبواقه الاعلامية وذريعة له لكي يطعن في سلطتنا ، وذلك رغم وقوع انتهاكات كثيرة في كردستان في ظل تلك السلطة وكان أول ضحية في منظمتنا هو العضو الدكتور (محمد باجلان) الذي استشهد على أيدي ارهابيين وخارج القضاء.

هناك ضحايا أخرى لاتعد ولاتحصى بسبب حكم الميليشيات التابعة للأحزاب، وأن الغيوم قد رحلت وانقشعت، والضباب قد اندحر وأشرقت الشمس التي كنا بانتظارها بملء أحداقنا والمتمثلة بالانتخابات البرلمانية في كردستان وتأسيس البرلمان وتشكيل الحكومة وتنظيم المؤسسات والدوائر وأجهزة الشرطة و الاتاسايش (جهاز الأمن العام ـ ث جـ) ، وانتظمت الحياة العامة بشكل تدريجي.

سادتي، عندما كنا نصرف النظر عن الانتهاكات بحجة عدم وجود سلطة شرعية في كردستان كنا نعتبر ذلك واجباً وطنياً لظروفنا الذاتية والموضوعية. أما الآن فلاتوجد أية مبررات للسكوت عن هذه الانتهاكات وأن الواجب الانساني يفرض علينا أن نحقق في جميع الانتهاكات ونوثقها ونقدمها إلى الجهات المسؤولة، وفي حال عدم استجابتها للمناشدات الصادرة من المنظمة علينا أن نعلنها دون خوف وأن المنظمة قد توصلت إلى قناعة بأن السكوت عن أية خروقات في كردستان سواء ارتكبت من قبل الأجهزة الرسمية أو منتسبي الأحزاب، سوف يعقد الأمور ويضع حقوق الانسان في مهب الريح، ويساعد على تربية وضع دكتاتوري للأنظمة المشكلة حديثاً. كما أن صوتنا يجب أن يسمع في كافة المؤسسات صغيرها كبيرها ، وبالنتيجة نخدم شعبنا ونوسع مدارك مؤسساتنا الأمنية والقضائية والادارية بالوعي الانساني لأن المجتمع الكردستاني يحتاج إلى الوعي الكامل بحقوق الانسان واحترامها، وعلى أثر حالات البطش ـ والارهاب والانتهاكات الفاضحة التي قام بها النظام العراقي ضد أبناء كردستان فقد تحركت الجهود الانسانية العالمية تحركاً لامثيل له بمنظماتها الانسانية وصحافتها الحرة ومواطنيها، وقدمت احتجاجات شديدة لحكوماتها والمجتمع الدولي ودعت لمناصرة الشعب الكردي وحماية حقوقه ووقف حملات الابادة ضده. وفعلاً استيقظت الشعوب والحكومات لتقديم العون الانساني للكرد وتقرر باسم الجهد الانساني إيجاد مظلة آمنة لأبناء كردستان وفق قرار ٦٨٨ وتحت حماية مجلس الأمن، لكي يعيش أبناء الشعب الكردي في سلام وطمأنينة، ولولا هذا الجهد الانساني الخلاق والعظيم لما تحقق مانحن فيه الآن، حماية دولية طمأنينة، سلام انتخابات برلمانية، تشكيل حكومة اقليمية، عيش الناس بحرية وسلام بعيداً عن ظلم واستبداد النظام الدكتاتوري.

إذن ماهو الواجب الذي يقع على عاتقنا نحن أبناء كردستان، حكومة وبرلماناً ومسؤولين وأحزاباً ومواطنين لكي نرد احسانهم ونثمن مواقفهم الانسانية العظيمة ونثبت للعالم أجمع بأننا شعب خيّر وانساني؟ تعتقد منظمتنا بأن خير سبيل وطريقة لاعادة احسان الجهد الانساني وتثمين مواقفهم هو (احترام حقوق الانسان وحمايته في كردستان). وبهذه المناسبة فإن هناك ضمانات دستورية وقانونية

لو توفرت في كردستان لأصبح احترام حقوق الانسان أكثر يسراً، ومهمتنا أكثر سهولة ومنها:

الوضع الدستوري والقانوني في كردستان: لازال المجلس الوطني الكردستاني يمارس صلاحياته وفق أحكام المادة (٦٥) من قانون الانتخابات التي تحدد الصلاحيات الدستورية للمجلس، إن الحاجة الضرورية تقضي بإعداد مشروع دستور اقليمي لكردستان، وطرحه للمناقشة الشعبية الواسعة بواسطة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وإجراء ندوات لمناقشته ومن ثم سنّه، ليكون القانون الأساسي للاقليم. وفي كل الأحوال يجب أن تقضي أحكامه بضمان الحريات العامة والحقوق الشخصية ومبادىء حقوق الانسان، واستقلالية القضاء والسلطات التحقيقية، ويكون الولاء المطلق في جميع التصرفات للقضاء. إضافة إلى ضمان حرية النشر والتعبير وتلقي الأخبار والمعلومات حسب ارادة الانسان ومبدأ تكافؤ الفرص في الوظائف العامة. ويهدف بالأساس إلى تطبيق مبدأ سيادة القانون وتحديد الصلاحيات ومبدأ الفصل بين السلطات، وإجراء انتخابات محلية لانتخاب مجالس المحافظات والأقضية والنواحي، وإلغاء جميع القوانين والقرارات المخالفة لمبادىء الدستور وذلك وفق مبدأ دستورية القوانين.

إن سن دستور إقليمي يساعدبلا شك في تعزيز سيادة القانون واحترام حقوق الانسان، ويخلق الآلية اللازمة لتحقيق العدالة والمساواة أمام القانون، ويعتبر ذلك من الثوابت الأساسية لدولة القانون وسيادته وتشريع القوانين على ضوء أحكام الدستور، في حين أن السلطة التشريعية في كردستان تمارس صلاحياتها وفق أحكام قانون الانتخاب، وقد أصدرت عدة تشريعات تخص تأسيس الوزارات والمؤسسات الرسمية وأجهزة الشرطة و(الاتاسايش) مما يخلق آلية غير صالحة لحماية حقوق الانسان في كردستان، ويعرقل مسيرتها. وعلى سبيل المثال لاالحصر فإن الفقرة الخامسة من المادة الأولى من مبادىء منظمتنا تقضي بأن جميع الناس أحرار متساوون في الكرامة والحقوق في حين أن هناك فوارق بين تلك الحقوق تعزى إلى الفكر والآراء السياسية وخاصة أن الحكومة الكردستانية قد دأبت على تحزيب الجهاز الرسمي، ومن الأعلى اعتباراً من الوزير إلى أدنى درجات السلم الوظيفي. وتتم الترشيحات للوظائف الرسمية والعامة من قبل الحزبين الرئيسيين باعتبارهما حزبي السلطة في هذه المرحلة. وإن ذلك يترك الأثر العميق على استقلالية الأجهزة الرسمية وأجهزة القضاء وخاصة السلطات التحقيقية. وأن المفاهيم الديمقراطية المتبعة من قبل جميع دول العالم الديمقراطي تقضي بأن تكون السلطات التحقيقية محايدة ومستقلة عن نهج وسياسة الدولة أو الاقليم لأنها تعمل وتمارس مهامها الوظيفية تحت إشراف القضاء أو بموجب أحكام الدستور والقانون.

إن القضاء يجب أن يكون مستقلاً لاسلطان عليه إلا القانون وأن تكون الأجهزة المكلفة بتطبيق القانون واحترام النظام العام مستقلة ومحايدة أيضاً، في حين أن المواطنين المعيّنين في أجهزة (الاتاسايش) والشرطة والمكافحة هم من مرشحي الأحزاب اعتباراً من المدراء ونوابهم إلى مفوض

التحقيق ومنتسبيه، بما أن قانون الانتخابات الخاص بالمجلس الوطني الكردستاني النافذ يقرر مبدأ تداول السلطة بين الأحزاب التي تفوز بالانتخابات، فيجب التركيز على هذا المبدأ المهم، فإذا فاز حزب آخر في الانتخابات القادمة فهل يجوز لهذا الحزب أن يغير جميع الكوادر والأفراد والمحققين ويقوم بإنهاء خدماتهم الوظيفية ويعين منتسبي الحزب الفائز بولائهم؟ الجواب... كلا. لأن الحزب الذي يستلم السلطة يغير الكوادر الأساسية في الادارة والأجهزة والوزارات فقط بغية تطبيق نهج الحزب وسياسته، أما الأجهزة الأمنية والشرطة والقضاء فيجب أن تكون مستقلة تماماً وتمارس دورها ومهامها الموكولة بموجب القانون وتحت قيادة أية حكومة مشكلة ومن قبل أي حزب فائز. وبهذا المبدأ ستكون سيادة القانون المبدأ المعمول به لتلك الدولة أو الاقليم، كما أن الأجهزة الرسمية، وخاصة الشرطة و(الاتاسايش)، لازالت تطبق قانون العقوبات المرقم ١١١ لسنة/ ١٩٦٩ الصادر من النظام العراقي. وإن القانون المذكور يضع الآراء والمعتقدات السياسية ضمن الجرائم والأفعال المخالفة لنصوص ذلك القانون وأن أحكام المادة ٢٢ تعرف الجرائم السياسيةوتضع عقوبة الاعدام على رأس العقوبات الأخرى. ورغم أن البرلمان قد أصدر قراراً يقضي بتجميد القوانين والقرارات التي تتنافى والمبادىء الديمقراطية، إلا أن نوعية التهمة والتحقيق والمساءلة القانونية لازالت بنفس الاتجاه السابق للسلطة. وكان الواجب يقضي بتشريع قانون عقوبات يلائم نصوص المفاهيم الديمقراطية في كردستان، وتحديد الجرائم وأنواعها وعقوباتها، وإن كان هذا القانون مؤقتاً لمرحلة فيجب تحديد الصلاحيات المركزية والاقليمية للنظام الفدرالي على أن تكون أحكامه مصاغة وفق مبادىء حقوق الانسان والمعايير الأساسية لقوانين العقوبات العالمية وقواعد صيانة الحقوق الشخصية والحريات العامة.

النظام القضائي: لازال النظام القضائي ضعيفاً وإن خطوات وزارة العدل في الاقليم خطوات بطيئة في سبيل تأسيس السلطة القضائية المستقلة، وخاصة في مجال تشريع قانون السلطة القضائية وتحديد مهام مجلس العدل أو القضاء وتشكيل المحاكم بدرجاتها وخاصة تشكيلات محاكم الاستئناف ومحاكم التمييز وهيئتها الاختصاصية بغية إبراز دور القضاء في الحياة العامة وضمان حقوق المواطنين. كما أن التحقيقات الجنائية لازالت من اختصاص أجهزة الشرطة و(الاتاسايش)، رغم أن قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي يقضي بأنها من اختصاص القضاء وحاكم التحقيق. وأن مهمة الشرطة و(الاتاسايش) والمكافحة هي تنفيذ قرارات قضاة التحقيق وممارسة نشاطها تحت الاشراف القضائي المباشر. ولعدم وجود مثل هذه الضمانات القانونية وضعف وزارة العدل، فإن السلطات التحقيقية وخاصة (الاتاسايش) تتجاهل قرارات قضاة التحقيق وتمتنع عن تنفيذ القرارات الصادرة في القضايا التحقيقية. وقد وردت معلومات أكيدة بأن (الاتاسايش) قد امتنع عن تنفيذ قرارات عديدة تتعلق بالافراج عن الموقوفين لعدم كفاية الأدلة، أو تسليم الأموال المضبوطة (النقدية والعينية) للموقوفين. وهي تسجل إيراداً للأجهزة دون سند قانوني).

إن تحقيق العدالة في كردستان يتطلب جهدا مثابراً من وزارة العدل وخاصة تعزيز دور القضاء. وسيادة القانون من المهام الضرورية والملحة في سبيل ضمان حقوق المواطنين وتطبيق واحترام حقوق الانسان في كردستان. كما أن وزارة العدل قد أعدت مشروعاً للسلطة القضائية يحتوي على نص قانوني يقضي باستبعاد أعمال السيادة من اختصاص القضاء بشكل مطلق، في حين أن النص المذكور مخالف لمبادىء حقوق الانسان ومعايير العدالة. فترى منظمتنا بأن يحدد القانون أعمال السيادة أو جواز مراجعة المتضررين من أعمال السيادة للقضاء عن الأضرار التي لحقت بهم أو بأموالهم. والمطالبة بالتعويض نتيجة ممارسة الدولة لأعمال السيادة. إن أنواع المحاكم هي نفس المحاكم المقترحة مثل (البداءة والشرعية والجنح والجنايات) وكان من الواجب درج محاكم قضائية خاصة بالأراضي الزراعية تختص في المنازعات الزراعية بين الفلاحين وأصحاب الآراضي إضافة إلى درج المحاكم الادارية الخاصة بحلها أو وقف نشاطها. إن المنظمة تعتقد بأن الولاء المطلق يجب أن يكون للقضاء، إضافة إلى إستقلالية وحيادية وهذا المبدأ يخلق أرضية صلبة لحماية حقوق الانسان. ثم إن هناك عشرات بل مئات القضايا المحسومة من قبل المحاكم المدنية والشرعية والجنح والجنايات تتعلق بالحقوق الشخصية وحقوق المواطنين وبالطلاق والنفقة والحضانة وأحكام نافذة بحق المحكومين عن التهم الموجهة إليهم مجمدة وغير مكتسبة الدرجة القطعية، لعدم وجود محكمة التمييز للنظر فيها، وإن المتهمين لازالوا موقوفين لمدة تتراوح بين ستةأشهر إلى سنة و(١٨) شهراً وإن ذلك يعتبر مخالفة صريحة لمبادىء حقوق الانسنسان، ويجب الاسراع في النظر في الطعون الواردة عليها وتقرير مصير الموقوفين، علماً أن هناك موقوفين من قبل محاكم (شورش) الملغية والمحكمة الخاصة لمدة تتراوح بين سنة إلى السجن المؤبد وكان الواجب يقضيبإعادة النظر في تلك القضايا وتقرير مصير المحكومين وضمان حق الدفاع لهم وعرض قضاياهم أمام المحاكم القضائية مروراً بالمحاكمة وإنتهاء بالتمييز.

كما أن وزارة العدل لم تتخذ أية إجراءات بخصوص قضية المتظاهرين من منتسبي ومؤيدي (p.k.k) في ١٩٩٢/٨/٢٣ والتي أدت إلى نزاع مسلح بين المتظاهرين وأفراد (الاتاسايش) ووقع أربع ضحايا من الطرفين. وأن قاضي التحقيق قد قرر فتح قضية مستقلة ضد أفراد (الاتاسايش) وفق أحكام القانون، وأن القضية التحقيقية لازالت من اختصاص مديرية (الاتاسايش) إربيل، في حين أنها طرف في القضية أي أنها المشتكية والمتهمة والمحققة في آن واحد. وكان الواجب على وزارة العدل نقل التحقيق إلى سلطة تحقيقية محايدة. وقد رفعت منظمتنا تقريراً بذلك إلى الجهات المسؤولة.

كما أن وزارة العدل قد وافقت على إصدار قرار من مجلس الوزراء بتشكيل لجنة أمنية مهمتها التحقيق والموافقة على بيع العقارات في كردستان وعدم جواز بيع العقار أمام المحاكم أو دوائر الطابو الا بعد الموافقة الأمنية. وإن هذا القرار يعتبر تدخلاً واضحاً في شؤون القضاء وتحديداً

لولايته إضافة لمخالفته لمبادىء حقوق الانسان وذلك بحجة منع المؤيدين والملتحقين بالسلطة في بغداد من بيع عقاراتهم ودورهم الواقعة في كردستان.

وإن الخطوة المهمة التي خطتها الحكومة والبرلمان هي إلغاء المحكمة الخاصة أي محكمة (شورش)، وتعتبر هذه الخطوة تعزيزاً لدور القضاء وولائه العام وضماناً لحقوق المواطنين وثابتاً من ثوابت حماية حقوق الانسان في كردستان، وترى المنظمة إحالة جميع القضايا المنظورة أمامها إلى القضاء والمحاكم وإعادة النظر فيها مع ضمان حق الدفاع للمتهمين.

أما بخصوص موقف وزارة الداخلية من منظمتنا ونشاطها فإنه موقف إيجابي لحد هذا التأريخ. فقد أصدرت تعميماً إلى جميع أجهزتها بالتعاون مع أعضاء لجنة المحققين وجمع المعلومات العائدة للمنظمة وتسهيل أمرهم بدخول السجون والمواقف والاطلاع على الأوراق التحقيقية ومتابعة الظروف العامة والخاصة للمواقف والسجون. كما عقدت منظمتنا ندوة لضباط (الاتاسايش) والشرطة في مقر منظمتنا بالتعاون مع وزارة الداخلية وحضر (٧٣) ضابطاً ومن أعلى الرتب. والندوة كانت تخص الاجراءات التحقيقية وموضوع التعذيب والانتهاكات في المواقف ومراكز الشرطة. ونتيجة لهذا التعاون فقد أمر بإطلاق سراح ٥٦ موقوف رأي من جماعة (P.K.K) و«روت كومنيست» واستجابت ويكتب تحريرية لمناشدات المنظمة. أملي أن يكون هذا الموقف منهجاً للوزارة خدمة للانسانية.

أما بخصوص الانتهاكات في مديريات (الاتاسايش) والشرطة والمكافحة فلايخفى على حضراتكم بأن لمنظمتنا معلومات وثيقة بارتكاب انتهاكات فاضحة في هذه المديريات والمراكز التابعة لها، حيث تستعمل مع الموقوفين جميع أنواع التعذيب الجسدي والنفسي وباستعمال شتى الأساليب المخالفة لأبسط القواعد المتبعة ومنها التعذيب الجسدي والضرب المبرح واستعمال الفلقة والكهرباء وربط الموقوف بالمعصمين من الوراء وتعليقهم وإرغامهم على الإعتراف، وإتباع الأساليب البالية والقديمة في التحقيق، وعدم اللجوء إلى تطبيق المبادىء العلمية في التحقيق واعتماد قواعد التحقيق الجنائي وقواعد أصول التحقيق وتنظيم محاضر الكشف على محلات الحادث، كشف الدلالة والطب العدلي وعلم الاجرام الاجتماعي وغيرها. إن ذلك يرجع إلى عدة أسباب:

١ ـ إن أكثرية الكوادر التحقيقية في المديريات المذكورة هم نفس الكوادر السابقة في النظام أو تم تعيين مدراء ومدراء أقسام ليس لهم خبرة في التحقيق الجنائي وليسوا من ذوي الاختصاص.

٢ ـ عدم توفر الأجهزة الفنية ومستلزمات التحقيق في المديريات المذكورة لتساعد المحققين في كشف الجناة وجمع الأدلة.

٣ ـ عدم ممارسة التحقيق تحت إشراف القضاء المباشر.

٤ ـ عدم وجود قانون يحدد المديات الأصولية للتحقيق وإلزام المحققين بإتباع الأساليب العلمية في التحقيق ومعاقبة القائم بالتعذيب، وفي حالة ممارسته ضد المتهم.

لكل هذه الأسباب رغيرها من الأسباب قد أصبح التعذيب والممارسات غير الانسانية من الأمور المتبعة واليومية في المديريات المذكورة، وإنني أقول بصراحة أن عدم وضع حد لهذه الممارسات والانتهاكات المخالفة لحقوق الانسان والحط من كرامته سوف تضع حكومة كردستان في موقف صعب جداً أمام المجتمع الدولي ومنظمات حقوق الانسان. وإن عشرات المنظمات الانسانية بما فيها (أمنستي أنترناشيونال ومدبكو وميدل أيست ووچ والمنظمات العربية) إضافة إلى منظمتنا تراقب هذه الممارسات عن كثب يومياً. وفي حالة الاستمرار سوف تعلن عنها بتقارير شهرية أو سنوية، وهذا الموقف سوف يؤثر بلاشك على مصداقية الحكومة الاقليمية وعلى عطف العالم تجاه قضية شعبنا المصيرية وتلحق ضرراً جسيماً بحقوقنا والتجربة الديمقراطية. ،وللمنظمة قوائم وتحقيقات في تلك الانتهاكات. كما أن الحالة العامة في المواقف غير سليمة ولاتنطبق فيها أدنى النماذج للقواعد العامة لمعاملة الموقوفين ،والمحكومين، حيث أن المنظمة قد وضعت دراسة حول حالة الموقف ورفع تقرير مفصل من قبل لجنة المحققين وطلبت من الجهات المسؤولة تخصيص مبلغ (٣٠٠٠٠) دينار لإكمال شبكة الماء التي تغذي الموقف بالماء، ولازالت الأوضاع الصحية والغذائية والسكنية رديئة جداً وتحتاج إلى حل سريع وجذري، وخاصة أنه لايستوعب عدد الموقوفين الذي بلغ أكثر من خمسمائة موقوف ومحكوم لحد اليوم. كما وردت إلى منظمتنا معلومات بأن لبعض الأحزاب السياسية سجوناً ومعتقلات تضم عدداً من الموقوفين والمحجوزين، إن المنظمة قد رفعت مذكرة إلى مجلس الوزراء بهذا الخصوص وطالبت بإلغاء جميع السجون وإطلاق سراح الموقوفين فيها.

أما بخصوص حرية التعبير والرأي والنشر والصحافة الحرة، فإن منظمتنا متفائلة بهذا الجو الديمقراطي الحر والذي فيه تنشر كافة الآراء والمواقف للأحزاب والمنظمات والأشخاص، والنهج الممارس حالياً هو منهج ديمقراطي ويحترم التجربة والديمقراطية وحقوق الانسان، إلا أن الملاحظ أن أكثرية الجرائد والصحف الكردستانية هي من ضمن الصحافة الحزبية، ونظراً للتكاليف الباهظة فلايوجد اندفاع في سبيل اصدار جرائد أو منابر حرة، تقترح منظمتنا على الأحزاب و الحكومة بتخصيص صفحة من كل جريدة بإسم (الرأي الحر/ المنبر الحر/ أو الضمير الحر ... إلخ) لإفساح المجال أمام الأقلام الحرة لابداء آرائها والتعبير عنها.

انتهاكات النظام العراقي في كردستان: إن جرائم وانتهاكات النظام العراقي لاتعد ولاتحصى وبالامكان التركيز على الانتهاكات التي قام بها النظام بعد الانسحاب من كردستان في ١٧ ـ ٨١ تموز ١٩٩١ أثر الانتفاضة الثانية التي فجرها أبناء كردستان ضد بقايا القوات العسكرية وأجهزة الأمن التابعة للنظام. فبعد الانسحاب، فرض الحصار الجائر على كردستان، وقطع الامدادات الغذائية والوقود عن أبنائها، وبهذا الاجراء فقد فقد النظام السيطرة الفعلية على أجزاء واسعة من كردستان مما حال دون ارتكاب جرائم وانتهاكات مباشرة. إلا أن النظام قد وضع خطة إرهابية واسعة ضد أبناء كردستان بهدف اشاعة الخوف والرعب بين المدنيين في كردستان والاخلال بالأمن والنظام

فيها، وعرقلة مسيرة التجربة الديمقراطية في كردستان إضافة إلى إيجاد شرخ بين المواطنين الكردستانيين وحكومة كردستان وإضعاف ثقتهم بها تمهيداً للقضاء على هذه التجربة الحية والعظيمة وتتكون هذه الخطوة حسب المعلومات المتوفرة لدى منظمتنا ممايلي:

١ ـ إيفاد عملاء ومأجورين من قبل الأجهزة الحكومية الممثلة بالأمن والاستخبارات إلى كردستان وتكليفهم بالقيام بالاغتيالات الشخصية، وهي موجهة بالذات ضد كوادر الأحزاب الكردستانية وقادة البيشمركة لقاء مكافأة وصلت إلى مبلغ (٥٠) ألف دينار.

٢ ـ إرسال سيارات مفخخة وتفجيرها في المدن ،والقصبات الكردية وفي المناطق الآهلة بالسكان المدنيين والمناطق المزدحمة في تلك المدن.

٣ ـ استهداف مقرات الأمم المتحدة والشرطة الدولية ومنتسبيها، وقد قررت الحكومة العراقية منح مكافأة نقدية لمن يقتل أحد منتسبي الأمم المتحدة وصلت إلى مبلغ (١٠٠) ألف دينار.

٤ ـ زرع المناطق المدنية والحكومية بما فيها المدارس ورياض الأطفال بالقنابل الموقوتة.

إن منظمتنا قد دأبت على تنظيم اضبارة وملف لهذه الحوادث، وضعت جميع الحالات محل الدراسة والمناقشة وفق التعاريف الواردة في لوائح حقوق الانسان باسم «الارهاب المدني» في كردستان. وقد بلغ عدد الانفجارات التي قان بها النظام العراقي أكثر من (١٠٠) حادث بين انفجار فعلي ومبطل. وآخرها حادث انفجار السيارات التركية الخاصة بنقل مواد الاغاثة إلى كردستان، وقد حققت منظمتنا في الحادث المذكور وتوصلت إلى أن مديرية الأمن العامة والاستخبارات العسكرية الصدامية تشرف اشرافاً مباشراً على هذه العمليات الارهابية، وأصدرت بياناً في ١٩٩٢/١٢/٣ بالتحقيق المذكور نشر في الصحافة المحلية، كما قدمت مذكرة رسمية إلى الأمين العام للأمم المتحدة وأعضاء مجلس الأمن بخصوص الموضوع. وبلغ عدد الضحايا من الجرحى والقتلى نتيجة تلك العمليات الارهابية أكثر من (١٥٠) ضحية كلهم من المدنيين ومن النساء والأطفال والشيوخ.

كما أن النظام العراقي قد أصدر قرار ٢٤١ بالعفو السياسي عن المواطنين الأكراد في ١٩٩١/٧/١٤، وأن مضمون القرار يسري على جميع الموقوفين والمحجوزين والمحكومين السياسيين إلا أن لدى المنظمة قوائم بأسماء المواطنين الأكراد الذين لازالوا قيد السجون والتوقيف وبلغ عدد الحالات المستثناة من القرار أكثر من (٧٠٠) حالة. كما أن المنظمة توصلت إلى معلومات بأن النظام العراقي قد وضع خطة باختطاف عدد من المعارضين العراقيين المشاركين في مؤتمر المعارضة العراقية الموحد وقد أفشلت شرطة (الاتاسايش) عدة محاولات من هذا القبيل. وأن النظام العراقي لازال مستمراً في إنتهاكاته الفاضحة، وأنه يستغل كل الفرص للنيل من التجربة الديمقراطية في كردستان والقضاء عليها خلافاً لجميع الأعراف ولوائح حقوق الانسان.

موقف حقوق الانسان في كردستان الشمالية:

أصدرت الحكومة التركية قانوناً باسم (قانون مكافحة الارهاب) وقد أطلق سراح مايقارب (٢٩٠٠٠) سجين ومن بينهم عشرات بل مئات من سجناء الرأي الذين ظلوا مسجونين منذ أوائل الثمانينات. ومع ذلك احتجز عشرات من المواطنين الأكراد بسبب آرائهم ومعتقداتهم السياسية بعد صدور القانون المذكور، وأصدرت محاكم أمن الدولة أحكاماً بالسجن على مئات من السجناء السياسيين وذلك بعد إجراءات قانونية لم تف بالمعايير الدولية، ولم تكن تلك المحاكمات عادلة ولم يضمن حق الدفاع لهم بشكل سليم، واستمرت الحكومة التركية وسلطاتها التحقيقية في ممارسة التعذيب والمعاملة السيئة بالنسبة للمعتقلين السياسيين والجنائيين (أي العاديين) على حد سواء مما أفضى إلى موت بعضهم، كما توجد حالات إعدام خارج القضاء وحالات اختفاء، وكما أن الأحكام العرفية والطوارىء لازالت سارية في كردستان تركيا وأن عمليات القمع مستمرة في الريف الكردستاني، مثل حالات الاعتقال فقد ألقي القبض على المغنية الكردية (يليز أيبك) في ٨ آب من هذه السنة لأنها هتفت بشعار باللغة الكردية وكما تعرض المواطن الكردي (أدوغان كيزيلكا) إلى التعذيب إضافة إلى عشرات الحالات، كما توفي (١٤) مواطناً كردياً في السجن بسبب التعذيب وكان من ضمنهم الطالب الكردي التونياس وراعي الغنم الكردي (عثمان أيكتسي)، كما أن السلطات التركية قد قتلت المثقفين الكرد بعد اختطافهم ورمي جثثهم في الطرق العامة ومنهم الكاتب الكردي المعروف (فدايت أيدن) عضو رابطة حقوق الانسان في تركيا والمحامي والكاتب المعروف (موسى عنتر)، وقد طلبت المنظمات الانسانية من الأمم المتحدة بوضع حكومة تركيا تحت نظر الأمم المتحدة بسبب انتهاكاتها لحقوق الانسان، وبالذات ضد المواطنين الأكراد في كردستان الشمالية.

كما أن منظمتنا قد حققت في القصف التركي للقرى في كردستان العراق في السابع من شهر آب من عام/ ١٩٩١ و ١٩٩٢/٣/١ بواسطة الطائرات الحربية مما ثبت بأن الطائرات التركية قد قصفت القرى الكردية التابعة لناحية (سيده كان) قصفاً عشوائياً وهي قرى (كوه رتى، سيبداره، كوره شه، زياره ت، دايلا) في سهل (هه رتي) وقرية (كه زه ك). وأدى القصف إلى إستشهاد (٨) مدنيين وجرح (٦١) مواطناً كردياً آخر إضافة إلى هدم الدور والأضرار الجسيمة بالحيوانات العائدة للمواطنين وأن المنظمة قد جمعت المستندات القانونية بملف خاص وتنوي المطالبة من الحكومة التركية بالتعويض المادي والمعنوي لأسر وعوائل الضحايا.

كما أن منظمتنا مستمرة في رصد وتثبيت الانتهاكات في كردستان ايران وسوف تصدر في نهاية الشهر القادم تقريراً سنوياً مفصلاً عن جميع حالات الانتهكات والخروقات التي ترتكب في كردستان، ولازال محققو المنظمة مستمرين في جمع المعلومات وتثبيتها.

الاقتصاد السياسي للتضخم في العراق*
١٩٨٨ - ١٩٩٢

د. عبد المنعم السيد علي
د. هيل الجنابي

مقدمة

يعاني العراق حالياً في أواسط عام ١٩٩٢ وابتداء من عام ١٩٨٨ ـ من تضخم خطير لم يسبق أن مر بمثله في تاريخه الحديث. ويهدف البحث إلى بيان طبيعة هذا التضخم ومداه وأسبابه ومايمكن عمله لكبح جماحه والحد منه. وربما حتى إيقافه ـ وهو أمر قد يكون بعيد المنال حالياً ـ ولذلك فإن المعالجات ستكون آنية في مداها، وسياسية واقتصادية في طبيعتها، نظراً للطبيعة السياسية والاقتصادية للتضخم السائد في العراق في الوقت الحاضر.

وقد حاولنا بيان طبيعة هذا التضخم ومداه من خلال الأرقام القياسية لأسعار المستهلك. ثم حاولنا قياس حجم الفجوة التضخمية من خلال معايير معينة اجتهدنا في أن تعكس قدر المستطاع حجم تلك الفجوة بأقصى مايمكن من الدقة العلمية دون إصدار أية أحكام قيمية بمدى صحتها أو صحة النتائج التي توصلنا إليها. وهو مبدأ إلتزمناه في ثنايا البحث، وذلك ضمن اجتهاداتنا كاقتصاديين وليس كباحثين اجتماعيين. ولذلك فإننا لم نبحث آثار التضخم التي أصبحت معروفة لدى القاصي والداني. ولن نختلف في حالة التضخم السائد إلا من حيث مداها وعمقها وسعة انتشارها وحجم ونوع الفئات التي ستتعرض لها. وقد حاولنا استقراء الماضي من خلال قراءة

تاريخية لما تعرضت له بعض البلدان الأوربية من تضخم مفرط في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية حيث يتبين لنا مدى التشابه الكبير بين أحداث الماضي هناك ومجريات الحاضر هنا - في العراق - مع الاختلاف في الدرجة وليس في النوع. وحاولنا أن نسهم نظرياً في تحليل واقع التضخم في العراق تحليلاً اقتصادياً معززاً بالنظرية الاقتصادية مما نعتقد أننا قد قدمنا فيه مساهمة متواضعة من خلال اجتهاداتنا العلمية والشخصية.

وسيجري البحث في جزءين: يتم في أولهما بيان طبيعة وأنواع التضخم كمدخل لدراسة التضخم المفرط وخصائصه وتاريخه. ثم انتقلنا في جزء ثان من البحث إلى دراسة التضخم في العراق خلال الفترة ١٩٨٨ - ١٩٩٢ بالشكل الذي أشرنا إليه أعلاه، مع إجراء تحليل اقتصادي له. وختمنا البحث بكلمة موجزة عن المعالجات المطلوبة على المدى القصير. مؤكدين على الطبيعة السياسية للأزمة الحالية. مما يقتضي بالدرجة الأولى حلاً سياسياً يأخذ بتلابيب الأزمة فيكبح جماحها وينهي آثارها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المدمرة.

أولاً: معنى وطبيعة وأنواع التضخم

ربما كان التضخم أقدم مشكلة اقتصادية تم تشخيصها. ومع ذلك ليس هناك اتفاق عام حول أسبابها ووسائل علاجها. وأفضل تعريف للتضخم هو أنه عملية ارتفاع مستمر في المستوى العام للأسعار على مدى فترة زمنية طويلة. ويمكن التعبير عن المعنى نفسه بالقول إن التضخم عملية انخفاض مستمر في القيمة الحقيقية للنقود مما يعني أن للنقود علاقة به لأنها مركزية في عمل الاقتصاديات الحديثة. وبهذا المعنى الضيق يرى النقديون أن التضخم هو ظاهرة نقدية - دائماً وفي كل مكان. وقد يكون الارتفاع في الأسعار معتدلاً وتدريجياً. وهو مايدعى بـ (التضخم الزاحف) الذي يتصف بارتفاع بطيء في الأسعار لايتعدى في أقصاه أصابع اليد (أي يقل عن ١٠٪ سنوياً) وذلك حتى خلال فترات يكون فيها النمو في الطلب الكلي معتدلاً. وتبقى الأسعار في مثل هذا التضخم ثابتة نسبياً، ولايحاول الأفراد أثناء التخلص من نقودهم لأن سعر الفائدة ليس منخفضاً بما فيه الكفاية لكي يدفعهم إلى ذلك. (أي أن سعر الفائدة الحقيقي الذي يساوي الفرق بين سر الفائدة الاسمي ومعل التضخم السائد يبقى موجباً). كما أن التوقعات تكون ثابتة نسبياً. في حين تبقى الانحرافات وعدم الكفاية الاقتصاديتان معتدلتين عموماً. وقد ساد مثل هذا التضخم في الولايات المتحدة وألمانيا في الستينات والسبعينات(١) وفي العراق في الخمسينات والستينات.

كما قد يكون التضخم مكبوتاً Repressed Inflation حين تمنع الأسعار من الارتفاع رغم الحجم الكبير من الطلب الكلي. وذلك من خلال وضع ضوابط وفرض عمليات تقنين وتسعير إجباري تحد كلها من الانفاق الكلي وتحول دون ارتفاع الأسعار. ولكن ذلك لن يحول دون قيام الجمهور بتراكم موجودات نقدية ومالية كبيرة يستطيع تحويلها عند الطلب إلى قوة شرائية فعالة في وقت لاحق. وبالتالي فإنها تمثل مصدراً مهماً لتضخم كامن قد يجري تنشيطه أو تفعيله عندما

تحين الفرصة لذلك.

ثم هناك التضخم الجامح Galloping Inflation الذي يحدث عندما تبدأ الأسعار بالارتفاع بمعدلات ذات رقمين أو ثلاثة من فئة الـ ٢٠٪ والـ ١٠٠٪ والـ ٢٠٠٪ سنوياً. وقد حدث ويحدث مثل هذا النوع من التضخم في العديد من دول أمريكا اللاتينية كالأرجنتين والبرازيل اللتين تفوق فيهما معدلات التضخم بنسبة الـ ١٠٠٪ سنوياً. ومتى تحكم مثل هذا التضخم في اقتصاد ما فستنشأ عن ذلك تشوهات اقتصادية خطيرة. ويجري تقييس معظم العقود عموماً برقم قياسي للأسعار أو بعملات أجنبية. ولأن النقود تفقد قيمتها الحقيقية بسرعة كبيرة، فإن الأفراد سيتحاشون الاحتفاظ بأرصدة نقدية إلا ضمن الحد الأدنى اللازم لتدوير معاملاتهم اليومية. كما تتلاشى الأسواق المالية. ويجري تخصيص الأموال تقنيناً وليس من خلال أسعار الفائدة. ويقوم الأفراد باختزان السلع ويشترون العقارات ولايقرضون شيئاً من أموالهم بأسعار فائدة حقيقية سالبة(٢) - حيث تفوق معدلات التضخم بأسعار الفائدة السائدة. - كما حدث في العراق منذ النصف الثاني من عقد الثمانينات وفي تركيا في عقد الثمانينات.

وهناك التضخم المفرط Hyperin flation الذي ترتفع فيه الأسعار بمعدلات عالية جداً وتزداد فيه الأسعار بمعدلات علية جداً وتزداد فيه سرعة تداول النقود وتتوقف فيه النقود، أو تكاد، عن العمل كمستودع للقيمة أو كأداة للادخار. فإذا استمر ذلك فإنه قد يؤدي إلى إنهيار النظام النقدي ومعه الوحدة النقدية كوسيلة تقويم - وربما حتى كوسيلة مبادلة ودفع - كما حدث في ألمانيا والنمسا وروسيا وبولندة في العشرينات. بعد الحرب العالمية الأولى، وفي هنغاريا واليونان في الأربعينات في نهاية الحرب العالمية الثانية. وهي حالات اقترنت بالحرب والأزمات الاقتصادية والسياسية وعدم الاستقرار الاجتماعي.

التضخم المفرط

سنكرس دراستنا لحالة التضخم السائدة في العراق حالياً. وهي حالة تضخم مفرط لاريب فيه. فما هي طبيعة هذا الوباء الخطير؟

عرف Cagan الاقتصادي الأمريكي المعروف في بحثه الشهير عن الموضوع(٣) «التضخم المفرط» بأنه الحالة التي ترتفع فيها الأسعار بمعدل يتعدى الـ ٥٠٪ شهرياً والـ ١٠٠٠٪ سنوياً. فقد ارتفع مستوى الأسعار في ألمانيا عام ١٩٢٣ حوالي ١.٣ تريليون مرة (أي ١.٣ ×١٠ (١٢)) مما يعني أن الأسعار كانت ترتفع بمعدل يصل حوالي ٨٪ يومياً أو ١٠٠٠٪ شهرياً. وقد كان يتم دفع الأجور مرة واحدة على الأقل يومياً لكي يستطيع العمال التسوق قبل أن ترتفع الأسعار مرة أخرى، وكانت الأسعار تتغير أحياناً خلال فترة تناول وجبات الطعام(٤).

ولعل الملمح الرئيس للتضخم المفرط هو حالة التوقعات حول الأسعار المستقبلية. التي تدفع الأفراد نحو شراء السلع بهدف التخزين والاستعمال مستقبلاً. كما تدفع المنتجين إلى حجب السلع

عن السوق وإنتاجها لأغراض التخزين وليس لغرض البيت العاجل. وهكذا كلما كانت الزيادات المتوقعة في الأسعار أكبر، اتسعت الفجوة بين حجم السلع المطلوبة وحجم المعروض منها. مما ينتج عنه طلب فائض يزيد بدوره من أرباح البائعين وبالتالي من الأسعار والأجور. ولكي يمكن لمعدل الارتفاع في الأسعار أن يولد تضخماً مفرطاً، يجب أن يتوفر شرطان(٥).

الأول: أن يستمر مستوى الأسعار المتوقع في تجاوز المستوى الفعلي للأسعار لفترة طويلة ـ لأنه متى توقع البعض أن تبقى الأسعار ثابتة ـ فإن الضغط على الأسعار سيتناقص. فإذا ألحقت الأسعار الفعلية بالتوقعات، فإن العملية ستميل في النهاية نحو الاستقرار. وإذا لم تنته العملية إلى الاستقرار فإن من المحتمل أن ينتهي الأمر إلى إنهيار تام في العملة.

الثاني: أنه لايمكن استمرار التضخم المفرط دون زيادات كبيرة جداً في كمية النقود. وقد يتأصل التضخم المفرط في توسيع غير طبيعي في كمية النقود. أو في تحول تلقائي في التوقعات وزيادة تالية في عرض النقد. والحالة الأولى هي حالة نموذجية تحدث في حالات الحروب والاضطرابات السياسية. تنبع فيها الزيادة في كمية النقود من حاجة الحكومة إلى الحصول على موارد حقيقية.

في هذه الحالة تكون العلاقة بين التوسع في عرض النقد والطلب على السلع بسيطة ومباشرة. وتتم الزيادة في عرض النقد في التحليل التقليدي من خلال بيع السندات في السوق المفتوحة. ولكن في الحالة موضوع البحث، ليس هناك مثل هذه الخطوة الوسيطة، بل تلجأ الحكومات مباشرة إلى طبع النقود وإصدارها. وبالتالي زيادة عرض النقد. فتكون النتيجة أن هذه الزيادة تمارس ضغطاً مباشراً وآنياً على الطلب على الموارد فتؤدي بالتالي إلى إرتفاع في أسعارها.

أما في الحالة الثانية: حالة التوقعات، فسينتج عن التغيير في توقعات الأسعار على المدى القصير طلب فائض. ومن خلال توقعات الأرباح المتزايدة تتزايد الأسعار والدخول. وباستمرار هذه العملية، تصبح الحكومة غير قادرة على مواجهة متطلباتها المالية من خلال الاقتراض، لأن الارتفاع المتوقع في الأسعار يقلل من رغبة الجمهور بالاحتفاظ بالتزامات ذات فوائد حقيقية ثابتة كالمستندات التي تصدرها الحكومة وتبيعها إلى الجمهور. ولذا لكي يمكن تمويل هذه المتطلبات يجري التوسع في عرض النقد مما يؤكد مصداقية توقعات الأسعار لدى الجمهور(٦).

هذا ومن السهولة تبرير تزامن الحروب والاضطرابات السياسية مع التضخم المفرط فمتطلبات الحرب تستوجب نسبة كبيرة من موارد القطر الاقتصادية وتكريسها لانتاج لايشبع الاستهلاك ولايضيف إلى وسائل إنتاج سلع الاستهلاك. مما ينتج عنه شح سلعي، مقارنة بمستوى المعيشة السائد. مما يمارس بالتالي تأثيراً رئيسياً على توقعات الأسعار. وهكذا يشح بشكل غير اعتيادي، عرض المتطلبات الأساسية للمعيشة، مثل المواد الغذائية التي تكون أسعارها عادة مرنة نسبياً مما يضاعف من قيمتها سريعاً. وفي النهاية، قد تصاحب البطالة مستوى أسعار متزايد بسرعة لأن أعقاب الحروب تشهد غالباً تحولات في الانتاج واضطراباً تنظيمياً في التجارة مع تحول الطلب على

الموارد لمواجهة الجهود الحربية.

وهكذا يرتبط التضخم المفرط بزيادات غير طبيعية في عرض النقد، وانخفاضات غير اعتيادية في عرض السلع، مما يؤثر على حالة التوقعات حول الأسعار، فيضع بذلك أساساً لتضخم لولبي مفرط. هنا لايستمر عرض النقد في لعب دور المساعد الذي يعزى إليه في النموذج الأساسي للتضخم. ذلك لأن علاقته بالطلب علي الموارد، من خلال الانفاق الحكومي، تصبح مباشرة وآنية، فالارتفاع الحاد في الأسعار، الذي يؤدي إليه ذلك في المدى القصير، يؤثر في رغبة الجمهور بالاحتفاظ بالنقد ويزيد من طلبهم على الموجودات الحقيقية لتخدم كخزين قيمة بدلاً عن النقود. ذلك أن الزيادات المتوقعة في الأسعار تصبح من العظم بحيث تنهي دور النقود كمستودع للقيم. وفي بعض الحالات المتطرفة قد تتوقف النقود حتى عن العمل كوسيلة تداول. كما حدث فعلاً في ألمانيا الغربية بعد عام ١٩٤٥ عندما استعملت السجائر كنقود(٧).

ومن خصائص التضخم المفرط أن سرعة التداول النقدية في الواقع خلال المراحل الأولى من التضخم الذي حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى في عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٣ اعتقاداً من الجمهور بالعودة سريعاً إلى الأسعار السابقة. لذلك تمسكوا بالعملة توقعاً لانخفاض الأسعار.

وقد ساعد انخفاض سرعة التداول وتدهور القيمة الشرائية للعملة. إلى تصاعد طبع العملة من قبل الحكومة. فتزايد عرض النقد وتصاعد الارتفاع في الأسعار. فأدى ذلك إلى فقدان النقود لقيمتها كوسيلة تبادل وكمقياس للقيمة. وهكذا قاد ذلك إلى إجراء التقويم بعملات أجنبية(٨).

ومن الخصائص الأخرى لفترات التضخم المفرط أن النسبة بين الرقم القياسي للأسعار (س) والرقم القياسي لكمية النقود (ن). أي س/ن تميل إلى الارتفاع - أي عكس ذلك - إلى إنخفاض معكوس هذه النسبة (ن/س) التي تمثل القيمة الحقيقية للنقود أي الأرصدة النقدية الحقيقية - فقد وصلت النسبة (س/ن) في ألمانيا خلال عام ١٩٢٢ إلى ٤.١. وفي اليونان خلال عام ١٩٤٢ إلى ١٣٠ فانخفضت بالتالي القيمة الحقيقية للنقود (ن/س) إلى ٠.٠٣ في الأولى وإلى ٠.٠٠٠٦٩ في الثانية(٩) وقد حدث الشيء نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب الأهلية في ستينات القرن الماضي. إذ زادت الأسعار بسرعة أكبر بكثير من السرعة التي زاد بها عرض النقد. ففي الفترة مابين الفصل الأول من عام ١٨٦١ وأوائل عام ١٩٦٤ زاد عرض النقد "١١" ضعفاً بينما ازدادت الأسعار بمقدار "٢٨" مرة وانخفضت القيمة الحقيقية للأرصدة النقدية بنسبة ٤٦٪(١٠).

ويرى Cagan أن الكلفة الوحيدة للاحتفاظ بالأرصدة النقدية - والتي يبدو أنها تتغلب على مدى واسع يكفي لأن يكون سبباً للتغيرات القاصمة في الأرصدة النقدية الحقيقية خلال التضخم المفرط - هي معدل الاندثار في قيمة النقود. أو مايوازي ذلك، معدل التغير في الأسعار، وتتضمن هذه المشاهدة الفرضية القائلة بأن التغير في الأرصدة النقدية الحقيقية أثناء التضخم المفرط ينتج عن التغيرات في المعدل المتوقع للتغير في الأسعار(١١).

ومن المعلوم أن Cagan صاحب أهم وأول دراسة منتظمة لعلمنا حول التضخم المفرط هو اقتصادي ينتمي إلى مجموعة (المدرسة النقودية) TheMonetarist School التي تعزو النقود الأهمية الأولى والأكبر في التأثير على المستوى العام للأسعار. ولذا فإنه ينتقد النظريات الأخرى التي تحاول تفسير التضخم المفرط بعوامل نقدية أخرى من غير عرض النقد. من مثل سعر الصرف الأجنبي والعوامل الحقيقية كالاستخدام والانتاج والدخل الحقيقي وهيكل نقابات العمال ومعدل ،مدى تكوين رأس المال.. وغيرها أيضاً من مثل نظرية (لولب الكلفة ـ السعر - Price Spiral The Cost التي تستمد مفاهيمها وإطارها العام من نظرية الدخل والاستخدام. هذه النظريات تفترض أن الارتفاع في الأسعار ينتج عن الارتفاعات في الأجور وفي أسعار السلع المستوردة. ويسبق الزيادات في كمية النقود. هذا في حين تشير دراسته إلى تتال معاكس Opposite Se-quence وإلى أن الارتفاعات المتطرفة في الأسعار تعتمد كلياً تقريباً على التغيرات في كمية النقود. ومن مضامين ذلك أن الارتفاع في الأجور والانخفاض في سعر الصرف الأجنبي أثناء التضخم المفرط هي نتائج للارتفاع في الأسعار. وأن التغيرات المتطرفة في فترة زمنية قصية في أسعار الصرف تعكس بشكل رئيس تضع توكيداً على العوامل الخطأ. فالتضخم المفرط على الأقل ـ أي من بين الأنواع الأخرى من التضخم ـ يمكن تفسيره كلياً تقريباً في إطار الطلب على النقود. ففي حين يمكن للسلطات النقدية أن تستسلم للضغوط لتعضيد زيادات الأجور. كما تفترض النظرية اللولبية. فإن هذه السلطات تأخذ في إعتبارها عوامل أخرى من أهمها الإيراد الذي يخلقه الإصدار النقدي. فالتحليل الأدق حول محددات عرض النقد يذهب إلى مدى أبعد من مجرد المحاسبة الميكانيكية للعملية التضخمية دوافع الحكومات التي تضم في النهاية سلطة الإصدار النقدي(١٢).

ثانياً: طبيعة وقياس وحجم التضخم في العراق (١٩٨٨ - ١٩٩٢).

شهد العراق في عقد الستينات تضخماً معتدلاً بحدود ٥٪ سنوياً. بدأ يتصاعد تدريجياً باتجاه نهاية العقد ويدأ عقد السبعينات حتى وصل إلى أكثر من ٦٪ عام ١٩٧٢. مما يمكن معه القول أن تلك الفترة تميزت باستقرار نسبي في الأسعار(١٣) وذلك حتى عام ١٩٧٤ ومنذ عام ١٩٧٥ فما بعدها بدأت الأسعار بالارتفاع بوتائر أعلى بكثير وبمعدلات تزيد على أصابع اليد تراوحت بين ١٨٪ في ذلك العام و٦٨.١٪ عام ١٩٧٩ وذلك بأسعار عام ١٩٧٣ بالنسبة للرقم القياسي لأسعار المستهلك في العراق. هذا رغم التدخل الحكومي الواسع في الاقتصاد من خلال التسعير الاجباري والدعم الواسع للأسعار(١٤). واستمر معدل التضخم في الارتفاع حتى وصل عام ١٩٨٠ إلى ٩٥.٣٪ ثم قفز عام ١٩٨١ إلى ١٣٩٪ وابتداءمن عام ١٩٨٠ دخل العراق فترة حرب الثماني سنوات مع ايران. ،وهي فترة تصاعدت فيها معدلات التضخم بدرجة أكبر حتى وصلت في نهاية الفترة (عام ١٩٨٨) إلى ٣٦٨.٨٪(١٥). وقد لعبت الحرب المذكورة دوراً رئيسياً في ذلك إذ إن جزءاً كبيراً من الانتاج القومي ومن الاستيرادات قد تم تكريسه لأغراض الحرب فكان طبيعياً

أن ينعكس ذلك في ارتفاعات متوالية في الأسعار. وهكذا يمكن القول أن العراق قد دخل فترة التضخم الجامع الذي تعدت معدلاته الـ ٢٠٪ منذ عام ١٩٧٦. وتفاقمت معدلاته خلال الحروب المذكورة حتى بدأ يزيد عن ١٠٠٪ عام ١٩٨١ ومن ثم وصل في نهاية عقد الثمانينات (١٩٨٩) إلى مايزيد عن ٣٩٨.٢٪(١٦).

إلا أن الفترة التي تلت أحداث عامي ١٩٩٠ - ١٩٩١ قد شهدت فرض حصار اقتصادي محكم عليه وممارسة مقاطعة تجارية شاملة ضده. إضافة إلى أعباء الحرب والتدمير والتخريب اللذين أصابا منشآته الاقتصادية والانتاجية والعلمية. أعباء جديدة تمثلت بانقطاع تصدير النفط وتوقف الاستيرادات عملياً. وايقاف كل أنواع التعامل معه ومنع الدواء والغذاء عن شعبه وتدمير مخزونه السلعي. مما خلق شحاً سلعياً واسعاً بقي العراق يعاني منه منذ اب ١٩٩٠ إلى حين كتابة هذه السطور أواسط عام ١٩٩٢. وقد كان طبيعياً أن ينتج عن ذلك ارتفاعات حادة في الأسعار انعكست في تضخم مفرط وشديد لم يسبق للعراق أن مر بمثله في تاريخه الحديث. وهو شبيه بما حصل في ألمانيا عام ١٩٢٣ ولكنه أقل نسبياً. إذ، وكما سبقت الاشارة إليه، وصل معدل التضخم هناك في الفترة ١٩٢٢ - ١٩٣٢ إلى ٣٢٢٪ شهرياً. ووصل في تشرين الأول ١٩٢٣ إلى أكثر من ٢٩٠٠٠٪ أي أن ماكانت كلفته ديناراً في أول الشهر، وصلت كلفته في نهاية الشهر إلى ٢٩٠ ديناراً. وقد كان السبب الأساسي في ذلك هو التمويل المصرفي للانفاق الحكومي - خاصة الاقتراض من البنك المركزي. وهو مايحدث في العراق كذلك حالياً من حيث تمويل العجز في الميزانية العامة للحكومة. إذ أنه يتم في معظمه إن لم يكن في كله، خاصة بعد توقف تصدير النفط وتدهور الايرادات السيادية للحكومة، منذ بدء أزمة الخليج حتى الآن.

والتساؤلات الأساسية التي يثيرها هذا البحث والتي سنحاول الاجابة عنها تتلخص فيما يلي:

(١) كم هي معدلات التضخم المتحققة في العراق بين عامي ١٩٨٨ - ١٩٩٢؟

(٢) ماهي مؤشرات هذا التضخم؟

(٣) كم هو حجم الفجوة التضخمية في العراق خلال تلك الفترة؟

(٤) ماهي بالتالي طبيعة هذا التضخم، هل هو تضخم جامح أو تضخم مفرط؟

(٥) التحليل الاقتصادي للتضخم المذكور؟ ماهي أسبابه؟

(٦) وأخيراً هل لهذا التضخم من علاج يمكن أن يوقفه أو يخفف منه أو يعكسه؟

قياس معدلات التضخم في العراق ١٩٨٨ - ١٩٩٢

تعكس الأرقام القياسية لأسعار المستهلك التطورات التي تطرأ على القوة الشرائية لحائزي النقود. وتضم مجموعة واسعة من بنود الانفاق على السلع والخدمات الضرورية. ممثلة بذلك تكاليف المعيشة لأنها تشتمل على مجموعة النفقات المهمة الداخلة في سلة الاستهلاك الضروري لمعيشة

الأفراد. وبذلك يعتبر هذا الرقم مؤشراً مهماً لقياس التضخم لأنه يكشف مدى التدهور في القوة الشرائية للنقود. مع كل التحفظات التي يمكن أن ترد عليه من حيث مدى الدقة في اختيار سنة الأساس والأوزان المعطاة لمكونات الرقم القياسي، وطول الفترة الزمنية بين سنة الأساس والسنة المراد قياس الأسعار فيها.

وعند تحليلنا للأرقام القياسية لأسعار المستهلك سنركز على فترة الثمانينات (بأسعار عام ١٩٧٣) وعلى الفترة الأحدث في نهاية الثمانينات وأوائل التسعينات (١٩٩٠ - ١٩٩٢) بأسعار عام ١٩٨٨. وهي الفترة التي شهدت انفجاراً تضخمياً واسعاً ومستمراً ترك آثاراً ثقيلة على المستهلكين وبشكل خاص منهم ذوي المعاشات والدخول المحدودة.

فقد قفز الرقم القياسي لأسعار المستهلك (بأسعار ١٩٧٣) من ١٩٥٪ عام ١٩٨٠ إلى ٣٣٤.٥٪ عام ١٩٨٥، وواصل ارتفاعه حتى بلغ ٧٥٥.٧٪ عام ١٩٩٠ مقابل ٤٦٨.٨٪ عام ١٩٨٨ وكان الارتفاع الكبير في الأسعار من نصيب السلع الغذائية حيث وصل الرقم القياسي لأسعار هذه السلع إلى ٤٣٣٪ عام ١٩٨٧ وإلى ٩٤٢.٥٪ عام ١٩٩٠وتعكس هذه الأرقام المرتفعة التي شهدتها فترة الثمانينات وضعاً اقتصادياً ساد في تلك الفترة تميز بإنفاق حكومي واسع وإنفاق استهلاكي أسريّ كبير وبتباطؤ في معدلات الانتاج وتوجيه أجزاء مهمة من الموارد الاقتصادية للدولة نحو تمويل النفقات الدفاعية والأمنية أثناء الحرب العراقية ـ الايرانية.

ونظراً لارتفاع الوزن النسبي للمواد الغذائية في بنود الإنفاق الكلي، حيث يصل إلى النصف تقريباً ٤٨٪(١٧). فإن ارتفاع أسعار هذه المواد كان مسؤولاً عن أكثر من ٥٠٪ من حجم التضخم في أسعار الاستهلاك.

فقد وصل الرقم القياسي لأسعار معظم هذه السلع بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٨ إلى أكثر من ١٠٠٠٪ مما يمكن تفسير ظاهرة تفاقم الضغوط التضخمية خلال هذه الفترة على أسس هيكلية حيث تنعكس الزيادات الكبيرة في أسعار السلع الغذائية في ارتفاعات مقابلة في أسعار السلع الأخرى على اختلافها بصورة متتابعة وتراكمية.

ثالثاً: تقدير الفجوة التضخمية في الاقتصاد العراقي

سنستعمل في تقدير هذه الفجوة التضخمية خلال الفترة موضوع البحث معيارين: أولهما نقدي وثانيهما إنفاقي.

١ ـ المعيار النقدي: يربط هذا المعيار بين ثلاثة متغيرات هي:

(أ) معدل التضخم (gp).

(ب) معدل النمو النقدي (gm).

(ج) معدل النمو الاقتصادي (gy).

مع تقدير المرونة الداخلية للطلب على النقود (h) كثابت. ويمكن قياس الفجوة التضخمية بموجب

هذا المعيار واستناداً إلى هذه المتغيرات حسب المعادلة التالية(١٨):

$$gp - gm = hgy$$

حيث يتحدد معدل التضخم بالفرق بين معدل النمو النقدي ومعدل النمو في الناتج القومي الاجمالي في ظل مرونة داخلية معينة للطلب على نقود (h).

لقد نما عرض النقد في العراق خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ بمعدلات متناقصة بدأت تتزايد وبشكل كبير منذ عام ١٩٨٥ حتى وقت كتابة هذه السطور (أواسط عام ١٩٩٢). ففي حين بلغ هذا المعدل ٥٠٪ عام ١٩٨١ فإنه انخفض تدريجياً إلى ٥٪ عام ١٩٨٥. ومن ثم عاد إلى الارتفاع منذ عام ١٩٨٦ وبمعدلات عالية يقدر أنها بلغت، كمعدل عام، وللفترة ١٩٨٦ - ١٩٨٩ - ٢١٪ سنوياً - ولابد أن هذا المعدل قد زاد من جديد وبدرجة عالية منذ عام ١٩٩٠ وحتى الآن بحيث يمكن تقديره بحدود ٢٥٪ - ٣٠٪(١٩).

ويرتبط هذا النمو الواسع في عرض النقد بشكل أساسي بالتوسع الكبير في الائتمان الحكومي المقدم من قبل الجهاز المصرفي - المركزي التجاري وذلك لتمويل العجز المالي الحكومي الواسع والمتواصل منذ أوائل الثمانينات، والذي تزايد بدرجة فائقةفي نهاية الثمانينات وأوائل التسعينات، بشكل حوالات خزينية استوعبتها كل من البنك المركزي والمصارف التجارية فتوسعت بذلك قاعدة النقد الأساس نتيجة الاصدار النقدي المتواصل، خاصة بعد أن توقف تصدير النفط وتضاءلت الاحتياطات الأجنبية، وجمد ماتبقى لدى العراق منها في الخارج وشحت موارد القطر المالية وإيرادات الحكومة الاعتيادية مما اضطرها إلى الاستدانة داخلياً. فكان الجهاز المصرفي أسهل طريق تسلكه وأرخص باب تطرقه. مما أدى إلى تراكم دين داخلي كبير، وإلى خلق سيولة نقدية فائقة وعرض نقدي مفرط في ظل إنفاق حكومي كبير ومتزايد اقتضته الظروف الاستثنائية التي يمر بها العراق زائداً متطلبات الانفاق الاجتماعي.

إن لجوء الدول المختلفة إلى العجز المالي لتمويل نفقاتها المتزايدة غدا بعد الحرب العالمية الثانية أمراً معتاداً، غير أن الآثار الاقتصادية المترتبة على ذلك، والطريقة التي يتم فيها تمويل ذلك العجز، قد تختلف من بلد لآخر، فتمويل العجز قد تترتب عليه زيادة في النشاط الاقتصادي وتوسع في الانتاج والاستخدام، إذا كان الاقتصاد يتمتع بطاقة انتاجية فائضة. غير أن سياسة العجز الممول مصرفياً مركزياً أو تجارياً، من دون وضع حدود لها تترك بالقطع آثاراً سلبية واسعة جداً في بلد، كالعراق، يتعرض لحصار اقتصادي محكم فلاتتوفر فيه بالتالي مستلزمات انتاج كافية تدفع باتجاه نشاط اقتصادي متميز أو معدل نمو اقتصادي إيجابي، لذلك سيكون الأثر الوحيد الذي تتركه مثل هذه السياسة هو ضخ نقدي كبير مع ماينتج عن ذلك من ارتفاعات كبيرة في الأسعار.

القسم الثاني

تشير التجربة الطويلة للتضخم في العالم إلى أن أسباب التضخم تعود أساساً إلى أسباب نقدية. فالمعدلات المرتفعة للتضخم لايمكن أن تتحقق من دون أن ترفقها أو تسبقها زيادة ملموسة في عرض النقد. وتشير تقارير صندوق النقد الدولي(٢٠) إلى أن معدل النمو النقدي السنوي خلال الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٩ كان أكبر في الأقطار التي مرت بمعدلات تضخم مرتفعه منه في البلدان التي تعرضت لمعدلات تضخم منخفضة. وقد وجد أن هناك علاقة قوية وموجبة بين معدل النمو النقدي سنوياً، من جهة، وبين معدل التضخم سنوياً، من الجهة الأخرى، وذلك في الأقطار التي تعاني من ارتفاعات كبيرة في معدلات الأسعار. كما تشير تلك التقارير الى أن الدول التي استخدمت التمويل المصرفي للعجز المالي بسبب ضعف هياكلها الاقتصادية وانخفاض حصيلة الضرائب فيها، وكذلك ضآلة مدخرات القطاع الخاص وتخلف الأسواق النقدية والمالية فيها(٢١). وهكذا نجد علاقة وثيقة وموجبة بين التضخم والعجز المالي. وإذ وجد أن متوسط العجز المالي كنسبة من الناتج المحلي الاجمالي، هو أكبر بكثير في الأقطار التي تعاني من معدلات تضخم مرتفعة منه في الأقطار التي تنخفض فيها معدلات التضخم هذه(٢٢). هذا من حيث النمو النقدي (gm) ومصادره. أما من حيث معدل النمو الاقتصادي (gy) فإنه بدأ بالانخفاض تدريجياً منذ بدأت الحرب مع ايران عام ١٩٨٠، حتى وصل الصفر عملياً بعد عام ١٩٨٥ وذلك عند احتسابه بالأسعار الثابتة. فحتى الزيادة في الصادرات النفطية منذ أواسط الثمانينات استوعب معظمها التدهور في أسعار النفط بعد عام ١٩٨٦. كل ذلك أدى إلى جعل معدلات النمو الاقتصادي سالبة أواخر عقد الثمانينات ولكن هذه المعدلات السالبة أصبحت منذ فرض الحصار الاقتصادي في آب عام ١٩٩٠ ذات حجم فائق. إذ ربما انخفض الانتاج القومي الاجمالي بحدود ٣٠٪ خلال عامي ١٩٩٠ - ١٩٩١ وبحدود ٥٠٪ حتى أواسط عام ١٩٩٢. أما المرونة الداخلية للطلب على النقد (h) فلانتوقع لها أن تكون كبيرة، بل نتوقع ألا تزيد قيمتها على الواحد(٢٣) وذلك للأسباب التالية:

(١) انخفاض مستويات معيشة شريحة مهمة من السكان، خاصة في ظل التضخم المفرط السائد، إن لم يكن كلها لأغراض استهلاكية. أي أن الطالب على النقود هو في معظمه، إن لم يكن في كله، طلباً عليها لأغراض المعاملات(٢٤).

(٢) التضخم المتوقع وتوقع ارتفاع الأسعار بمعدلات أكبر وبصورة متسارعة استناداً للتجارب الماضية للسكان خاصة بعد عام ١٩٩٠، ممايدفع بهؤلاء إلى التخلص من نقودهم التي تتآكل قيمتها الحقيقية باستمرار وبصورة متزايدة، ويجعلهم يفضلون عليها الموجودات الحقيقية التي ترتفع قيمتها النقدية باستمرار.

(٣) تدهور القيمة الحقيقية للأرصدة النقدية الاسمية، وتوقع تزايد هذا التدهور في ظل

الارتفاع المستمر في الأسعار، ممايدفع بالأفراد نحو التخلي عن أرصدتهم النقدية تلك باتجاه موجودات تتزايد قيمتها الحقيقية باستمرار.

(٤) تدهور سعر صرف الدينار في السوق الموازية مما يجعل الأفراد يفضلون العملات الأجنبية والذهب كلياً تقريباً. فلايحتفظون بأرصدة نقدية اسمية (بالدينار) إلا الحد الأدنى اللازم لتمشية معاملاتهم اليومية الضرورية.

(٥) الشح السلعي الواسع، وتقادم السلع المعمرة الموجودة، وشدة الحاجة لقطع الغيار، والاعتماد بشكل كبير على المستلزمات الأولية والسلع المستوردة ذات الكلفة العالية لدى المنشأ الأجنبي أصلاً.

كل ذلك يجعل المرونة الدخلية للطلب على النقد في العراق أحادية في اعتقادنا. وهي على أية حال فرضية تحتاج إلى إثبات إحصائي وكمي لايتيسر لنا حالياً. ولكننا نعتقد أننا قريبون منه إلى حد ما في ظل التبريرات التي سقناها أعلاه.

في ظل هذه المعلومات والافتراضات، كم يجب أن يبلغ معدل التضخم في العراق حالياً؟ وكم بلغ منذ عام ١٩٩٠ مقارنة بعام ١٩٨٨ وهي السنة التي توقفت فيها الحرب مع ايران؟ يبين الجدول التالي معدلات التضخم المحتسبة في ظل الافتراضات التالية:

(١) معدل نمو نقدي سنوي وسط بين ٢٥٪ و٣٠٪ - أي بحدود ٢٢,٥٪ سنوياً.

(٢) معدل نمو نقدي سنوي ٢٥٪.

(٣) معدل نمو نقدي سنوي ٣٠٪.

(٤) معدل انخفاض في الناتج المحلي الاجمالي في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١ بنسبة ٣٠٪.

(٥) معدل انخفاض في الناتج القومي الاجمالي في عام ١٩٩٢ بنسبة ٥٠٪.

(٦) مرونة دخلية للطلب على النقود مساوية لواحد.

معدل النمو النقدي السنوي gm ٪	-	المرونة الداخلية للطلب السنوي على النقود (h)	=	معدل نمو الناتج المحلي الاجمالي (gy) ٪	معدل التضخم (gp) ٪
(١) ٢٥		١		(- ٣٠٪)	٥٥٪
(٢) ٥,٧		٢		(- ٣٠٪)	٥٧,٥٪
(٣) ٣٠		١		(- ٣٠٪)	٦٠٪
(٤) ٢٥		١		(- ٥٠٪)	٧٥٪
(٥) ٢٧,٥		١		(- ٥٠٪)	٧٧,٥٪
(٦) ٣٠		١		(-٥٠٪)	٨٠٪

من الملاحظ أن معدلات التضخم المحتسبة حتى في ظل الافتراضات، التي قد تكون مبالغاً

فيها، هي قل بكثير من معدلات التضخم التي أشرنا إليها سابقاً والتي تجاوزت في بعضها ٥٠٠٪ سنوياً ووصل بالنسبة للسلع الغذائية أكثر من ١٠٠٠٪ سنوياً، خاصة في السنة الأخيرة (١٩٩٢). ولعل الأساس في هذا الاختلاف هو أثر عامل (التضخم المتوقع) خصوصاً والتوقعات عموماً بشأن استمرار الحصار الاقتصادي والشح السلعي، مما يدفع بالأسعار نحو الأعلى ويجعل معدلات التضخم الفعلية أعلى بكثير من معدلاتها المحتسبة. كما أن احصاءات الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي، وكذلك الأرقام الخاصة بعرض النقد ومعدلات النمو فيها قد لاتكون دقيقة في الغالب مما لايسبغ على معدلات التضخم المحتسبة كثيراً من المصداقية - وهو مايصدق على معظم الدول النامية إن لم يكن كلها.

والمهم في الأمر أن النتيجة التي يمكن الوصول إليها من هذه المعلومات، مهما كانت غير دقيقة، هو أنها تشير إلى أن التضخم الذي يجتاح الاقتصاد العراقي حالياً يعود ليس إلى أسباب نقدية صرفة وإنما إلى عوامل حقيقية وأخرى نقدية. فالانخفاض الكبير في الناتج المحلي الاجمالي مع الزيادات الضخمة في عرض النقد، خاصة منه العملة في التداول، هما المسببان الرئيسان لمعدلات التضخم المفرطة واستمرار تناميها منذ عام ١٩٩٠. غير أن أثر (هزة العرض) الناتجة عن الحصار الاقتصادي. وبالتالي التدهور في الناتج المحلي الاجمالي. وكذلك السياسة المالية التوسعية والعجز المالي الكبير والمتواصل، اللذين سادا الاقتصاد العراقي طيلة عقد الثمانينات، ومن ثم تفاقمها منذ عام ١٩٩٠ وحتى الآن، لم يكونا ليسببا التضخم الجاري حالياً لو لم يصاحبهما نمو نقدي واسع جداً، خاصة بشكل اصدار نقدي كبير ومتواصل ناتج مصرفي مركزي وتجاري للعجز المالي المذكور(٢٥) الذي نتج عنه دين حكومي واسع انعكس بصورة مهمة في النقد القاعدة Base Money من خلال ائتمان البنك المركزي إلى الحكومة. وقد صاحب ذلك ميل الدين الحكومي الحقيقي بأن يرتفع مع التضخم مايجعل الأخير حدثاً ذا امكانية كبيرة على الانفجار وذاتي التولد ويزيد التضخم ذاته من اقتراب الحكومة، مما يوسع النقد القاعدة ومن عرض النقد اللذين يزيدان بدورهما من معدل التضخم الذي يضاعف من العجز المالي الحكومي.. إلخ.

إن هذه الحقيقة تميل إلى أن تولد عملية يصعب احتواؤها. ولأسباب مثل هذه يبرهن عرض النقد عموماً على أنه المتغير الأكثر تحدياً لامكانية التنبؤ به في الأقطار الأقل نمواً كما في العراق، بسبب السلوك غير الثابت للعملة والاحتياطيات الفائضة وهيمنة الحكومة وميزان المدفوعات في سلوك القاعدة النقدية(٢٦).

٢ - معيار الانفاق الكلي (الطلب الكلي): في الوقت الذي توقف فيه عملياً النمو في الناتج المحلي الاجمالي في الفترة ١٩٨٣ - ١٩٩٠ - بل وتناقص في الواقع كما أشرنا إليه أعلاه، خاصة في الفترة اللاحقة ١٩٩٠ - ١٩٩٢، فإن الطلب الكلي في الاقتصاد العراقي بقي يتزايد بمعدلات كبيرة. متمثلاً بالانفاق الحكومي والانفاق الاستهلاكي الخاص والانفاق الاستثماري (اجمالي الانفاق

على تكوين رأس المال الثابت) مما أدى إلى خلق فجوة كبيرة متصاعدة بين الطلب الكلي والعرض الكلي من السلع والخدمات بلغت ٣٣٪ من الناتج المحلي الاجمالي. وقد ارتفعت حصة الاستهلاك الأسري من الناتج المذكور من ٥ . ٢٢٪ ١٩٨٠ إلى ٤٩٪ عام ١٩٩٠. وارتفعت نسبة الانفاق الحكومي من ٣ . ١٥٪ في العام الأول إلى ٥ . ٣١٪ في العام الأخير(٢٧). وإذا قدرنا أن الناتج المحلي الاجمالي قد انخفض في عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ بنسبة ٥٠٪ مما كان عليه عام ١٩٩٠، وأن الانفاق الاجمالي قد زاد وسيزيد بنسبة ٢٠٪ في العامين الأخيرين مما كان عليه في ذلك العام (١٩٩٠) فإن من المقدر أن تصل نسبة الفجوة التضخمية (الطلب الكلي - العرض الكلي) إلى مايزيد عن ٣٠٠٪ عام ١٩٩١ ومايقرب من ٤٠٠٪ من الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٩٢. وهي فجوة ضخمة حقاً تفسر بما لايدع مجالاً للشك معدلات التضخم المفرطة التي حدثت أو التي يتوقع لها أن تتحقق عام ١٩٩٢ في ظل الحصار الاقتصادي وتوقف الصادرات النفطية، وتدهور المركز الخارجي للقطر ونضوب احتياطاته الأجنبية وتجميد أرصدته النقدية في الخارج، وتصاعد الانفاق والعجز المالي الحكوميين الممولين مصرفياً، وأخيراً وليس آخراً الزيادة الضخمة في عرض النقد والنمو الكبير في قاعدة النقد الأساس مقابل تدهور خطير في العرض والانتاج الكليين من السلع والخدمات.

رابعاً:طبيعة التضخم في العراق:

هل هو تضخم جامح أم تضخم مفرط؟

إذا كان معيارنا للتضخم الجامح هو معدل التضخم ذي رقمين ومن فئة الـ ٢٠٪ ومضاعفاتها سنوياً، فإن مثل هذا التضخم بدأ حتماً عام ١٩٨٠ عندما ارتفعت الأسعار في العام المذكور مقارنة بالعام الذي سبقه عام ١٩٧٩، وبأسعار عام ١٩٧٤ بمعدل ٢٦٪. ثم زادت عام ١٩٨١ إلى ٣٩٪. ووصلت عام ١٩٨٧ إلى ٤٧٪. ثم قفزت عام ١٩٨٨ إلى ٨٣٪. وأخيراً وصلت عام ١٩٩٠ إلى ٥ . ٢٥٧٪ متجاوزة حاجز الـ ٢٠٠٪ سنوياً. أما بعد عام ١٩٨٨ وبأسعار ذلك العام، فقد وصل معدل تضخم عام ١٩٩١ إلى ٩ . ٢٥٧٪ وعليه فإن المحقق أن التضخم في العراق طيلة عقد الثمانينات، بالأرقام القياسية الرسمية، هو تضخم جامح لاريب فيه ثم أصبح تضخماً مفرطاً بدءاً من عام ١٩٨٩. هذا علماً بأن الأرقام الرسمية تخضع لبعض التحفظات التي أشرنا إليها ومن أهمها كون العديد من الأسعار محددة مركزياً وبالتالي فإنها رسمية، تميل إلى جعل الرقم القياسي متغيراً تنازلياً. كما الرقم القياسي بأسعار المستهلك يخضع لتحفظ اخر مهم وهو إعطاء أوزان غير دقيقة لمختلف فقرات الرقم القياسي المذكور، ومن أهمها الوزن المنخفض نسبياً المعطى لفقرة (الايجار) فلو أزلنا هذه التحفظات لكان ممكن القول بأن معدلات التضخم كانت ستكون أعلى مما تعلنه الدوائر الرسمية المعنية.

هذا فيما يخص الرقم القياسي العام لأسعار المستهلك. أما إذا أخذنا قطاع المواد الغذائية

اختلف الوضع كثيراً. إذ تجاوزت معدلات التضخم الـ ١٠٠٠٪ سنوياً ففي حين وصل معدل التضخم السنوي في اجمالي المواد الغذائية إلى أكثر من ٥٤٠٠٪ أو مايقرب من ٥٠٪ شهرياً فإنه تراوح بالنسبة لبعض المواد الغذائية كالرز والسكر والشاي والطحين والعدس والبيض ولحم الدجاج مابين ٩٠٠٪ إلى ٥٥٠٠٪ سنوياً ـ وذلك في أوائل عام ١٩٩٢، وحسب أسعار السوق الفعلية، وليس الرسمية، وقياساً إلى عام ١٩٨٨. وبهذا المعنى فإن التضخم في أسعار المواد الغذائية، وبالتأكيد كثير غيرها، كالأثاث والمشتريات والدهون ،الزيوت والدخان والألبسة والنقل والايجارات، هو ذو طبيعة مفرطة وليست مجرد جامحة. ولما كانت المواد الغذائية تؤلف مايقرب من نصف ميزانية الأسرة. فإن الأثر الكلي على التضخم يجعل الأخير قطعاً في مستوى التضخم المفرط في العام ١٩٩٢.

وللتدليل على أن التضخم كان ومايزال مفرطاً يلاحظ أن معدلات الارتفاع في الأسعار قد فاقت دائماً تقريباً معدلات الزيادة في عرض النقد. وهي خاصية مهمة ثبتت من تجارب ألمانيا وغيرها مع التضخم المفرط الذي حدث فيها في العشرينات والأربعينات كما تمت الاشارة إليها سابقاً. ففي الفترة مابين ١٩٨٢ - ١٩٩٢ كانت معدلات الارتفاع في الأسعار وعرض النقد بالمعنى الضيق كما يلي:

السنة	معدل التغير في الرقم القياسي لأسعار المستهلك (٪) (١٩٧٣ = ١٠٠)(١)	معدل التغير في عرض النقد (٪) (٢)
١٩٨٢	٣١	٢٤,٨
١٩٨٣	٣٢	١٠,٩
١٩٨٤	٢٤	- ٥-٠٠
١٩٨٥	١٥	٥,٠
١٩٨٦	٤ ٠,	٢١(٣)
١٩٨٧	٤٦	٢١,٠
١٩٨٨	٨٣	٢١,٠
١٩٩٠	٢٥٧,٥	٢٥,٠(٥)
١٩٩١	٣١٧,٩(٤)	٢٥,٠(٥)
١٩٩٢	ما يزيد على ١٠٠٠٪	٣٠,٠(٥)

(١) وزارة التخطيط العراقية. تطور أسعار المستهلك للفترة ١٩٧٨ ـ ١٩٨٨ وعلاقتها بالانفاق الاستهلاكي للفرد في العراق. آب. ١٩٨٩ .

(٢) البنك المركزي العراقي. حتى عام ١٩٨٥ .

(٣) افترض الباحثان أن معدل نمو عرض النقد بالمعنى الضيق بقي بحدود ٢١٪ سنوياً حتى عام ١٩٨٩ وذلك استناداً إلى معدلات النمو النقدي في الفترات السابقة وكذلك استمرار الحكومة في تمويل العجز في الميزانية العامة تمويلاً مصرفياً.

(٤) بأرقام عام ١٩٨٨ .

(٥) نسب مقدرة على أساس تزايد معدل النمو النقدي بنسبة ٤٪ في كل من عامي ١٩٩٠ و١٩٩١ و٥٪ في عام ١٩٩٢ مقارنة بمعدل النمو المقدر لعام ١٩٨٩ .

ومن الواضح أن الأسعار قد ارتفعت بسرعة تزيد على السرعة التي نما بها عرض النقد. وبالتالي فإن القيمة الحقيقية للأرصدة النقدية قد انخفضت باستمرار، مما يفسر الهروب من الاحتفاظ بالنقود باتجاه الموجودات الحقيقية، كالعقارات وسلع الاستهلاك الدائمة والذهب والمجوهرات والعملات الأجنبية. أي أن الطلب على الدينار كمستودع للقيسم قد انخفض بشكل كبير وحل محله الدولار بشكل خاص في تأدية هذه الوظيفة. ولكن الدينار بقي مع ذلك وسيلة دفع ومبادلة مما يعكس قوة الممارسة الاجتماعية الراسخة ويدل على أهمية تلك الوظيفة الأساسية للدينار. ولكن مع هذا فإن الدولار قد أصبح وسيلة التقويم الأساسية، في حين استمر الدينار وسيلة التداول السائدة. وللتدليل على مدى الانخفاض في القيمة الحقيقية للدينار، يلاحظ أنه في حين يقدر أن عرض النقد قد زاد بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٢ بمقدار يزيد قليلاً عن ثلاث مرات، فإن الأسعار قد ارتفعت مابين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٢ فقط بما يقرب من خمس مرات، ومابين عامي ١٩٧٤ و١٩٩٠ بما يزيد على سبع مرات. وقد تصل أسعار عام ١٩٩٢ إلى حوالي عشر مرات أسعار ١٩٨٨. وبذلك يمكن القول إن القيمة الحقيقية للدينار العراقي قد انخفضت عام ١٩٩٢ إلى ١٠/١ قيمتها عام ١٩٨٨ وإلى أقل من ذلك بكثير بالنسبة لقيمتها عام ١٩٧٤.

خامساً: التحليل الاقتصادي للتضخم

يوحي التحليل الأولي للتضخم في العراق بسيادة عاملين أساسيين في احداثه وهي:

أولاً ـ الحصار الاقتصادي الشديد الذي مثل صدمة عرض نتج عنها شح سلعي واسع مارس ضغطاً على منحنى عرض السلع والخدمات لنقله يساراً.

وثانياً ـ التمويل المصرفي الواسع للعجز الحكومي الذي سبب ضغطاً على منحنى الطلب الكلي على السلع والخدمات فتحول يميناً..

العامل الأول حقيقي. أما العامل الثاني فنقدي. وقد نتج عن العامل الحقيقي شح سلعي تولد عن توقف الاستيرادات جزئياً وارتفاع تكاليفها بسبب التصاعد في زسعارها. وفي تكاليف شحنها ونقلها والتأمين عليها وخزنها. بالاضافة إلى تكاليف الوسطاء العديدين وكون سوقها سوق البائعين.

يضاف إلى ذلك انخفاض سعر صرف الدينار، أو ارتفاع سعر الصرف الأجنبي، خاصة بالنسبة للدولار، بنسبة كبيرة مقارنة بالسعر الرسمي للدينار، والذي هو مغالى فيه أصلاً وبدرجة كبيرة، مما نتج عنه ارتفاعات محسوسة في أسعار السلع المستوردة جميعاً، خاصة الغذائية منها، وهي التي تشكل حالياً الجزء الأكبر من الطلب المحلي على السلع المذكورة. فإذا زدنا على ذلك هوامش الربح المرتفعة التي يفرضها البائعون المحليون، وكثرة الوسطاء، فإن آثار ذلك على السلع المعروضة تصبح واضحة. ليس هذا فقط، وإنما هنالك ظاهرة مهمة تبرز في مثل هذه الحالات، وهي أن هناك جزءاً من

المعروض السلعي يقوم البائعون بحجبه عن السوق متمثلاً بخزين سلعي يبقى بعيداً عن متناول المشترين. ويهدف منه البائعون المضاربة في أسعاره، مما يخلق ارتفاعات اصطناعية اضافية في أسعار السلع المعروضة. فيفاقم من ذلك من معدلات التضخم السائد. وربما يشكل هذا الخزين جزءاً كبيراً من كميات السلع المتاحة التي لو عرضت كلها وبمعدلات معقولة لحدث كثيراً من الانخفاضات في الأسعار.

كما يتولد الشح السلعي عن تراجع شديد في الانتاج المحلي، وانخفاض شديد في مرونة العرض السلعي ناجمة عن عدم استغلال الطاقة الانتاجية المتاحة بشكل كامل أو كفوء نظراً إلى أن نسبة كبيرة من مستلزماتها هي ذات منبع استيرادي أجنبي.

وتؤدي هذه العوامل كلها، بالضرورة، إلى نتيجتين مهمتين هما:

(١) إن منحنى العرض الكلي السوقي سينتقل إلى اليسار، خاصة بسبب تصاعد تكاليفه بالشكل الذي أوردناه أعلاه.

(٢) إن مرونة العرض تصبح، وللأسباب ذاتها، منخفضة بشكل كبير لعدم قدرة العرض على التجاوب بسرعة وسهولة للتغيرات الكبيرة في الأسعار، إما لأسباب تلقائية، كعدم القدرة على استغلال الطاقة الانتاجية بدرجة كبيرة كاملة أو كفوءة، أو لأسباب كيفية ناجمة عن تلاعب البائعين وحجب جزء كبير من العرض عن السوق.

أما العامل الثاني النقدي، فيتمثل بالزيادة الكبيرة في الطلب النقدي السوقي الناجمة أصلاً عن التمويل المصرفي لعجز المالي الحكومي الذي سببه الانفاق الحكومي الواسع، مما دفع بمنحنى الطلب السوقي إلى اليمين بعيداً، فعجل بذلك من الارتفاع الشديد في الأسعار، وبصورة متواصلة. وقد خلق ذلك ليس فقط طلباً واسعاً شديداً، وإنما قليل المرونة أيضاً، بمعنى أن الارتفاع في الأسعار لن يقلل كثيراً من حجم الطلب إلا بدرجة محدودة وهو أمر ينتج عن توقعات المستهلكين المتشائمة وغير المرنة بشأن وفرة السلع وارتفاع أسعارها مستقبلاً. وهنا تلعب التوقعات والأسعار المتوقعة، دوراً أساسياً في زيادة حجم الطلب من ناحية، وفي انخفاض مرونته السعرية من ناحية أخرى. وهو ماأكدت عليه النتائج التي توصل إليها الباحثون الاقتصاديون حول التضخم المفرط في البلدان الأوربية كما أشرنا إليها أعلاه (...)

إن المعنى الاقتصادي لذلك هو أن التضخم المفرط الذي يسود الاقتصاد العراقي حالياً لايمكن تفسيره ببساطة تفسيراً (نقودياً) عازين إلى النمو النقدي المفرط الدور الأساسي في إحداثه وتعميقه كما يذهب إليه النقديون، ومنهم CaGan الذي أشرنا إليه، وإنما قد تأصل، كما نعتقد، في الجانب غير النقدي من الاقتصاد الوطني. وهو الجانب السلعي الذي شحت موارده وجفت مصادره بسبب الحصار الاقتصادي. ذلك هو التفسير غير (النقودي) للتضخم الحالي في مبدأه على الأقل. أما بعد أن حدث الشح السلعي فارتفعت الأسعار بشكل رهيب، فإن التوسع النقدي المفرط يلعب الدور

الأساسي في تسارع التضخم منذ أواسط عام ١٩٩٠ وحتى الآن. وهو ماذهب إليه Kaufman وBall سابقاً من أن الزيادات غير الطبيعية في عرض النقد، والشح غير الاعتيادي في السلع يؤثران على حالة التوقعات حول الأسعار فيضعان أساساً لتضخم مفرط، تصبح فيه علاقة عرض النقد بالطلب على الموارد مباشرة وآنية، وذلك من خلال الانفاق الحكومي الواسع وهو مايحدث في العراق حالياً.

هذا هو واقع الحال في أوائل التسعينات. فكيف نفسر التضخم الجامح في عقد الثمانينيات؟ هل كان النمو النقدي هو الدافع الأساسي فيه؟ الجواب قطعاً هو بالايجاب. فلم يكن هناك في ذلك الوقت شح سلعي كما هو الوضع الآن، ولم يكن هناك حصار اقتصادي، ولكن كانت هناك حرب استدعت تحويل بعض الانتاج والاستيرادات نحو سد الحاجات الدفاعية. ولكن الدعم الحكومي للأسعار والرقابات عليها، وتحديد بعضها، يسرت كلها منع الأسعار في أول الأمر من الجموح وذلك حتى عام ١٩٨٧ عندما عكست الحكومة سياستها وخفضت من الرقابات الرسمية وسمحت للأسعار بالتحرك بحرية أكبر، في وقت تزايد فيه عرض النقد، مما أحدث في أواخر العقد ارتفاعات أكبر في الأسعار مسبباً بذلك تضخماً جامحاً بدأت بوادره منذ أوائل الثمانينات، وانقلب إلى تضخم مفرط في التسعينات، وقد أكد البحث على أهمية العوامل النقدية في احداث التضخم الجامح في الثمانينات بصورة لاتقبل الشك ولايحتمل أن تثير تساؤلات نافية لذلك.

سادساً: مالحل: كيف يمكن معالجة التضخم؟

يقول أحد الاقتصاديين، وبحق، أن التضخم كلما طال تزايد وتفاقم. وإننا كلما تماشينا معه، ضعف رد فعلنا الغريزي والايجابي ضده، وإن القضاء عليه هو أمر مكلف بقدر ماأن استمراره هو عملية مكلفة أيضاً، لذا فإن من الضروري التوصل إلى التوازن بين كلفة تواصله وكلفة ايقافه. وقد لايكون ذلك سهلاً مادامت تكاليف إزالته قصيرة الأجل في حين أن منافعه لاتتحقق إلا على المدى الطويل(٢٩) ومإذا كانت تكاليف إزالته مرتفعة أم لا هي في الأساس مسألة يتصف الحكم فيها بكونه سياسياً أكثر منه اقتصادياً(٣٠) وهو أمر أوضح مايكون عليه واقع الحال في العراق في الوقت الحاضر (١٩٩٢). إن التضخم هو عملية Process وليس مجرد ظاهرة Phenomenon. لذا فإن مايجب معرفته هو الآلية التي تدور بها رحى التضخم الطاحنة وكيف يمكن ايقافها،

فباستطاعتنا تحديد الحوادث والمجريات والأفعال التي بدأت تتضخم. وهو مافعلناه بالنسبة للعراق، الحصار الاقتصادي، الشح السلعي، شح الموارد المالية، العجز المالي الحكومي، التمويل المصرفي للعجز المالي الحكومي، التمويل المصرفي للعجز من خلال الديون الحكومية العامة، التوسع النقدي.. إلخ. ولكن الفعل الذي بدأ التضخم هو أقل أهمية بكثير من العوامل التي تديم التضخم، فليس أصل Genedid التضخم هو مايجب الاهتمام به وإنما ديناميكية وأسباب ديمومته(٣١).

إنّ التضخم هو مشكلة سياسية أكثر منها اقتصادية فهناك عوامل قوية، غير اقتصادية تحدد معدل التضخم وبالتالي فإن من المؤكد أن تصميم طرق عملية للتعامل معه هو أيضاً مشكلة تقع بدرجة رئيسية خارج علم الاقتصاد التقني(٣٢). وهو أمر يصدق تماماً على العراق في الظروف الراهنة التي يمر بها، محلياً واقليمياً وقومياً ودولياً. فالأزمة الاقتصادية التي يمر بها هذا القطر حالياً بما فيها أزمة التضخم، هي ذات طبيعة سياسية أكثر منها اقتصادية، لذا فإن حلها هو سياسي كذلك. في معظمه إن لم يكن في كله. فالشح السلعي (هزة العرض) ناتج عن الحصار الاقتصادي المحكم القائم على عوامل سياسية، والنمو النقدي الواسع والمطرد هو أيضاً حصيلة إنفاق حكومي مفرط وممول مصرفياً ويخضع بدوره لعوامل سياسية بقدر مايخضع لمتطلبات اقتصادية. لهذا لانرى حلاً سريعاً وحاسماً للأزمة المستفحلة إلا من خلال اجراءات سياسية فعالة يتوجب على الحكومة القيام بها وهي أدرى بها وأهلها.

أما على المدى القصير، فنحن لانرى أكثر من محاولة رفع كفاءة الانتاج المحلي، وإعادة تشغيل الطاقة الانتاجية العاطلة اعتماداً في الأساس، على الموارد المتاحة محلياً، وتقليل الاعتماد على المستلزمات المستوردة قدر المستطاع ومحاولة التوسع في البطاقة التموينية من حيث كميات السلع وأنواعها الموزعة والمدعومة مركزياً حماية للفئات الشعبية ذات الدخول المحدودة والواطئة. هذا بالاضافة إلى ضرورة الضغط على القطاع الخاص لكي يقتنع بهوامش ربح معقولة ولكي يفرض أسعاراً معتدلة ولكن مجزية ولكي يشعر بمسؤوليته الاجتماعية ويلتزم بالمبادىء الخلقية بالتعامل مع المواطنين الذين سحقهم التضخم حتى العظم.

ومن ناحية الطلب، ليس لنا إلا أن ندعو إلى عقلنة الانفاق الحكومي، ورفع كفاءته، ومنع الهدر والإسراف فيه وتوجيهه نحو حقول الانتاج التي تشبع بشكل خاص الحاجات الأساسية للسكان والاهتمام بالجانب المدني منه بدرجة رئيسة.

عن (الوطن) ـ آذار

الهوامش:

(١) P.A Samuelson And W A Nordhaus, Economics, (N Y McGraw Hill Book Co, 12th, Ed., 1985) PP.229 _230
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠
(٣) P CaGan, "The Monetary Dynamics of Hyperinflation" in: M Frieiman, (Ed), Studies in the Quantity Theory of Money (Chicago· The University of Chicago Press, 1954). P.26.
(٤) G.G Kaufman, Money, Financial Sysstem and the Economy, (Boston. Haughton Mifflin Co., 1981) P.55
(٥) R J. BaLL, Inflation and The Theoru of Money, (London: George Allen and Unwin Ltd., 1964) P.261.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٢ .
(٧) المصدر نفسه.
(٨) M L. Burstein, Money, (Cambridge, Mass. Shenkman Publishing Co., 1963). P.462.
(٩) CaGan, Op Cit., P.26.
(١٠) Burstein, Op. Cit,. P 465.
(١١) CaGan, Op. Cit., PP. 86_88.
(١٢) المصدر نفسه ص ٩١
(١٣) انظر عبد المنعم السيد علي، «الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للتضخم في العراق، ١٩٧٨ - ١٩٨٨ وعلاقتها بالإنفاق الاستهلاكي للفرد في العراق، آب ١٩٨٩، الجدول رقم ١٣، ص ١٨
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) المصدر نفسه
(١٧) الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، الأسعار والاحصاءات المالية، العدد ١١ ١٩٨٩، ص ١٨ .
(١٨) انظر في ذلك دراسة قيمة ومناقشة واسعة في:
R. Dornbusch & S. Fischer, Macroeconomics, (Tokyo: McGraw Hill International Book Co., 3rd, ed., 1984), CH.15
(١٩) استندنا في ذلك إلى معلومات احصائية، صادرة عن البنك المركزي العراقي للفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ أما بعد ذلك فالأرقام تستند إلى تقديرات شخصية مبنية على تجارب العراق النقدية خلال النصف الأول من عقد الثمانينات.
(٢٠) IMF, World Economic Outlook, (May, 1990). PP 56_58
(٢١) المصدر نفسه
(٢٢) المصدر نفسه
(٢٣) انظر بشار أحمد العراقي، المحددات الرئيسية للطلب على النقود في البلدان النامية (١٩٦٩ - ١٩٨٨)، = رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص ١٤٣ - ١٤٧، وص ١٦٦

(٢٤) أي ليس هناك طلب نقدي لأغراض المضاربة وذلك بسبب ضآلة إن لم يكن غياب، أثر سعر الفائدة وغياب الأسواق المالية والنقدية المنظمة وعدم توافر موجودات مالية كافية وذات شعوائد مغرية أو مواصفات جذابة بالنسبة للمستثمرين.
(٢٥) Dornbusch and Fischer. Po. Cit., PP.441_443
(٢٦) W.L Coats and D R. Khatkate. "Money and Monetary Policy in Less Developed Countries, Survey of Issues and Evidences, (Oxford· Pergamon. 1980). P 18
(٢٧) وزارة النفط العراقية، هيئة التخطيط الاقتصادي، تطور أوجه الإنفاق في العراق، ١٩٩٠، ص ٢٢ (٢٨) يمكن نظرياً أن نضيف خزين البائعين إلى طلب المشترين على اعتبار أنه يمثل طلباً سوقياً مما سيدفع بمنحنى طلب السوق إلى اليمن إلى مسافة أبعد مما سيزيد من أسعار السوق، وبالتالي من معدلات التضخم، فيجعل المستوى السائد للأسعار أعلى مما يظهر في الشكل
(٢٩) P Browning, Economic Images: Current Economic Controversies, (London: Longman, 1983).
(٣٠) المصدر نفسه ص ١٣٧ - ١٣٨ .
(٣١) المصدر نفسه ص ١٣٨ .
(٣٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ ١٥٦ .

منهجية التصنيف العقائدية: قواعد الحدود وأوحدية الحقيقة

د. ميثم الجنابي

اذا كان من العبث الآن سبر غور متاهات الدهاليز اللاهوتية المذهبية، فان الاخيرة شكلت الخلفية الـواقعية لفهم ممثلي الملل والنحل الاسلاميين، واقع الانقسام والفرقة في الامة وتقييم مدارسها وشيعها. ولم تكن هذه العملية ضيقة الفعالية، كما يبدو للوهلة الاولى. فعلى الرغم من ان تعداد الفرق وحصرها في عدد معين قد ساهم في تضييق تتبع الصيغة الفعلية لظهور وتطور وازدياد عدد الفرق، إلا انه قدّم في الوقت نفسه قواعد الحدود الضرورية في افراز الجوهري والثانوي؛ وفي الوقت الذي وضع اغلبية الفرق في خانة الضلال والانحراف، فانه افرز في الوقت نفسه اوحدية الحقيقة. وفي الوقت الذي اعطى للجميع امكانية اتهام وانتقاد وتفسيق وتكفير الآخرين، فانه خلق امكانية تقييم الذات باعتبارها هي الفرقة الناجية.

فباستثناء ابن حزم (ت ـ ٤٥٦ هـ) فان كل ممثلي العلم المللي النحلي الاسلامي اتخذوا من حديث انقسام الامة مقدمة «شرعية» لتناول موضوعاته. إلا ان هذه المقدمة، لم تؤد الى نتائج موحدة. انها، ان امكن القول، شكلت مقدمة التنافر اكثر مما هي مقدمة الوحدة. وذلك يعكس دون شك طابعها العقائدي ـ المذهبي لا المنهجي التحليلي. فاذا كان النوبختي (ت ـ حوالي ٢٢٠ هـ) قد لاحظ، منذ وقت مبكر، أن مفهوم الجماعة في آراء الفرق المتصارعة يعكس مضمون الفرقة (الافتراق) اكثر مما يعكس مضمون الجماعة (الوحدة)، فانه يكون قد حدس ودقق الطابع الايديولوجي للحديث. وهذا ما يفسر لحد ما غاية في تصنيفه للفرق. غير ان غياب هذا الحديث، بله رفضه عند ابن حزم (ت ـ ٤٥٦ هـ) لم يحل دون اشتداد عناصر الايديولوجية ـ العقائدية في

آرائه. ومع ذلك، فان حصيلة التحليل المنهجي - العقائدي في مدارس الملل والنحل الاسلامية قد ابدع ضمن ومن خلال «شرعية الحديث»، قوانينه التصنيفية العامة المستندة في الاطار العام الى الرؤية الواقعية لتعدد الفرق وتباينها. ولهذا ليس من قبيل الصدفة ان يشترك اغلب مؤلفي كتب الملل والنحل المسلمين في تقسيماتهم العامة للفرق الكبرى. فالبلخي (ت - ٣١٧ هـ) قسّم فرق الامة الكبرى الى ست (الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والعامة والحشوية)، في حين تتطابق تقسيمات النوبختي والاشعري والبغدادي تطابقاً كلياً. انهم يقسمونها في الاطار العام الى أربعة فرق كبرى عند النوبختي (الشيعة والمعتزلة والمرجئة والخوارج)، وعند الاشعري (الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة) وعند البغدادي (الروافض والخوارج والقدرية المعتزلة والمرجئة). وتتطابق آراء ابن حزم تطابقاً شبه كلي مع هذه الصيغة. فهو يضيف الى الفرق الاربع العامة، الآنفة الذكر، فرقة اهل السنّة. ولا تختلف في الواقع، تقسيمات الشهرستاني عن سابقيه، من حيث اتجاهيتها العامة، إلا في مجال تصنيفها التقييمي. فهو يضيف الى جانب المعتزلة والخوارج والمرجئة والشيعة اتجاهي الجبرية والصفاتية. أي انه يزاوج بين آراء **النوبختي** والاشعري والبغدادي وابن حزم التصنيفية العامة. وهو بهذا المعنى، يشكل استمرارية ونفياً رفيع المستوى للتصنيف الذي سبق وان طرحه الملطي (ت - ٣٧٧ هـ) في تصنيفه للفرق العامة (الزنادقة والجهمية والقدرية والمرجئة والرافضة والحرورية) والبغدادي (الذي اضاف الى الفرق الاربع العامة فرق النجارية والجهمية والمشبّهة)[7].

وسوف يظل هذا التقسيم والتصنيف محافظاً على «بؤرته» الاساسية تجاه الفرق الكبرى حتى في الكتابات المتأخرة نسبياً، كما هو واضح في تصانيف فخر الدين الرازي (ت - ٦٠٦ هـ) وابن المرتضى (ت - ٨٤٠ هـ). فالشيء الجديد الذي يدخله الرازي في تصنيفه العام هو فرق الصوفية الى جانب (المعتزلة والخوارج والروافض والمشبهة والكرامية والجبرية والمرجئة)، رغم انه ليس الوحيد، فيما لو اخذنا بنظر الاعتبار تلك الصياغة الاولية التي حاول فيها الاسفرايني (ت - ٤٧١ هـ) في كتابه (التبصير في الدين) ادخال المتصوفة في فرقة اهل السنة والجماعة. اما ابن المرتضى، فانه تتبع تصنيفات المعتزلة والشهرستاني والرازي. فهو يضيف الى الفرق الاربع الكبرى كل من (المجبرة والباطنية والحلولية والزيدية). وفيما لو تعمقنا في تفصيل هذه الصياغات العامة، فان ظاهرة التصنيف، ستبدو اكثر تعقيداً وعرضة للتبدل والتنوع الذي من الصعب ان يحصره مقياس معين، باستثناء مقياس الانتماء الفكري والمذهبي.

ان التأثير الواضح لهذا الانتماء يظهر في ترتيب الفِرَق أو حشرها في الاتجاهات العامة. وفي الواقع اننا لا نعثر على أي من مؤلفي كتب الملل والنحل الاسلامية، ممن استطاع التجرد كلياً من التأثير المباشر أو اللامباشر لهذا الانتماء. ولربما شكل الشهرستاني فقط نموذجاً فريداً دون ان يعني ذلك تجرده الكامل. اذ ان ظاهرة النقاء أو التجرد الكامل في عالم الصراع الفكري والمذهبي - العقائدي، ليس لها ما «يبررها» من وجهة النظر التاريخية. وهي بهذا المعنى لا تعني رديفاً للموضوعية الناقصة، على العكس انها تكمل الموضوعية من وجهة نظر التحليل الفكري.

كان جميع ممثلي علم الملل والنحل اسلاميي المنشأ والتربية والعقيدة. وبالتالي، فانهم نظروا الى اعمالهم باعتبارها جزءاً من مهماتهم الروحية ايضاً. وان هذا التناقض النسبي بين الانتماء الروحي - العقائدي والموضوعية الفكرية الصارمة، كان على الدوام المحرك القائم وراء بلورة وصياغة تقاليد الملل والنحل وتصنيفاتها للفرق.

فاذا كان الملطي (ت - ٣٧٧ هـ)، على سبيل المثال، قد اجهد نفسه في تقسيم الفرق الى ثلاث وسبعين فرقة متتبعاً حرفية الحديث، تماماً مثلما فعل البغدادي (ت - ٤٢٩ هـ) والشهرستاني (ت - ٥٤٨ هـ) وابن المرتضى (ت - ٨٤٠ هـ)، فان كلاً منهم قد أسهم في جمع وترتيب عدد الفرق. فالملطي يقسمها على الشكل التالي: الزنادقة خمس فرق، والجهمية ثمان، والقدرية سبع، والمرجئة اثنتا عشرة والرافضة خمس عشرة، والحرورية خمس وعشرون. وجعله ذلك يستنتج بان مجموعها اثنتان وسبعون فرقة يضاف لها الفرقة الناجية (أهل السنّة والجماعة)[1]. في حين وزّعها البغدادي (ت - ٤٢٩ هـ) بالصيغة التالية: الروافض عشرون فرقة، والخوارج عشرون فرقة، والقدرية المعتزلة اثنتان وعشرون فرقة، والمرجئة خمس، والنجارية ثلاث، ثم كل من البكرية والضرارية والجهمية والكرّامية فرقة واحدة. أي انه يطبّق بصورة دقيقة، شأن الملطي، عدد الفرق الضالة (اثنتان وسبعون)، بينهما الفرقة الاخيرة فهي فرقة اهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث[2]. أما الشهرستاني (ت - ٥٤٨ هـ) فانه لا يقدم ارقاماً دقيقة شأن سابقيه، ولكنه يفلح في الاقتراب من كاملية الرقم التقليدي للحديث. إلا ان تعداده للفرق يخلق اشكالات اكثر مما يحلها. فمن الممكن ان تبلغ في احدى قراءات الفرق الواردة عنده على العدد ثلاثة وسبعين (في حالة جمعنا لها بالصيغة التالية: المعتزلة اثنا عشر فرقة، الجبرية ثلاث، والصفاتية ثلاث، والخوارج ثماني عشرة، والمرجئة ست، والشيعة تسع وعشرون. ومن الممكن قراءتها بالصيغة التي توصلنا الى الرقم واحد وسبعين، في حالة النظر الى تصنيفه للخوارج باعتبارها ست عشرة فرقة، ومن الممكن ان يكون مجمل عدد الفرق سبعاً وستين في حالة جمع فرق الشيعة بخمس وعشرين فرقة. أو يمكنها ان تكون خمساً وستين فرقة في حالة النظر الى الخوارج باعتبارها ست عشرة فرقة، بينما الشيعة خمس وعشرون). ولكن حتى في حالة الموافقة (وذلك ممكن في حالة التلاعب بالتصنيف العددي للفرق) على ماأشار له الشهرستاني بعد استعراضه الفرق الاسلامية، من انه انجز القسم المتعلق بـ «الفرق الاسلامية» وما بقيت إلا فرقة الباطنية، فان الحصيلة النهائية للرقم تبقى مباينة لما سبق وان طرحه في مقدمة كتابه عن محاولته استيفاء «اقسام الفرق الاسلامية ثلاثاً وسبعين فرقة»[3]. وفي كل الاحوال فان هذه القضية، كما سنبين لاحقاً، لم تكن جوهرية بالنسبة لمنظومته التصنيفية. اما ابن المرتضى (ت - ٨٤٠ هـ)، فانه ينزع في تدقيق ارقام الفرق الاسلامية نزوع الملطي والبغدادي. أي انه يجد في عدد الفرق الثلاث والسبعين مصداقاً للحديث النبوي حول انقسام الامة والفرقة الناجية منها[4]. إلا ان ذلك لم يمنعه من ان يؤكد تعقيدات هذه القضية[5]. ومع ذلك فهو يقسمها بالشكل التالي: الروافض عشرون فرقة، والمعتزلة عشرون فرقة، والمرجئة ست فرق، والمجبّرة اربع فرق، والباطنية فرقة، والحلولية فرقة، والزيدية فرقة.

أما بالنسبة للشخصيات الاخرى كالنوبختي والاشعري وابن حزم والرازي، فانهم لم يشغلوا انفسهم بهذا الافراط العقائدي والمذهبي. فالنوبختي على سبيل المثال، لم يورد الحديث اصلاً اضافة لذلك، ان جل اهتمامه كان منصباً على فرق الشيعة. وهذا ما ينطبق على الاشعري. بيما اعتبر ابن حزم الحديث مما لا يصدق به، وبالتالي، فانه رفضه كلياً باعتباره حديثاً لا يصح من طريق الاسناد[6]. أما الرازي، فانه وقف امام واقع تعدد الفرق الهائل، مما جعله حائراً بين ضرورة حصر الفرق الاسلامية في اطار الرقم الشائع وبين ايجاد تبرير لتعددها المفرط. فاذا كان ما اورده هو، اكثر من ثلاث وسبعين، فانه وجد مخرجاً لذلك في فكرته التي صاغها بعبارة: «انه يجوز ان يكون مراده (الحديث) من ذكر الفرق، الكبار. وما عددنا من الفرق ليست من الفرق العظيمة»[7]. إلا ان من الضروري، حسب نظر الرازي، ألا يكون الرقم اقل من ثلاث وسبعين، في حين لا يضرّ كثرتهم عن الرقم المذكور[8]. اذ لو عددنا الفرق كافة، كما يكتب الرازي، لجاز ان يكون عدها اضعاف ما ذكرنا، بل ربما وجد في فرقة واحدة من فرق الروافض ثلاثاً وسبعين فرقة[9].

مما سبق يبدو واضحاً، ان تأثير الحديث في مؤلفات الملل والنحل، قد انصبّ في اطار ما يمكن دعوته بالمنهجية العقائدية على الاقل فيما يخص تعداد الفرق. ولم تكن هذه المنهجية صياغة مفتعلة لتنافر القوى، بل ونتاجاً ضرورياً لضيق الوعي المذهبي ـ الفرقي. وفي صياغتها هذه غاية في الديناميكية والتناقض. بهذا المعنى كانت نتاجاً طبيعياً وخاصاً لواقع الخلافة وثقافتها ومنزعها الروحي. فعلى الرغم من تشابهها مع ما هو مميز لكل مراحل التاريخ الفكري، فان لها خصوصيتها المرتبطة بمنظومات الحضارة المتماسكة، الواحدية، التي تنزع في حركتها القهقرية والابداعية الى وحدة الاول والآخر.

واذا كانت الواحدية الحضارية الاسلامية وثيقة الارتباط بالوحدانية الاسلامية، فانه كان لا بد لها من ان تصطدم بهذه الحلزونية الفعلية القائمة في حوافز وغايات وعيها الميتافيزيقي والوجودي وليس من قبيل الصدفة ان يحتل صراع السنة والبدعة في الوعي الاسلامي تلك المكانة الحساسة، التي وجدت تعبيراتها العديدة في ثنائيات التناقض الوحدوي كالاول والآخر، الظاهر والباطن، التفسير والتأويل، الاسلام والايمان، الشريعة والحقيقة، العقل والنقل... الخ. وجد كل دلك انعكاسه في تقاليد الملل والنحل الاسلامية المعبرة عن خصائص الحضارة الاسلامية في وحدانية ديالكتيكها التاريخي والروحي. وبالتالي ليس البحث عن الفرقة الناجية، سوى التعبير المناسب عن واقع الحضارة التي شكل الانقسام مقدمتها والوحدة غايتها والبحث عن الفرقة الناجية اسلوبها.

لقد بحث كل من ممثلي العلم المللي النحلي الاسلامي، ضمن اطار انتمائه الفكري والمذهبي عن الفرقة التي كان بامكانه ان يقول: هنا الحقيقية!! واذا كانت هذه الصياغة ظاهرة مميزة للكتابات الاولى، على الاقل في مفاهيمها المباشرة، فانها تعمقت في وقت لاحق الى الدرجة التي لم يعد الحاسم فيها مفهوم الانتماء المباشر للاسلام فقط، بل ومضمون العقائد الاسلامية ذاتها. فالنوبختي، الذي لم يشر الى الحديث، لم يفته ان يحقق واقع الانقسام القائم في صراع الفرق ودعوى التمثل الانتمائي للفرقة الناجية (أو اهل السنة والجماعة) بعبارة: كل منهم

يدعي نفسه الجماعة رغم ان واقعهم أو ما ينطبق عليهم ليس معنى الاجتماع بل معنى الافتراق[10].
بينما سار الملطي والاشعري والبغدادي، كل منهم بطريقته الخاصة في الكشف عن ماهية اهل السنة والجماعة. فالاشعري (ت ـ ٣٣٤ هـ) لم يضع «اهل السنة والجماعة» فوق أو بالضد من الفرق الاخرى، بقدر ما انه اشار اليها باعتبارها احدى فرق المسلمين والمصلين التي ينتمي اليها[11]. أي على خلاف ما سيطرحه البغدادي (ت ـ ٤٢٩ هـ) في تسننه المتعصب أو سنّيته العقائدية الصارمة، التي تضع اهل السنة والجماعة بالضد من فرق المسلمين «الضالة». واذا كان الملطي (ت ـ ٣٧٧ هـ) قد اعطى للفرقة الناجية صيغة دينية ـ عقائدية لها قراينها في الديانات الاخرى خصوصاً في اليهودية والنصرانية، على اساس فكرة الحديث ذاتها، القائلة بان اليهود افترقوا على احدى وسبعين فرقة، فرقة ناجية وسبعين في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فرقة ناجية واحدى وسبعين في النار، وان ناجية اليهود من اصحاب موسى وناجية النصارى هم الحواريون من المسلمبن من أصحاب عيسى، فان الامة الاسلامية ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة ناجية واثنتين وسبعين في النار، وهي فرقة السنة والجماعة[12] ان تحقيق ماهية الفرقة الناجية، لم يخلُ من تأثير تلك العقائد التي صاغها علم الكلام. فما يطرحه الملطي عن الفرقة الناجية ما هو في الواقع إلا الصيغة المكثّفة لما سبق وان طرحه الاشعري حول اهل السنة في الفصل المتعلق بـ «حكاية جملة قول اصحاب الحديث وأهل السنة»، أي عقائد الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وان الله آله واحد صمد لا آله غيره، وان الجنة والنار حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور، وان اسماء الله لا يقال غير الله، واثبات السمع والبصر له، وان الخير والشر منه، وان القرآن كلام الله غير مخلوق، وان الله يرى بالابصار يوم القيامة، ولا يكفّرون واحداً من اهل القبلة، وان الله مقلّب القلوب، يقرّون بشفاعة الرسول وعذاب القبر والحوض، وان الصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وان الايمان قول وعمل لا يزيد ولا ينقص، وان الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه، والاعتراف بحق السلف، والتصديق بالاحاديث، والاخذ بالقرآن والسنة، والوقوف وراء كل امام بر وفاجر والدعاء لائمة المسلمين بالصلاح وعدم الخروج عليهم بالسيف، والتصديق بخروج الدجال وان عيسى بن مريم يقتله، والايمان بمنكر ونكير وان السحر والسا- موجودان، والصلاة على كل من مات من اهل القبلة، وان الجنة والنار مخلوقان، والاقرار بالاجل والارزاق من الله وان السنة لا تنسخ بالقرآن، والاطفال امرهم الى الله ومجانبة البدع[13].

أما البغدادي (ت ـ ٤٣٩ هـ) فانه يدرج هذه الاعتقادات المتناثرة في آراء اهل السنة والجماعة بصيغة كلامية دقيقة، موحّداً لآرائهم بخمسةَ عشر ركناً جوهرياً، تناول فيها كل قضايا الكلام وجدالاته، من نظرية المعرفة والانطولوجيا الى دقائق الروح الاخلاقي واحكام الفقه المعاملاتي. فالركن الاول يقوم في اثبات الحقائق والعلوم ورفض السفسطة، بينما الركن الثاني يقوم في ان العالم كل شيء هو غير الله وانه مصنوع مخلوق، بينما الثالث يقوم في الاقرار بصانع العالم وصفاته الذاتية، والركن الرابع يقوم في الاقرار بان الصفات القائمة بالله (كالعلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر) صفات له ازلية ونعوت له ابدية، والركن الخامس في التوقف على

اسماء الله اما بالقرآن واما بالسنة الصحيحة. اما الركن السادس فيقوم في الاقرار بعدل الله وانه خالق الاجسام والاعراض خيرها وشرها، وانه خالق اكساب العباد. والركن السابع يقوم في الاقرار باثبات الرسالة والنبوة. والركن الثامن يقوم بالاقرار بان المعجزة هي امر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة مع تحديه قومه بها ومع عجز قومه على معارضتها بمثلها وعلى وجه يدل على صدقه في زمان التكليف. والركن التاسع يقوم في الاقرار بان اركان الاسلام خمسة (شهادة لا آلة إلا الله، محمد رسول الله، واقامة الصلاة واتيان الزكاة وحج البيت). الركن العاشر، هو الاقرار بان افعال الملكفين خمسة اقسام (واجب، ومحظور، ومسنون، ومكروه ومباح). الركن الحادي عشر هو الاقرار بان الله قادر على افناء جميع العالم جملة وعلى افناء بعض الاجسام، والقول بخلق الجنة والنار، وسؤال منكر ونكير، والاقرار بالحوض والصراط والميزان واثبات الشفاعة. الركن الثاني عشر، في ان الامامة فرض واجب على الامة لاجل اقامة الامام والنظام. الركن الثالث عشر يقوم في الاقرار بان اصل الايمان المعرفة والتصديق بالقلب مع وجوب جميع الطاعات المفروضة واستحباب النوافل المشروعة. الركن الرابع عشر يقوم في الاقرار بان الملائكة معصومون عن الذنوب، وتفضيل الانبياء على الاولياء. الركن الاخير يقوم في الاتفاق مع الاحكام العامة لفقهاء المسلمين الكبار تجاه اعداء الاسلام[١٤].

وقد سار ابن حزم (ت ـ ٤٥٦ هـ) والرازي (ت ـ ٦٠٦ هـ) وابن المرتضى (ت ـ ٨٤٠ هـ) في نفس هذه التقليدية الصارمة، رغم ان كلاً منهم قد حلها باسلوبه الخاص. فعلى الرغم من ان ابن حزم اشار الى ان اكثر اختلافات اهل السنة في الفتيا (الافتاء) ونبذ يسيرة من الاعتقادات[١٥]، إلا ان مفهوم اهل السنة قد تطابق في الواقع، مع آرائه الكلامية[١٦]. أما الفخر الرازي، فانه لا يورد مفهوم الفرقة الناجية، أو أهل السنة والجماعة أو حتى آراءهم بصورة مستقلة أو مكثفة. وبالتالي فان مصطلح أهل السنة والجماعة يتطابق، شأن ابن حزم، مع آرائه الكلامية ـ الفلسفية. فهو يشير الى ان مؤلفاته التي وجهت لها المطاعن من قبل الحساد والاعداء، وبالاخص تلك التي ناهض بها الفلاسفة «لم تسع إلا لنصرة اعتقاد اهل السنة والجماعة. ويعتقدون اني لست على مذهب اهل السنة والجماعة، وقد علم العالمون انه ليس مذهبي ولا مذهب اسلافي إلا مذهب اهل السنة والجماعة»[١٧]؛ في حين انه حالما يقيّم ما اسماه بأصحاب الحقيقة من فرق الصوفية (الفرقة الثالثة حسب تصنيفه) فانه يقول: «ان هؤلاء خير فرق الآدميين»[١٨]. بصيغة اخرى ان آراء الرازي بصدد الفرقة الناجية لا تتطابق مع أية صيغة مدرسية جامدة، قائمة بحد ذاتها، لها حدودها ومعالمها الخاصة، شأن ما هو مميز للاشعري (ت ـ ٣٢٤ هـ) والملطي (ت ـ ٣٧٧ هـ) والبغدادي (ت ـ ٤٢٩ هـ)، بل تقترب في حوافزها الداخلية، رغم الفوارق النظرية، مع آراء ابن حزم.

غير ان الصيغة الحادة ذاتها لمفهوم اهل السنة والجماعة، حالما تكون قد ارتبطت في تاريخيتها العقائدية بفرقة ما محددة، فانها كان لا بد من ان تفرز نقيضها، الذي حاول التركيز على فكرة الفرقة الناجية.

ومن الناحية الايديولوجية، لم يكن هناك فرق جوهري بين مفهومي اهل السنة والجماعة

وبين الفرقة الناجية . وهذا ما تشترك فيه كافة الاتجاهات الكبرى من شيعة وخوارج ومرجئة ومعتزلة .

فالمعتزلة التي ايدت العقل واستندت اليه ، لم تجد حرجاً عند بعض ممثليها ، بما في ذلك اتباعها من اصحاب المقالات ، من ان يعتبروا انفسهم هم المقصودون بالفرقة الناجية . بل لم يجد البعض منهم حرجاً ان يصور الآيات القرآنية ، المتضمنة لكلمات ومفاهيم الاعتزال ، ان تكون رمزاً لهم[١٩] . دع عنك اقرار البعض منهم بالخبر المأثور (الموضوع) من النبي محمد والقائل : «ابرّها واتقاها الفئة المعتزلة» . غير ان هذه الفكرة هي من حصيلة الجدل الايديولوجي والاعتقادات المذهبية المتصارعة ، التي يمكن ان نعثر على صيغتها المزدوجة في آراء ابن المرتضى (ت ـ ٨٤٠ هـ) وموقفه من أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية . فهو بالقدر الذي لا يرفض فيه مفهوم أهل السنة والجماعة ، فانه يحبذ في الوقت نفسه عبارة ومفهوم الفرقة الناجية . وعلى الرغم من انه يحاول ان يعطي لفكرته هذه طابعاً تحليلياً نقدياً لمفاهيم اهل السنة بصيغتها «الشرعية» المشهورة في منظومات علم الكلام ، فاننا لا يمكن ان نغفل الطابع الايديولوجي في فكرته عن الفرقة الناجية . أي ان اطروحاته تمثل في الواقع الصيغة أو الواجهة الاخرى لمفاهيم «اهل السنة والجماعة» ، ولكن من منطلق وتصورات الزيدية ـ المعتزلة . فقد اطلق ابن المرتضى تسمية السنية على المجبرة (الجبرية) ، انطلاقاً من ان مجمل مذهبهم ، كما يكتب ابن المرتضى ، «في القول بخلق الافعال وارادة المعاصي وتعذيب من يشاء بغير ذنب وان فعل الله لا لغرض ، وانه لا يقبّح منه شيء وان القبائح بقدره وقضائه»[٢٠] . وقد ادرج في تيار السنية (أو الجبرية) كل من الظرارية والجهمية والنجارية والكلابية والاشعرية والبكرية والكرامية . أي انه وحدّ ما سبق للشهرستاني ان فرقّه في قسمي الجبرية والصفاتية . إلا ان هذا الموقف الانتقادي لم يبن على أساس التحليل الموضوعي الصارم ، كما هو الحال عند الشهرستاني ، بل على أساس افضلية الزيدية باعتبارها الفرقة الناجية المقصودة بالحديث . ان هذا التوجه المذهبي ، يمتلك في اعماقه نفس الروح المميز للفرق الاسلامية الكبرى . فكون الزيدية هي الفرقة الناجية ، كما يقول ابن المرتضى ، له دليل في العقل والنقل . فالدليل العقلي يقوم في قولها (الزيدية) بالعدل والتوحيد وتنزهها عن الجبر والتشبيه . أما الدليل النقلي فهو اجماع من يعتدّ به من قدماء علماء اهل البيت بالاحاديث التي تنص على اهل البيت كحديث الكساء وحديث «اني تارك فيكم الثقلين» وغيرها من الاحاديث ، وبالتالي ، فان الفرقة الناجية كما يستنتج ابن المرتضى هي تلك التي تدين باعتقاد الزيدية من الفرق الاخرى كالمعتزلة وغيرهم وهو العدل والتوحيد[٢١] .

من كل ذلك يبدو واضحاً ، بان «المنهجية العقائدية» قد مسّت أو أثّرت تأثيراً هائلاً في مواقف أصحاب العلم المللي النحلي تجاه الفرقة الناجية ، أو أهل السنة والجماعة . واذا كان من الممكن الاشارة الى شذوذ من هذه القاعدة (التاريخية والطبيعية لحد ـ ما في الحضارة الاسلامية) ، فهو الشهرستاني . انه الوحيد من ممثلي العلم المللي النحلي المسلمين الذي لم يعر اهتماماً لتصنيف ما اتفق عليه أصحاب الملل من تسميات الكفار والمشركين فحسب ، بل وفي تجاهله مناقشة فكرة اهل السنة والجماعة ، باعتبارها الفرقة الناجية . اذ ليست فرقة أهل السنة والجماعة بنظره سوى

احدى الفرق الاسلامية لا غير. أي انه ينظر اليها باعتبارها فرقة كا ... فقط. ... معرض حديثه عن الصفاتية، يشير الى ان جماعة أهل السلف كانوا يثبتون صفات أزلية لله (كالعلم والقدرة والحياة والارادة) وصفات جبرية. وقد افترق هؤلاء بدورهم الى من أقر بالتأويل والى من رفضه، حتى انتهى الامر الى عبد الله بن سعيد الكلابي (ت ـ ٣٤٠ هـ) وابي العباس القلانسي (ت ـ ٢٥٥ هـ) والحارث بن اسد المحاسبي (ت ـ ٢٤٣ هـ) أي الى اولئك الرجال من أهل السلف الذين باشروا، كما يكتب الشهرستاني «علم الكلام وايدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين اصولية. وصنف بعض، ودرس بعض، حتى جرى بين ابي الحسن الاشعري وبين استاذه مناظرة في مسألة من مسائل الصلاح والاصلح فتخاصما، وانحاز الاشعري الى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية وصار ذلك مذهباً لاهل السنة والجماعة»[٢٢]. حقيقة ان بعض الاشكالات تظل قائمة، وبالاخص فيما يتعلق منها بتعداده للفرق وتصنيفه لها. فهو يشير الى ان استيفاء اقسام الفرق الاسلامية ثلاثاً وسبعين فرقة[٢٣]. وحالما ينهي الجزء المتعلق في الفصل الخاص بآراء الشيعة في الامامة وفرقهم (الكيسانية، والزيدية والامامية، والغالية) فانه يعلّق في الختام قائلاً: «وقد انجزت الفرق الاسلامية، وما بقيت إلا فرقة الباطنية. وقد اوردهم أصحاب التصانيف في كتب المقالات، اما خارجة عن الفرق، واما داخلة فيها. وبالجملة هم قوم يخالفون الاثنين والسبعين فرقة»[٢٤] وفيما بعد يأخذ باستعراض آراء الاسماعيلية (الباطنية)، كفرقة مستقلة[٢٥].

ان هذا النص والفكرة المضمنة فيه، يضعنا امام ثلاث مسائل متعلقة بمواقف الشهرستاني من الفرق الاسلامية وعددها، والثانية فيما اذا كانت الباطنية من الفرق الاسلامية، والثالثة، فيما اذا كانت الباطنية أو غيرها هي الفرقة الناجية. فالنص الآنف الذكر، يبدو في مظهره كما ان الشهرستاني يضع الباطنية (الاسماعيلية) خارج الفرق الاسلامية. إلا ان تخطيطه وصياغته لمهمته الاولية في استيفاء الفرق الاسلامية ثلاث وسبعون فرقة، يجعل من الضروري ادراجها باعتبارها فرقة اسلامية. وهذا ليس نتاجاً لتتبع التنفيذ الحرفي للرقم الوارد في الحديث المشهور، بل ولانه يندرج في اطروحات الشهرستاني وتقسيمه للكتاب وتصنيفه للفرق ضمن فصل الفرق الداخلة في الاسلام. اضافة لذلك، ان الشهرستاني لا يتكلم هنا عن خروج من حضرة الاسلام، بل عن مخالفة الباطنية الاسماعيلية للفرق الاسلامية الاخرى. وهو في الواقع، لا يشدد في هذا الخلاف، حال النظر الى استعراضه لآرائهم، إلا على ما هو مميز لهم من المواقف تجاه مسائل الامامة ومنظوماتهم الفلسفية. فالاسماعيلية كحركة عامة، كما يكتب الشهرستاني، لها تسميات عديدة. ففي العراق يسمون بالباطنية والقرامطة والمزدكية، وفي خراسان يسمون بالتعليمية والملحدة. أما هم فيفضلون تسمية انفسهم بالاسماعيلية. وان خلافهم الجوهري عن الشيعة الموسوية والاثني عشرية، يقوم في اقرارهم بأمامة اسماعيل بن جعفر. وما عدا ذلك، فهم يمثلون تياراً شيعياً، خلطوا آراءهم ببعض كلام الفلاسفة.

من كل ما سبق نستطيع ان نستنتج، بان الشهرستاني يدرج الاسماعيلية في اطار الفرق الاسلامية، ليستكملوا بذلك ما سبق وان دعاه باستيفاء الفرق الاسلامية ثلاثاً وسبعين فرقة.

إلا ان مأثرة الشهرستاني تقوم، من حيث الجوهر في تخطيه الفعلي للمنهجية العقائدية ـ المذهبية، في تصنيفه للفرق. فالمحرك الباعث لتصنيفه للفرق لا يقوم في البحث عن الفرقة الناجية (بالمعنى المذهبي) بل الفرقة الناجية التي تقف ان شئنا الدقة، خارج اطار الفرق الثلاث والسبعين. بصيغة اخرى، ان الشهرستاني يبرز هنا باعتباره الممثل الصارم للبحث عن الواحدية الحقيقية للفرقة الناجية، باعتبارها الفرقة المتطابقة في آرائها، واطروحاتها وممارساتها مع الحقيقة المنطقية. فعندما يتطرق الى مسألة الفرقة الناجية، فانه يؤكد على ان «الناجية، أبداً، من الفرق واحدة». إلا ان هذه الفرقة الواحدة هي فرقة «الحق المنطقي» أو «الحق العقلي»، أو الحقيقة كما هي. فاذا كان الحق، كما يقول الشهرستاني، في كل مسألة عقلية واحداً، فالحق في جميع المسائل يجب ان يكون مع فرقة واحدة. وان هذا هو المقصود بالفرقة الناجية، أو بفكرة «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق الى يوم القيامة».

من كل ما سبق يبدو واضحاً، ان الفكرة المندرجة في حديث انقسام الامة، وضرورة الناجية، قد شكلت في تجريديتها، الخميرة الموضوعية التي بلورت في اطار العلم المللي النحلي الاسلامي، اساليب البحث المنهجية المتباينة. ومن الممكن اجمالاً حصرها في أربعة أساليب كبرى وهي الاسلوب العقائدي، والاسلوب الاستعراضي ـ الموضوعي والاسلوب اللاهوتي الفلسفي ـ الجدلي، والاسلوب الفلسفي التحليلي المقارن.

ومن الممكن ان نتخذ من الملطي ممثلاً للاسلوب الاول، ومن الاشعري ممثلاً للاسلوب الثاني. فالملطي يفصح لنا، فيما تبقى من اجزاء كتابه (التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع)، عن منهجية عقائدية استندت في تقسيمها للفرق على أساس مقارنة آرائها بعقيدة أهل السنة والجماعة. فالملطي لا تشغله ههنا مهمة مقارنة المدارس أو تصنيفها استناداً الى حصيلتها أو استنتاجاتها النظرية، بل يتخذ من صيغها وأشكالها الظاهرية (تاريخياً) كأشياء أو هويات قائمة بحد ذاتها، ومعطاة مرة واحدة والى الابد. ومن هنا، فانه لا يضع امام نفسه سوى مهمة التنبيه على هفواتها والرد عليها. وهذا ما يتجلى بوضوح في موقفه، على سبيل المثال، من الجهمية. وهنا يجدر القول، بان هذه النزعة العقائدية لم تكن شيئاً مميزاً للملطي دون سائر أصحاب العلم المللي النحلي المسلمين، كلما في الامر انها تبرز في اسلوب الاتجاه الذي مثله الملطي، كحافز ومحرك قائم بحد ذاته. وبهذا المعنى فانه يختلف اختلافاً كبيراً عن الاشعري والبغدادي وابن حزم.

فالاشعري عمّق موضوعية العقائدية (أو طابعها الموضوعي)، وبالتالي تحولت النزعة الايديولوجية الجدلية في كتاباته الى خادم تابع لعناصر منهجه الجوهرية، وبالاخص لعنصر المعرفة. فقد أشار فى السطور الاولى لكتابه الى انه «لا بد، لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها، من معرفة المذاهب والمقالات»[26] وقد حدد ذلك لدرجة كبيرة الطابع الموضوعي، اللامتحزب لاستعراضه آراء أهل المذاهب والمقالات. ومع ذلك فان آراء الاشعري لم تخلُ من عناصر التقيم والمقارنة. على العكس. انها تضمنتها كقوى ذاتية في تصنيفه التقييمي. وقد عوّضه ذلك عن مهمة انجاز تصنيفها اللاهوتي والفلسفي الجدلي. اذ لم يشغل بال الاشعري من حيث الجوهر سوى

الفرق الاسلامية. وقد طبّق بحذاقة غير مباشرة فكرته عن الاسلام والايمان ليشمل بها كافة الفرق المتصارعة. ولهذا تكون كتاباته قد مهّدت السبيل، تاريخياً وفكرياً، أمام المعرفة المتعمقة وتقييمها المجرد في صراع الاتجاهات الكلامية.

وفيما لو انتقلنا الى الاسلوب الثالث (اللاهوتي - الفلسفي - الجدلي)، فاننا نستطيع القول بان التباين القائم، في استنتاجات كل من البغدادي وابن حزم وابن المرتضى، لا ينفي القاسم المشترك فيما بينهم وبالاخص فيما يتعلق بمحاولة كل منهم صياغة منهجه العام لتفريق فرق الاسلام ومباينتها عن غيرها من فرق الملل والنحل الاخرى. اضافة لذلك، ان هذا المنهج أو الاسلوب لم يبن على أساس الانتماء الديني المباشر أو الظاهري للملة (الاسلامية)، بل على أساس جملة موحدة من المبادىء اللاهوتية والفلسفية.

فالبغدادي في استعراضه المسهب لاصول (أركان) أهل السنة والجماعة، قد دفع الى الامام في تصنيفه وتحديده الاسلامي عن اللااسلامي، الاسلامي السني عن المبتدع، المبادىء الفلسفية - اللاهوتية المتعلقة بقضايا نظرية المعرفة والميتافيزيق والوجود، واللاهوت. أي نفس المبادىء التي نعثر عليها عند ابن حزم وابن المرتضى.

فالبغدادي يشير الى ان الركن الاول متعلق باثبات الحقائق والعلوم، أي ضرورة اثبات العلوم ورفض احكام وتصورات «السفسطائية الذين ينفون العلم وينفون حقيقة الاشياء كلها، وكذلك السفسطائية الذين شكّوا في وجود الحقائق، وكذلك الذين قالوا بان حقائق الاشياء تابعة للاعتقاد، وصححوا جميع الاعتقادات مع تضادها وتنافيها»[٢٧]. أي تلك الصيغة التي تحصل في آراء ابن المرتضى في تصنيفه لما اسماه بالفرق الكفرية، وفرقتها الاولى (التجاهلية) المكونة حسب تصنيفه من ثلاث فرق هي: «السفسطائي، وهو منكر اليقين في كل شيء وجاعله حسباناً، وعندىً وهو مثبت الحقيقة وجاعلها تابعة للاعتقاد، وسمنيّ وهو منكر ما لم يشاهد بالحواس»[٢٨]. أي ما سبق لابن حزم وان دعاه بفرقة «مبطلو الحقائق وهم الذين يسميهم المتكلمون السفسطائية»[٢٩]. أما الركن الثاني، حسب عبارة البغدادي، فهو المتعلق بالاقرار بان كل ما عدا الله بما في ذلك العالم هو مخلوق مصنوع، أي الفكرة المعارضة لافكار اهل الطبائع (من الفلاسفة) القائلون بقدم العالم، وكذلك آراء الثنوية[٣٠]. أي تلك الصيغة التي طرحها ابن المرتضى في آرائه عن الدهرية «القائلون بقدم العالم واختلفوا في المؤثر: منهم من نفاه مطلقاً، ومنهم من اثبته علة قديمة»[٣١]. أي ما سبق لابن حزم وان صاغه تعبيراً عن آراء اولئك «القائلون باثبات الحقائق، إلا انهم قالوا ان العالم لم يزل وانه لا محدث له ولا مدبر»[٣٢].

فاذا كانت الخلافات، في تصنيف المبادىء العامة عند الثلاثة تقوم لحد ما في طبيعة وعي انتمائهم لاتجاهات اسلامية مختلفة، فانهم يلتقون، حسبما أشرنا، في المنهجية العامة، التي تحاول ان تضع حدوداً أو مبادىء كبرى يجري على أساسها تقييم الاسلامي من اللااسلامي.

فالبغدادي (ت - ٤٢٩ هـ) سار في طريق الصرامة الكلامية السنية، التي وضعها في اركانه، أي ضرورة الاقرار بخلود وقدم صانع العالم (الله) وبصفاته الازلية وبرسله وانبيائه مع حاكمية وسيطرة

مبادىء الاسلام الاساسية (أوأصوله)[33]. أما ابن حزم فانه وضع بصورة متجانسة مسائل الفكر الفلسفي الكبرى، محوّلاً حلولها «الاسلامية» الى مادىء يشكل رفضها أو تقبلها دليلاً على الاسلامية أو إسلامية الفرق. فاضافة الى المبدأين السابقين (أي مبدأ ابطال الحقائق المميز للسفسطائية، ومبدأ اثبات الحقائق المقرون بفكرة قدم العالم ورفض وجود الله) فانه يسلسل الفرق الاخرى على أساس المبادىء التالية: «القائلون باثبات الحقائق وان العالم لم يزل وان له مدبراً لم يزل»[34]. أي القول بأزلية الله والعالم، أو ما يتطابق في بعض تجلياته مع آراء «أهل الطبائع» حسب مفهوم البغدادي، و«الدهرية» حسب مفهوم ابن المرتضى. ثم «القائلون باثبات الحقائق. فبعضهم قال ان العالم لم يزل، وبعضهم قال هو محدث. واتفقوا على ان له مدبرين لم يزالوا وانهم أكثر من واحد»[35]. أي ما يتطابق من حيث مضمونه مع آراء الثنوية، بمعنى الاقرار بأكثر من آله. ثم «القائلون باثبات الحقائق وان العالم محدث وان له خالقاً لم يزل، وابطلوا النبوات»[36]. أي اولئك الـذين يتفقـون مع آراء المسلمين بصـدد القضـايا الجوهرية (الفلسفية ـ الميتافيزيقية)، لكنهم يرفضون مبدأ النبوة. واخيراً اولئك «القائلون باثبات الحقائق وان العالم محدث وان له خالقاً واحداً لم يزل واثبتوا النبوات، إلا انهم خالفوا في بعضها، فأقروا بعض الانبياء عليهم السلام وأنكروا بعضهم»[37] من هنا يبدو واضحاً التشابه الكبير فيما بين آراء البغدادي وابن حزم. بمعنى انه يرفض اولئك الذين يتفقون مع المسلمين بصدد كل القضايا بما في ذلك النبوة، في حالة رفضهم الاقرار بكل النبوات. ولا تعني الفكرة الاخيرة في الواقع سوى تضمنها ضرورة الاقرار بالنبوة المحمدية.

أمـا ابن المـرتضى فانـه يسير في الواقع بنفس الاتجاه. فعندما يقسم ما أسماه بـ «الفرق الكفرية» الى سبع فرق وهي: التجاهلية والدهرية والثنوية والصابئة والمنجمية والوثنية والكتابية، فان مضامينها تتطابق لحد كبير مع فرق أو مبادىء ابن حزم وأركان البغدادي. فالثنوية بفرقها التسع (المانوية والمزدكية والديصانية والمرقيونية والماهانية والكيشانية والصامية والمهراكية والمجوس[38]) تتطابق، رغم تبايناتها الجزئية في فكرتها القائلة بتعدد المبادىء الاولى المتحكمة في الكون والوجود الانساني أو بعبارة ابن حزم «اولئك الذين يختلفون في عدد مدبري العالم». وهذا ما ينطبق بدوره على تصنيفه لفرق الصابئة والمنجمية والوثنية، أي اولئك الذين يقرون بوجود الله، إلا ان اقرارهم هذا متباين من حيث مضمونه. فالصابئة يقرون بالله ولكنهم يعبدونه من خلال التقرب بالملائكة (الكواكب). وهذا ما ينطبق على الوثنية في اتجاهاتها العديدة. إلا انهم يشتركون في جحدهم للرسل[39]. أما الفرقة الكتابية فهم النصارى واليهود. واذا كان ابن المرتضى يكفّر النصارى لآرائهم في الاتحاد والحلول، فان تكفيره لليهود مبني على أساس رفضهم الاقرار بنبوة محمد، أو اعتباره مجرد رسول للعرب، أي نفي شمولية الاسلام العالمية[40].

من هنا يبدو التطابق الخفي فيما بين آراء ومبادىء المنهجية اللاهوتية ـ الفلسفية ـ الجدلية، التي شكلت بحد ذاتها انجازاً كبيراً في تعميق الطابع التحليلي والمقارن للعلم المللي النحلي. وقد كمن هذا الانجاز في صياغة المبادىء العامة، أي الاصول القائمة بحد ذاتها والتي لم تكن معياراً للحقيقة بقدر ما انها شكلت محك التقسيم والتصنيف الضروري العام. وفيما لو تتبعنا

استمرارية هذا الانجاز التحليلي الكبير، والفلسفي في صيغته المنهجية التعميمية، فاننا يمكن ان نلاحظ ديمومة اغلب عناصره في منظومة الشهرستاني المللية النحلية. بل يمكن القول، ان من الصعب فهم انجاز الشهرستاني في هذا المجال دون أو خارج اطار هذه التقاليد.

فقد عمق الشهرستاني في منهجيته الفلسفية التحليلية المقارنة، العناصر الديناميكية والايجابية في تقاليد العلم السابقة. أي انه وحّد، في ظروف تلك المرحلة، عناصر المنهج الموضوعي الاستعراضي، والفلسفي ـ اللاهوتي ـ الجدلي. لقد سار هو، ان امكن القول، في اتجاهين متداخلين يتطابقان. لو شئنا المقارنة، مع ما ابدعه الفكر الاسلامي من وحدة الظاهر والباطن. فهو يبدو من جهة، كما لو انه ند للاشعري في موضوعيته، ومن جهة اخرى، كما لو انه استمرارية أو نسخة معمّقة للبغدادي وابن حزم في منهجيته. أما في الواقع، فانه يمثل نفياً جدلياً يستند الى كل النتاجات السابقة للعلم. فهو يشير في مقدمته الاولى في «بيان تقسيم أهل العالم جملة» الى التقسيمات الاربعة السائدة في عصره. اذ جرى تقسيم العالم، كما يقول الشهرستاني أما استناداً الى «العامل الجغرافي» (الاقاليم السبعة) بحيث اعطى «أهل كل اقليم حظه من اختلاف الطبائع والانفس التي تدل عليها الالوان والالسن»[41]. في حين قسمهم الآخر استناداً الى اعتبارات الاقطار الاربعة (الشرق والغرب والجنوب والشمال) وبالتالي «تميز كل منهم بصفات باختلاف الطبائع وتباين الشرائع»[42] في حين قسمهم البعض الآخر على أساس «القومية» (كالعرب والعجم والروم والهند) وبالتالي خصوصية كل منهم فيما يتعلق بنمط الوعي السائد. فالعرب والهنود يلتقون في «ميلهم الى تقرير خواص الاشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الامور الروحانية، والروم والعجم في ميلهم الى تقرير طبائع الاشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الامورالجسمانية»[43]. في حين قسمهم البعض بحسب الآراء والمذاهب[44]. وقد جعل الشهرستاني من الصنف الاخير غرضه في التأليف. وما هو ملفت للنظر، ان الشهرستاني لا يناقش هذه الآراء ولا يشير الى خطئها أو صوابها. وليس ذلك في الواقع إلا لاتفاقه النسبي مع بذورها العقلانية. فالعوامل الجغرافية والقومية يمكنها ان تلعب دوراً لا يستهان به في بلورة نمط التفكير العام، إلا انها لا يمكنها ان تبدع اسلوباً في ادراك الحقائق كما هي. فالاخيرة لها ملكوتها الخاص، الذي يقع خارج اطار كل الشرطيات العارضة والمفتعلة.

فالشهرستاني يحاول ان يبرز قيمة البحث المللي ـ النحلي، باعتباره العلم المؤرخ المفكر والحقيقة. وبالتالي الممثل النموذجي لموضوعه وقوانينه الخاصة. وبهذا يكون قد سار في اتجاه تعميق النزعة اللاهوتية ـ الفلسفية في تقاليد العلم، ولكن في اتجاهها العقلاني ـ الموضوعي.

ففيما لو أجرينا مقارنة بين المبادىء التي طرحها ابن حزم في تصنيفه للفرق الخارجة عن الاسلام وبين ما طرحه الشهرستاني، فاننا نعثر على تطابق خفي، وشبه كلي في مظهريته. إلا ان الخلاف الجوهري يقوم في طبيعة الموقف من هذه المبادىء وموقعها في منهجية التصنيف. فعندما يطرح الشهرستاني مبدأ «التقسيم الضابط» لتسلسل الفرق والاتجاهات، فانه يسلسلها بالشكل التالي: أولاً، من الناس من لا يقول بمحسوس ومعقول وهم السفسطائية، وثانياً، من يقول منهم

بالمحسوس ولا يقول بالمعقول وهم الطبيعية، وثالثاً، منهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقول بحدود وأحكام وهم الفلاسفة الدهرية، ورابعاً من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والاحكام ولا يقول بالشريعة والاسلام وهم الصابئة وخامساً، من يقول بهذه كلها وإسلام ولا يقول بشريعة نبينا محمد وهم المجوس واليهود والنصارى وسادساً، من يقول بهذه كلها وهم المسلمون[45].

بصيغة اخرى، ان الشهرستاني، خلافاً للبغدادي وابن حزم، يطرح هذا التسلسل في ايجابيته المعرفية وشموليته الكلية. فهو لا يطرح هذا التسلسل كمبادىء لفرز الفرق «الكفرية» و«الايمانية». أي ان المركزي فيها ليس فكرة التكفير، بل دراسة وتحديد الجوهري في هذه الاتجاهات. وليس من قبيل الصدفة ان يضع الشهرستاني مبدأ التقييم المعرفي في هذا التسلسل، لا مسائل الايمان واللاهوت. فهو يفرز مبادىء رفض أو تقبل المعقول والمحسوس، وجوهرية المعقول والمحسوس، ثم مسائل الحدود والاحكام والشريعة والاسلام. ولم ينظر الى هذه المسائل باعتبارها قضايا منفردة منعزلة، بل نظر اليها كأجزاء مكملة بعضها للآخر. وان انتقاده للفرق السابقة (للاسلام) مبني في نهاية المطاف على أساس فكرة نقد النقص الشمولي لا تخطئة الاتجاهات استناداً الى مبدأ عدم انتمائها لعالم الاسلام الديني ـ الملّي. وحتى في اشارته الى التضاد القائم فيما بين أهل الاديان والملل من جهة وبين أهل الاهواء والنحل من جهة اخرى، فانه يفسر ذلك استناداً الى تقبل أو رفض العقائد العامة، وإلا فمن الصعب ان نفهم تقييمه لاديان المجوس واليهود والنصارى.

اننا نستطيع، دون شك، رؤية بوادر التقييم العلمي الصارم في تقييمات الشهرستاني، المبنية على أساس ابراز الاتجاه الفكري (المادي والمثالي، العقلاني واللاعقلاني، الديني والالحادي، التقليدي والابداعي)، إلا ان هذه التقييمات تظل في منهجيته، تابعة للعنصر «المجرد» والاكثر جوهرية، أي الحقيقي واللاحقيقي، الحق والباطل، والصواب والخطأ. ومن هنا فان تقسيمه لاتجاهات الملل (الدينية) والنحل (اللادينية) هو تقسيم علمي، لا يتطابق بالضرورة في منهجيته مع الحقيقي واللاحقيقي. ولهذا نفهم لماذا يضع في الملل، أو حسب ما أسماه بـ «أرباب الديانات مطلقاً»[46] كل من المجوس واليهود والنصارى والاسلام، في حين يضع في أهل الاهواء كل من الفلاسفة والدهرية والصابئة وعبدة الكواكب والاوثان والبراهمة[47]. فالتقسيم الاخير مبني على أساس تحديد طبيعة الموقف من علاقة العقل بالشريعة. واذا كان هو منحازاً في نهاية المطاف الى الاسلام، فليس لعناصره الدينية الخالصة، بل لانه يتضمن الاقرار والتمثل الشمولي لكل ما هو عقلاني وديناميكي في الاتجاهات، أي لشموليته الحقائقية. وهذا ما يبرز بجلاء في فكرته حول الاسلام، التي سبق وان تناولناها بالتحليل، بمعنى ان ذروة الاسلام تقوم في تعبيره الاكمل عن الحقيقة العقلية، وان الفرقة الناجية هي فرقة الحق. وبهذا يكون الشهرستاني قد دفع مناهج التقاليد السابقة في العلم المللي النحلي الاسلامي الى اقصى درجاته الممكنة آنذاك بتحويله الحقيقة المنطقية الى معيار الحكم على الفرق وتباينها.

١ الملطي · التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع، ص ٧٢.
٢ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٢ ـ ١٩.
٣ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ٣٦.
٤ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، بيروت، دار المشرق ١٩٨٥، ص ٤٥.
٥ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٦٠.
٦ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ٣، ص ٢٤٨.
٧ الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، القاهرة ١٩٣٨، ص ٧٤ ـ ٧٥.
٨ الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٧٥.
٩ الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٧٥.
١٠ النوبختي: فرق الشيعة، ص ١٦ ـ ١٧.
١١ الاشعري: مقالات الاسلاميين، ص ٢٧٩.
١٢ الملطي: التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع، ص ١٠.
١٣ الاشعري: مقالات الاسلاميين، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٧.
١٤ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٤٨ ـ ٢٧٩.
١٥ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ٢، ص ١١١.
١٦ وهذا ما يبرز بوضوح في انتقاداته اللاذعة لممثلي اهل السنة والجماعة في العرف التقليدي، كالاشعري وأمثاله. أي ان ذلك يؤكد على ان مفهوم أهل السنة ههنا هو ما يتطابق مع تصورات ابن حزم ذاته.
١٧ الفخر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٩٢.
١٨ الفخر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٧٣.
١٩ لهذا السبب استهزأ الفخر الرازي بهذه الفكرة مستشهداً بالآية: «فان لم تؤمنوا بي فاعتزلوني»، على ان المقصود بالاعتزال هنا هو الكفر (انظر، الفخر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٣٩).
٢٠ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٤٩.
٢١ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٦١.
٢٢ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ٩٣.
٢٣ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ٣٦.
٢٤ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٩٠.
٢٥ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٩١ ـ ١٩٨.
٢٦ الاشعري: مقالات الاسلاميين، ص ١.
٢٧ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٤٩.
٢٨ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٣٩.
٢٩ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ١، ص ٣.
٣٠ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
٣١ ابن المرتضى: كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٣٩.

٣٢ ابن حزم· الفصل في الملل والاهواء والىحل، ج ١ ، ص ٣ .
٣٣ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٤٩ ـ ٢٨٠ .
٣٤ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والىحل، ج ١ ، ص ٣ .
٣٥ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والىحل، ج ١ ، ص ٣ .
٣٦ ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ١ ، ص ٣ .
٣٧ ابن حزم: المصل في الملل والاهواء والنحل، ح ١ ، ص ٣ .
٣٨ ابن المرتضى : كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٣٩ .
٣٩ ابن المرتضى : كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٤٠ ـ ٤١ . وهنا يجدر القول، بان هذه الصيغة التي نقدمها عن آراء ابن المرتضى لا تتطابق بصورة مطلقة مع ما يطرحه عن هذه الاتجاهات. وفي حالات معينة لا تتطابق آرائه عن هذه الفرق مع ما هو مميز لها حقاً. إلا ان الجوهري فيها بالنسبة لنا هو الكشف عن المبادىء العامة في تقسيم ابن المرتضى للفرق والذي يقترب اقتراباً شديداً من آراء سابقيه (البغدادي وابن حزم).
٤٠ ابن المرتضى : كتاب القلائد في تصحيح العقائد، ص ٤١ .
٤١ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٢ .
٤٢ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٢ .
٤٣ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٢ .
٤٤ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٢ .
٤٥ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢ ، ص ٤ ـ ٥ .
٤٦ الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٣ .
٤٧ الشهرستاني : الملل والنحا ، ج ١ ، ص ١٣ .

من توجهات الحزب الاشتراكي اليمني

عبد الله ناجي راشد

الحزب الاشتراكي اليمني حكم الشطر الجنوبي سنوات حافلة بالمنجزات والمشاكل ثم تخلى عن الانفراد بحكم الجنوب لصالح وحدة اليمن على أساس التعددية السياسية مشاركاً في السلطة. الانتخابات التشريعية على الأبواب والبلاد تعاني مصاعب اقتصادية اضافية من عواقب غزو صدام للكويت. والتعددية الهشة مهددة بنزعات الاستبداد ، وجرائم الارهاب، والتقاليد العشائرية، ومكائد الأشقاء والأغراب. ورغم ماتعرض له الحزب الاشتراكي من تشهير واغتيالات، ومن عواقب انهيار تجارب بناء الاشتراكية في أوربا ، تنامت عضويته حتى تجاوزت الـ ٢٠٠ ألف. لكيف يتعامل مع الواقع اليمني شديد التعقيد؟ المقالة أدناه تتناول جانباً أساسياً من توجهاته وهي منشورة في (الثوري) صحيفته الأسبوعية.

يعتبر الحزب الاشتراكي اليمني أكثر الأحزاب الوطنية اليمنية ممارسة للسلطة وأكثرها معايشة لحركة الواقع الاجتماعي. ورغم بعض الأخطاء التي رافقت تجربته النضالية إلا أن الوقائع العملية تؤكد أنه حزب نضالي قادر على مواكبة حركة التطور الاجتماعي بمتغيراته المحلية والدولية، وحزب قادر على تقييم ونقد ذاته، يعتمل بالحوار، ويحترم آراء الآخرين.

وبرغم تجربته الماضية في أحادية القيادة إلا أنه كان سباقاً ورائداً في الاصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وفقاً لاتجهات العصر ومتطلبات عملية التطور والتجديد اللاحقين للمجتمع اليمني.

فالوثيقة الأساسية لاتجاهات الاصلاح السياسي والاقتصادي المقرة في الدورة التاسعة عشرة للجنة الحزب المركزية أكدت على ضرورة تصحيح الاختلالات والأخطاء التي رافقت تطور هيئات الدولة وأكدت على ضرورة التغلب على المعوقات الموضوعية النابعة من طبيعة التخلف الاجتماعي والاقتصادي والتجزئة وجوانب القصور في معرفة القوانين الموضوعية التي تحكم تطور المجتمع اليمني والنزعة الارادية التي حكمت بعض النشاطات التطبيقية وتجاهل بعض الخصائص، الأمر الذي أضر بالوحدة الوطنية، مشيرة إلى أن الطريق الوحيد للخلاص من كل ذلك هو إعتماد الديمقراطية طريقاً ومنهجاً وسلوكاً في حياة المجتمع والدولة وتأمين المشاركة الفعلية للطبقات والأحزاب والفئات الاجتماعية في ادارة شؤون الدولة والمجتمع.

وانطلاقاً مما سلف فإن للحزب الاشتراكي شرف السبق والمبادرة في حمل لواء الديمقراطية والاصلاح والوحدة ويساهم الآن بمسؤولية كبيرة في عملية توحيد صفوف القوى الوطنية والديمقراطية للدفاع عن الوحدة والعمل على إنجاز الخطوة الأولى في مسار الديمقراطية وهي عملية إنجاح الانتخابات النيابية المقبلة وكذا العمل على تعزيز عوامل الثقة فيما بين القوى السياسية تجاه صيانة الهدف السامي المتمثل بحماية الوحدة وصيانة الديمقراطية وتأمين التطور الحضاري المستقل للشعب اليمني.

وعلى هذا المنوال فقد أولت الدورة الثامنة والعشرين للجنة المركزية للحزب أهمية كبيرة لمسألة إرساء التقاليد الديمقراطية التي نحاول الوصول إليها والسير في طريقها، مؤكدة على اجتثاث النوازع الشريرة للذات وإتاحة المجال لحركة الابداع والفكر السياسي والعملي للجماهير الشعبية في ادارة شؤون الواقع وفي نفس الوقت العمل على تصحيح الآلية المعيقة لحركة تطور المجتمع من خلال إضفاء الصفة الوطنية على نظام الحكم السياسي والتنفيذي والقضائي بعيداً عن أساليب الوصاية والاملاء، وأساليب الاستئثار بالسلطة واستخدامها لغرض تحقيق المنافع الذاتية والمناطقية والطائفية والمذهبية وغيرها من النزعات الأنانية الضيقة التي عرقلت عملية التطور الحاصل لمجتمعنا اليمني خلال السنوات الماضية. وأولت الدورة أهمية كبيرة للعمل على تعزيز الثقة وتواصل وتبادل الحوارات بين الحزب والمؤتمر باعتبارهما الحزبين الشريكين في تحقيق الوحدة ويتحملان المسؤولية التاريخية في عملية الحفاظ عليها وبناء سلطتها على قاعدة النهج الديمقراطي وكذا مواصلة العمل والحوارات مع أطراف القوى والأحزاب الوطنية والديمقراطية الأخرى في سبيل تعزيز مبادىء الثقة والجهد الوطني الصادق وتبادل الآراء للبحث عن إيجاد الصيغ المناسبة لتعزيز دور العمل الوطني والمشاركة في معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للبلد وكذا المساهمة في بناء أسس الدولة الحديثة على قاعدة الديمقراطية والقانون والتحديث الحضاري للمجتمع.

وفي ضوء تجارب الديمقراطيات في الكثير من بلدان العالم الثالث ومنها بلادنا يؤكد الحزب على أهمية استبدال الشعارات والكلمات الرنانة بالمعرفة والمصداقية والعمل. لكون الديمقراطية هي

في الأساس ممارسة، فالديمقراطية في نظر حزبنا بحاجة إلى ذات متحررة من قيود الماضي ورواسبه المتخلفة، بحاجة إلى إعطاء الأولوية والأهمية فيها للفرد وضمان عيشه وأمنه واستقراره واحترام معتقداته وآرائه وتفكيراته، والعمل على تحريره من الأحكام المسبقة وإلغاء المطلقات المقيدة لتفكيره والحفاظ على مطلق وحيد هو حرية الفكر والابداع والممارسة في جميع ميادين الحياة.

وحزبنا يؤكد أن الخطوة الأولى للديمقراطية هو الوصول إلى صناديق الاقتراع والاحتكام إليها، غير أنه على يقين أن تلك الخطوة تكتسب أهميتها في ظل تأسيس علاقات مدنية متحضرة وقوانين سيادية متحررة من عقليات الماضي ومن العلاقات العشائرية والقبلية وكافة علاقات التبعية.. فالديمقراطية التي نريدها هي تلك الديمقراطية ذات المضمون الاجتماعي التي ستوفر للانسان ليس حقه في الرأي والانتماء السياسي فقط، بل وضمان حقه في العيش والأمن والاستقرار والعمل على رفع الظلم الاجتماعي عن كاهله وتوفير قدر كاف من العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل لمصادر الثروة وتكافؤ الفرص.

إن الديمقراطية لايمكن أن تسود وتمارس إلا في ظل سلطة منتخبة يخضع فيها الحاكم والمحكوم على السواء لشرعية القانون وسيادته وهذا لن يتأتى إلا بإنشاء دولة المؤسسات القائمة على اللامركزية والعمل على استقلالية السلطة القضائية وتحريرها من تأثيرات أجهزة الحكم السياسي وسلطة الكماشة للحزب وايديولوجية الحاكم.

وتتمثل الضمانات الفكرية والقانونية بضرورة وجود فكر مرجعي يعبر عن القيم الوطنية للشعب اليمني في ظل سيادة القانون وبسط سلطانه على الحاكمين والمحكومين ومن خلال نظام قضائي فعال قائم على أساس الفصل بين السلطات والعمل في نفس الوقت على تخليص سلطة الدولة من تأثيرات وضغوط المؤسسات القبلية والتقليدية التي تتنازع النفوذ مع الدولة والسلطة وتتقاسمها الشرعية.. أما الضمانات الشعبية فتتمثل في قيام النظام السياسي متعدد الأحزاب والمنظمات الجماهيرية والابداعية وتوسيع منظومة الحكم المحلي وإقامة النظام الاقتصادي العادل.

إن النظرة الواقعية والعلمية لحزبنا حول الكثير من القضايا الوطنية وقضايا السلطة والديمقراطية وقضايا التحديث الحضاري قد أثار غضب وحقد بعض القوى المتخلفة وتيارات الاسلام السياسي، فبالرغم من أن الجميع يدرك أن الحزب الاشتراكي اليمني خلال تاريخه الطويل لم يكن له أي موقف معادي من الدين والقوى الاسلامية الوطنية.. ولم يكن في أي يوم ضد أن يكون الدين الاسلامي ديناً للدولة، والشريعة الاسلامية مصدراً رئيسياً من مصادر التشريع.. فالحزب الاشتراكي اليمني منبثق من أوساط الشعب المسلم ويعتبر الفكر الاسلامي المتنور والثقافة الاسلامية والوطنية جزءاً أساسياً من الفكر السياسي الثقافي لحزبنا، ،ولايوجد في صفوفه من ينكر الاسلام والقيم الاسلامية كما تصور ذلك وتدعي بعض القوى الدينية المتطرفة والمتعصبة التي أعطت لنفسها الحق أن تكون وصية على الاسلام، وفي تكفير الآخرين وإباحة دمائهم، والافتراء على المرأة وتشويه دورها

الاجتماعي وحرمانها من حقوقها كمواطنة.

وتعرض الحزب الاشتراكي اليمني ولازال يتعرض لحملات اعلامية مغرضة وموتورة، كما جرى استهداف العديد من قياداته وأعضائه بهدف الاغتيال والتصفية الجسدية، غير أن تلك القوى التي تقف وراء هذه الأعمال قد أفصحت بشكل أو بآخر أمام الرأي العام أنها لاتستهدف الحزب الاشتراكي بذاته بل كل القوى الوطنية الشريفة بهدف النيل من المشروع الحضاري والوحدوي لشعبنا اليمني.

ومن الواجب على كل القوى الوطنية ذات المشروع الحضاري أن تبدي موقفاً واضحاً من تلك القوى والتيارات التي تتخذ من العنف والارهاب أسلوباً لفرض آرائها والتي تسخر دور العبادة والمساجد للتكفير والدعاية السياسية والتضليل على جموع المسلمين وإشغالهم عن القضايا الأساسية في أمور دينهم ودنياهم، وتفتيت الوحدة الوطنية وإثارة الفتنة.

عن (الثوري) صنعاء ٢/٢٥

في الولايات المتحدة الأمريكية

جيل ضائع مدجج بالسلاح

ترجمة وإعداد: جورج يوسف

يثير موضوع ارتكاب المراهقين في الولايات المتحدة الأمريكية جرائم القتل وبأعداد كبيرة، رغم أنهم لايشكلون الآن سوى نسبة قليلة نسبياً من السكان، يثير الكثير من التساؤل والجدل.

المختصون يعزون الأمر إلى تعاطي المخدرات المهلكة، واستخدام الأسلحة الفتاكة، وإلى التفسخ والانحلال المتفشي في المدارس العامة، وإلى العديد من الحقائق الأخرى.

بيد أن جيمس فوكس* يرى أن الأمريكيين في انحلال وتفكك قيم الأسرة في المجتمع الأمريكي الذي يواجه اليوم مشكلة جيل ضائع من المراهقين قساة القلوب الذين يضغطون على زناد بنادقهم بفرح، ويرفضون المفهوم التقليدي للخير والشر... جيل لايولي أدنى اهتمام للضحية ولايهاب السجون والمعتقلات ولاحتى الاعدامات... لأنه يتعرض للموت في الشوارع الأمريكية المحفوفة بالمخاطر كل يوم.

يشير بحث البروفيسور فوكس الأخير الذي نشره في شهر تشرين الثاني /أوكتوبر ١٩٩٢ الرعب في نفوس الشعب الأمريكي. فعلى سبيل المثال لا الحصر: ازداد في الأعوام الستة الماضية عدد مرتكبي الجرائم من الأحداث بعمر ١٥ عاماً في الولايات المتحدة الأمريكية لوحدها بنسبة ٢٠٠ في المائة. ثم أن نسبة مرتكبي الجريمة بعمر ١٣-١٤ عاماً زادت بنسبة ١٤٠ في المائة.

ويعزو فوكس سبب اقتراف الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨-٢١ عاماً الجريمة إلى عدم النضج والرشد وبالتالي استحالة السيطرة على سلوكهم وتصرفاتهم، ويضيف: «إن مايهزنا اليوم

هو أن نرى مايحدث للفتيان بعمر ١٤-١٧ عاماً. أقصد أن موضوع انغماس هؤلاء في ارتكاب الجرائم في الولايات المتحدة الأمريكية وبهذا الشكل المرعب محنة عظيمة... لابل أنها كارثة بحق».

ويتحدث فوكس عن الأرقام التي تنذر بكارثة مروعة، مشيراً إلى أن وباء القتل الذي تفشى في الولايات المتاحدة الأمريكية أواخر الستينات وأوائل السبعينات تضاعف خلال السنوات الخمس الأخيرة. ثم يردف قائلاً: «وإذا اعتقد الناس أن الأمور سيئة في الوقت الحاضر، فإنها تسير سيراً حثيثاً نحو الأسوأ. إنها أنباء محزنة حقاً أن تتجاوز ٣٠ مدينة أمريكية أرقاماً قياسية في القتل خلال الأعوام القليلة الماضية... بيد أن كل هذا لاشيء قياساً بما سيحدث في المستقبل».

يشارك فوكس زميله جلين بايرس (مدير مركز الأبحاث الاجتماعية)، فيقول بصدد مايحدث في الشوارع ووسط العوائل الأمريكية: أن المراهق بعمر ١٤ عاماً يطلق النار دون خشية أو ريب على من يلقي عليه نظرة جانبية، أو إذا شتمه أحد، أو لأي سبب تافه آخر دون التفكير بعواقب الأمر... وهو إذ يفعل كل ذلك ينتابه فرح غامر.

إن مايفعله المراهق اليوم يعود إلى أنه يريد أن يستمتع بطريقته الخاصة في تلك اللحظة متناسياً أو متجاهلاً نتائج الغد. فاستمتاع المراهق في هذه الأيام يختلف تماماً عما كان في الجيل السابق.

فلم يكن في المجتمع الأمريكي هذا العدد الكبير من المراهقين المدججين بالأسلحة، أو بالأحرى لم تكن أسلحتهم فتاكة إلى هذا الحد... فالجيل السابق كان غارقاً في الادمان على المخدرات، ولم تكن كما هي اليوم جزءاً من سلوك المراهق. ورغم أن الجريمة أصبحت تشكل جزءاً من الثقافة الأمريكية، إلاّ أن نوع التفكير لدى المراهق ومايرتكبه أخطر بكثير من ذلك.

يقول فوكس: «لايمكننا الجزم بأن كلّ المراهقين يهتمون بضحيتهم، بيد أن الجزء الأعظم منهم لاتخطر الضحية بباله على الاطلاق. أعتقد أن ذلك يرجع إلى فترة المراهقة التي هم فيها، ففي هذه المرحلة يكون الشخص أنانياً بمعنى الكلمة ومنكفئاً على ذاته».

لدينا حالات عديدة يقول فيها المراهق لصديقته: «سأرتكب القتل، اصطحبي أصدقائي ليشاهدوا جثة القتيل».

ويواصل فوكس حديثه عن جيل الفتيان الذي ترعرع وكبر مع الأفلام الوحشية، جيل فتح عينيه على مشاهد من الاغتصاب في أفلام الفيديو وهو يبدي قلقه حول ماسيحدث لاحقاً، مشيراً إلى أنه بعد ٥ أو ١٠ سنوات سيكبر هذا الجيل وستكون هذه الأفلام ومشاهد الدعارة والقتل جزءاً من سلوكه اليومي.

وبشكل عام يتفق فوكس وبايرس على أن أكثر من الأطفال عرضة للانجرار إلى عالم الجريمة والقتل هم الذين لايلقون الرعاية في العائلة والمدرسة، ولهذا يصعب الفصل بين السبب والنتيجة. فأخطر الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية هي تلك التي توقد فتيل الجنس والجريمة لدى

المراهقين، فيبقى مفهوم الاساءة والاقتصاص متعة في أذهانهم. فهذه الأفلام كثيراً ماتصور مشاهد جنسية يظهر فيها رجال يغتصبون النساء ويقومون بالتنكيل بهن.

إن عامل الرقابة والاشراف ضروري إلى أبعد الحدود في الأسرة كما يؤكد الباحثان فوكس وبايرس، إذ ليس للوالدين ـ غالباً ـ الوقت أو الرغبة لاعارة أدنى اهتمام لأولادهم كأن يكون بحوزة ابنهما ذي العشر سنوات مسدس من عيار ٣٨ مخبئاً تحت وسادته.

ثم يخلص فوكس وبايرس إلى الحاجة الماسة لتوظيف أعداد كافية من المعلمين الأكفاء ليعوضوا غياب الوالدين، وتوفير وسائل الراحة والاستجمام للمراهقين لتكون طعماً جيداً لهم يحيد بهم عن الشوارع المرعبة التي يذرعونها كل يوم، والاهتمام بدور الحضانة، والسعي بجدية لتحويل التلفزيون إلى عامل اجتماعي أساسي في حياة الأطفال.

هنالك الكثير من الوالدين الذين يتركون أطفالهم في البيت لوحدهم ليذهبوا إلى أعمالهم، وهنالك من يهمل أطفاله قبل أن يصلوا إلى سن لايكونون فيها عرضة سريعة للافساد.

يقول فوكس: «يجب أن يكون الطفل في أعوامه الأولى في أحضان دافئة وأمينة، وإذا فقد الحنان والرعاية منذ طفولته، فسيكون في محنة عندما يكبر دون شك».

هنالك موضوع مهم آخر يقلق فوكس كثيراً، هو نظام التأمين الصحي في أمريكا، فالسواد الأعظم من الناس لايستطيعون الانفاق على أبنائهم في مجال الصحة العقلية والاستشارات الطبية. الكثير من الأسر بحاجة ماسة إلى هذا النوع من الاستشارات الطبية التي لايمكنهم أخذها لأنها تكلف ٥٠٠ دولار للشخص الواحد.

وماذا عن الدين؟ يقول فوكس: «لايزال صدى إحدى وصايا الله العشر: «لاتقتل» عالقاً في أذهاننا. لقد كان الدين جزءاً معروفاً من ثقافتنا، لكنه لم يبق كذلك اليوم. فالدين الموجه هو أحد الروادع الاجتماعية القوية والعامل الايجابي في تربية النشء... أما اليوم فقد تحولت الوصية الآنفة الذكر إلى (حاذر أن يقبض عليك).

وهنا يتدخل بايرس ليضيف: «هنالك جيل من المراهقين لايهتم حتى إذا ألقي القبض عليه، لاعتقاده بأنه سيموت آجلاً أم عاجلاً وهو في عز شبابه... ولهذا لايختلف الأمر عنده أن يكون موته في هذه اللحظة أو بعد عدة سنوات».

يقول فوكس: إننا نرى اليوم جيلاً متخماً اعتاد على القتل وارتكاب الجرائم دون أدنى تهيب. ثم يتساءل حول امكانية اعادة هؤلاء المراهقين إلى جادة الصواب، أم أنه قد فات الأوان؟ فيجيب: «بالطبع لدينا فتيان ممن لهم بين الـ ١٤ ـ ١٦ سنة يعملون مع عصابات المخدرات وعصابات القتل، ومن الصعب جداً اعادة هؤلاء إلى أحضان المجتمع. بيد أني أود التعويل على أسبقية ابداء اهتمام أكبر بالأحداث قبل سنوات المراهقة».

ويعقب بايرس قائلاً: «إن ذلك سيكلف مجتمعنا الكثير الكثير من الأموال. فإننا لم نعر في

السابق اهتماماً لذلك وكان جلّ تركيزنا على الأسرة الأمريكية، وعلى النسوة ذوات الأجور الواطئة العاملات كأمهات، والمعلمات ذوات الدخل المحدود. ولم نعر اهتماماً كذلك لعمل الكنيسة وبرامجها في هذا المجال».

ثم ينهي فوكس حديثة قائلاً: «وإن لم نفعل شيئاً، فإننا سندفع ثمن كل ذلك بالسجون التي هي من وظائف الحكومة».

عن صحيفة (تور نتوستار) الكندية

٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٢

* بروفيسور في كلية العدل القضائي بولاية بوسطن الأمريكية. خبير معروف في مجال الجريمة، له ثمانية مؤلفات عرضت جميعها أمام الكونغرس الأمريكي ولعدة مرات. نشر بحثاً في الاونة الأخيرة بين فيه الزيادة القصوى في جرائم القتل المتعمد التي يرتكبها الأحداث دون سن الثامنة عشرة في أمريكا.

— — — — — — — — — — — — —


أدب وفن

المخزومي في ذاكرة الجواهري

في أوائل آذار المنصرم توقف قلب الشيخ الجليل الدكتور مهدي المخزومي. وبرحيله فقدت الساحة الثقافية واحداً من أبرز علماء اللغة العربية وأستاذاً رفيع الخلق، ومناضلاً وطنياً في سبيل حرية الفكر والديمقراطية.

بعد ثورة ١٤ تموز تولى العلامة الفقيد عمادة كلية الآداب، وانتخب للهيئة القيادية لنقابة المعلمين، وساهم في الوقت نفسه، في تأسيس اتحاد الأدباء وانتخب لهيئته الادارية، وحين اضطر رئيسه، الجواهري الكبير إلى مغادرة الوطن، ناب عنه الأستاذ المخزومي في قيادة الاتحاد إلى أن أودع السجن بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ مع مئات من خيرة رموز الثقافة العراقية الديمقراطية - ث ج

في المقابلة التالية يتذكر الجواهري صديقه الراحل، مجيباً على أسئلة طرحها عليه الزميل صباح المندلاوي:

• العلامة المخزومي من أبناء مدينتك النجف، ومن أصدقائك الخلص. فهل يمكن أن تلقي بعض الضوء على نشأته وتدرجه في دنيا العلم؟

هو من عائلة زاير ادهام، وهي عائلة عريقة ومعروفة في النجف، دخل الحوزة العلمية في النجف، وكان أحد النابهين فيها، فوقع عليه الاختيار ليكون مرشحاً إلى الدراسة في القاهرة.

أثبت المخزومي خلال دراسته جدارة لاتصدق، حتى أن أطروحته المعنونة «الخليل بن أحمد» لم

تناقش من قبل الأستاذ المشرف، أحمد أمين، أستاذ الأساتذة في العالم العربي، وصاحب الموسوعة الاسلامية، إذ قال حينئذاك: كيف لي أن أناقش عالما؟!

وفي لبنان، وفيما بعد، ظفرت أطروحته المعنونة «مدرسة الكوفة» بجائزة أدبية شهيرة، وبعد ذلك لم نر له مؤلفاً. حيث أصبح عميداً لكلية الآداب - جامعة بغداد.

عرف عن المخزومي شغفه وولعه بالمطالعة والقراءة كان يبقى حتى ساعة متأخرة من الليل بين أحضان تلك الكتب وفي مكتبته الضخمة والفخمة.

في إحدى زياراتي له، قلت: ألا تخشى أن تسقط عليك تلك الكتب كما حدث للجاحظ.

• *ماذا عن ذكرياتك مع المخزومي خلال عملكما في اتحاد الأدباء العراقيين في أعقاب ثورة تموز عام ١٩٥٨؟*

لعل أبرز مايمكن الاشارة إليه في هذا الصدد الدعوة التي وجهت إلينا، كاتحاد للأدباء، للمشاركة بمؤتمر عربي يقيمه اتحاد الكتاب العرب في الكويت وتشارك فيه اتحادات كتاب عربية كلها حديثة العهد. الوفد الذي تشكل كان يضم الشاعر حافظ جميل والباحث اللغوي كمال ابراهيم، والمؤرخ على الخاقاني، والشاعرة نازك الملائكة، والعلامة المتجرد الدكتور مهدي المخزومي، والأديب الكاتب علي جواد الطاهر والشاعر ومحمود الحبوبي، والأديب صلاح خالص وأنا. المهم، قبل انعقاد المؤتمر بيوم واحد، وكما هو المألوف، كان علينا أن نقابل أمير دولة الكويت، وانتدبت أنا والدكتور المخزومي وأديب آخر للذهاب إلى الأمير. وجلسنا ناحية بينما هو مشغول أو متشاغل مع أحد أعضاء الوفد المصري بحيث وجدنا أنفسنا في موقف لانحسد عليه ونحن نمثل الوفد العراقي لاغيره. وحفظاً لكرامتنا وكرامة الوفد العراقي أومأت إلى زملائي بالنهوض ونهضنا فعلاً، لنجد أنفسنا، ونحن نستأذن الأمير بالانصراف، مثل الذي ماسلم حتى ودع، كما يقولون.

خلال انعقاد المؤتمر، تم اختياري رئيساً للجلسة وهذا نابع من تقدير الحضور للوفد العراقي وثقله الثقافي. وحين حاول البعض من الوفود العربية اثارة الحساسيات والخلافات، دققت على الطاولة لمرات، ولما لم يجد ذلك نفعاً، قررنا الانسحاب فنهضت، ونهض الوفد العراقي بأكمله معلنين الانسحاب،إلا أن النخوة العربية، والعراقية بخاصة، دفعت العراقيين الحضور والعاملين في الكويت لاعادتي إلى المنصة. وحينما طلبت ممن أساء إلى الوفد العراقي أن يعتذر من الحضور ومني، فما كان منه إلا أن يعتذر، فوجدتني في الوقت نفسه أبدي له أسفي وحزني على أن ننجر إلى مثل هذه النهاية. فنحن لم نأت إلى الكويت لنشعل الفرقة والاحتراب، وإنما لنخطو نحو التوحد والتلاحم، وأنت تدري كما يدري الآخرون، أنك لو أشعلت سيكارة في البصرة 'لأطفأتها في الكويت، وتابعت القول: مع ذلك فقد كان الاستقبال يثير القرف والاشمئزاز، أثر تلك اللافتات التي انتشرت هنا وهناك، وعلى طول الطريق الموصل بين المطار والفندق: احذروا الشيوعيين - احذروا الشيوعيين! وأضفت قائلاً: ثم أن هذه المسافة القصيرة بين البصرة والكويت لم تدعني أكمل قصيدتي «يافا»

التي كنت أتغنى بأبياتها في الطائرة، وأشرت إلى الدكتور المخزومي على أنه الشاهد. فهتف الجميع، نريد القصيدة، قصيدة «يافا» فلبيت الطلب.

• *ماذا عن رحيله إلى السعودية؟*

في أعقاب انقلاب شباط ١٩٦٣، اتجه إلى السعودية بحثاً عن العمل، وبقي أربع سنوات يدرس فيها. وقد أثيرت بعض الاعتراضات من الحاقدين عليه لدى العائلة الحاكمة في السعودية على كونه شيوعياً رغم أنه لم ينتم إلى حزب. فما كان من العائلة الحاكمة وتقييماً لمكانته العلمية ومنزلته الرفيعة إلا أن قالت: إن كان كل الشيوعين مثل هذا الرجل، فهاتوا لنا بهم لنستفيد منهم.

• *ماذا عن أسرته؟*

أذكر أنه متزوج وله ولد اسمه، مهند، وبنت اسمها نوال، ابنه كان قد سافر إلى يوغسلافيا لغرض الدراسة. قبل أعوام فجع بوفاة زوجته التي شاطرته السراء والضراء في حياته، ولربما كانت هذه الفجيعة سبباً في تعجيل وفاته، زائداً أنه كان يعاني منذ فترة طويلة، بين الحين والحين، من خفقان في القلب.

• *ماذا عن خواطر وذكريات أخرى ؟*

في أوائل الخمسينات، وخلال وجودي في القاهرة، كان المخزومي من بين الأصدقاء الذين يترددون علينا ويخففون عنا وطأة الغربة، وممن عرفوا بلطفهم وكرمهم وحسن معشرهم، وممن أمضيت وإياهم مستمتعاً بجلسات لاتنسى. وأذكر أيضاً في السبعينات، وحينما أقيم مهرجان الجواهري في جامعة الموصل، احتفاء وتكريماً لي، ألقى المخزومي وأدباء آخرون كلمات بهذه المناسبة، نشرت كلمته فيما بعد في كتاب يحمل عنوان «الجواهري في جامعة الموصل» وحينما تم تأسيس المجمع العلمي العراقي، في بداية السبعينات، كان العلامة المخزومي عضواً في الهيئة الادراية..

ثم ألمت به علة، دخل أثرها المستشفى وعند شفائه قلت بحقه الأبيات التالية:

أبا مهند

أبا مهند لاآذتك نازلة	ولاتخطت إلى علياتك العلل
ولاخلت منك سوح الفضل عامرب	بها إذا غبت عنها ساعة خلل
وظلّ كالفجر ضوء منك منطلق	يهدي العصور، وهدى منك مقتبل
ياكاسي الجيل من أفضاله مننا	منها تتيه على أكتافه حلل
وحاضن «اللغة الفصحى» وقد عبثت	بها الجهالة ... والأخطاء .. والزلل
ومطلع الفكر في ظلمائها قبساً	كما يحول روضاً يانعاً طلل
يهنيك أن ربوع العلم تحتفل	بأن سلمت .. وسوح المجد تبتهل

● *هل من كلمة أخيرة ؟!*

الكلمة الأخيرة عندي هي مدى قدرة هذا الانسان أن يقاوم - ماالستطاع - النكبة بعد النكبة، والفجيعة بعد الفجيعة، ثم لايقدر على شيء سوى أن يضيفهما إلى دفاتر حياته المقسومة عليه (كل ذلك بصمت وخشوع) وأن يجتر آلامه اجترار الصابرين. فمنذ أكثر من عشر سنوات فارقت فيها الوطن وخلال كل مايتيسر من «الهواتف» العديدة بيني وبين بغداد، بل ومن خلال القادمين منها والعائدين إليها، كان سؤالي الأول، بالحرف الواحد: خبروني عن حالة أبي مهند المخزومي. ولقد ظل خبر وفاته مكتوماً علي قرابة أسبوعين، حتى عثرت عن طريق الصدفة النادرة على هذا الخبر الأليم.

فكان ذلك أكثر من محزن لي. لأني قبل كل شيء، رأيت المقاييس مسحوقة أمام عيني.. فهل تكون تلك الكلمات القصيرة والأخيرة والباهتة هي حصة منفخرة من مفاخر العراق الأوائل وعلم من أعلامه الشاخصة؟ ولايبدل في شيء كلمة «وداعاً ووفاء» في جريدة أخرى تبدو وكأنها ملزمة بأن لاتتجاوز حدود كلمات معدودة. ومهما كان الأمر، فبوسع القراء أن يتعرفوا على مدى خسارة العراق، بل العالم العربي كله، بفقدان أبي مهند، المخزومي، وعلى وقع هذه الخسارة على الصفوة الخيرة من أقران المخزومي وخلانه.. وعلى مثلي، أنا بالذات، من دونهم.. فلقد كانت العلاقة الوطيدة، بيني وبينه، تكاد تكون مضرب الأمثال.

وهاأنا اليوم أجدني ذلك الانسان المخلوق نفسه العاجز - وهو يتلقى فقدان أعزّ من عنده من خليل ومن خدين - عن أن يأتي بشيء جديد، وأن يجد الكلمات الحزينة واللائقة. فليست الآهة وحدها قادرة أن تزحزح سطراً واحداً من سفر مآسي الحياة. وكل ماتقدر عليه هو أن تضيف سطراً جديداً منها إلى دفتر الحياة.

لقد كنت، يارفيقي الضائع، رمزاً شاخصاً من رموز الحكيم الصيني القائل:

ولِدوا

فتعذبوا

فماتوا

وإلى لقاء قريب في عالم الأرواح.

قصـائـد

قصيدة حب إلى الهور

كريم الأسدي

لكَ،
للذكرى نابتةٌ في طينك مشغوفاً بالماء
للسابلة الليليين يمرون خفافاً وثقالاً
لسفن خضراء
تمخر لابسةً في الأعناق فوانيساً شقراء
للقبلات الموؤدة في البرِ ...
تفر إليكَ
لمواعيدٍ في السرِ ...
تحلق في سرك
لورود البحر، حقول أغانٍ
تترعرع في حضن صلاتك
لكَ،
لأسماك الله تحلّق في ملكوتٍ أزرق

لك ... للماء شفيفاً في قلبك
لك يادفء
لطيور هجرها البرد لموقد روحك
لطيور الغاق تجدد بيعتها للماء
للحذاف رهيفاً يتمرأى بالماء
وللبجع* المبتل بسحر الماء
لك ياماء
لك ياصوت الكون الأول
ياسر الكون الأول
يامبتدأ الأشياء
لك أجثو
منحنياً فوق جبينك أفئدة من ماء
لك يادفء الماء.

* الحذاف، الغاق والبجع طيور تأهل أهوار جنوب العراق.

١٩٩١ فراي بورك ـ ألمانيا

موال

ياناديل ألحان عاقرها وقم دارنا
دارت سماكم ونحن الخمر مادارنا
لله در الذي لايدري مادرنا
الحلم والصحو ماسالت به عينهم
هم حدثونا ولما لم تكن عينهم
قد أبصرتنا مضت تهمي على دارنا.

١٩٩٢/١٢/٢٩
برلين ـ ألمانيا

صوت في الريح

حينما تجداني
راحلاً في دمي
سابحاً في أثير الجراح
واجماً كجنوب الرياح
حينما تعرفان دمي
نابعاً من أقاصي السماء
مارقاً في البروق
ساهماً كالنيازك خاسرة،
فارفعاني
فريداً كهودج ماء
وإذْ هبت الريح نحو الجنوب
ونحو الشروق
إذن
وحداني

كوكب

أنتما كالصليب
وأنا نجمة في الوسط
حينما يتقوس ظهر الصليب

أرتقي للسماء
كوكباً يتبرعم منه الضياء.

٦/١٠/١٩٩٢ برلين

مافائدة أن اتكلم معك؟

مافائدة المسرح بعد؟
إن كان ابنك يخطط مع رفاقه
لنبش قبر «برتولد بريشت»
مافائدة الأوبرا؟
وابنك ينسل من البيت
مغنياً تلك الأغنية الرعديدة
أغنية الحرب الزائفة
شاحذاً سكينهُ
ليغرسه في قلب زميله الأسمر
الذي ألقت به الرياح الشرقية
على مقاعد مدارسكم
مافائدة الشعر بعد؟
وابنك يخطط لخنق شاعر «غريب»
كتب قصيدة حب لفتاة شقراء
بل مافائدة القصائد والأناشيد؟!
إذا كانت الجموع ستذهب عما قريب إلى «ڤايمار»(1)
لوضع السلاسل في رقبة «گوته» و«شيلر»
ساحلةً اياهما في الشوارع
محولةً مكان النصب إلى بيت لـ «كاوف هوف»(2)
مافائدة السينما؟
وابنك يتمرن على بروڤات الغابة،
تحت إشراف مدرب ماهر
على تصويب المسدس

نحو أثداء أرملة
هاجرت من جحيم الحرب
فرحةً بصغيرها المتبقي
مافائدة كل هذا وذاك؟
مافائدة الطائرات؟
تصب حممها على شعوب حكم عليها بالاعدام
والبوارج؟
تنقل الأسلحة لطغاة العالم
والسفن؟
تحمل النفايات النووية إلى مقابر الأحياء
مافائدة كل هذا وذاك؟!
بل مافائدة أن أتكلم معك الآن... أيها الأستاذ
مادمت منشغلاً في اللعب مع الكومبيوتر!!

١٦ ـ ١٩٩٢/٩/١٧
برلين

(١) في مدينة ڤايمار شرق ألمانيا ينتصب تمثال للشاعرين كَوته وشيلر معاً.
(٢) كاوف هوف: إسم لواحد من أكبر المحلات الاستهلاكية في ألمانيا وأكثرها انتشاراً وشهرة ومبيعاً، حيث يوجد في كل مدينة ألمانية تقريباً.

ليالي بولونيا

مؤيد عبد الستار

(١) نبضات

الأرض حبلى بالأشجار والزهور
والعشب الأخضر
تهيم على فسحاتها قطعان الماشية
المزركشة الألوان
وهناك، فوق رابية معلقة إلى السماء
يتطاير الاوز الأبيض
غنجاً وحبوراً
وأنا
أمتطي قطاراً ينهب السكة العجوز
يخب نحو مدينة جميلة
سأنزلها
وأتركها سريعاً

إلى مدينة أخرى
وأخرى
ولاأعلم
أين سيتوقف القلب
عن الوجيب

في القطار من كراكوف إلى وارشو
١٩٩٠/٨/١٧

(٢) ماريا

في تلك الحانة المكورة
المفروشة بألوان الزهور
طافت علينا
ساقية بضة
عارية الفخذين
تحمل أقداح الخمر البيضاء
تثنت
استدارت بغنج
وهزت وسطها
فأضاءت مصابيح الرجال
ودقت أجراس الشرق عالياً

كراكوف / ١٩٩٠

(٣) المشرد

جلس وحيداً
وانزوى في الحانة الداكنة الجدران
الممتدة على رصيف شارع كالع
طلب كأساً من الفودكا

وقدحاً من الشاي
أشعل سيكارته
وبدأ
يرشف الفودكا
ويشرب الشاي مزة*

كراكوف ١٩٩٠

(٤) نافذة الغربة

من علبة
في الطابق الحادي عشر
تطل عيوني على مدينة
أكوام من حجر
يتدلى رأسي مرهقاً
ترهف السمع أذناي
عسى أن تلتقط خبرا
من الأقاصي
خبراً يقرع الصدغين
بمطرقة
تحمل من جبل ...
نخلة ...
نهراً...
رنين
ومن نافذة العلبة
المسورة بالحديد
أمد يدي
أمدها كي تطول أميالاً
كي تلمس شعاعاً
من ضوء قمر نأى ...

واختفى ...
وراء شراع الغربة،
والسنين.

وارشو ٦/٨/١٩٩٠

أيام الثقافة العراقية في برلين

بمناسبة مرور عامين على القصف الجوي للعراق نظمت جمعية الطلبة العراقين في ألمانيا أيام الثقافة العراقية في المنفى.

في الأمسية الأولى (١٤ كانون الثاني) تحدث الدكتور گيرلنكهوف (عضو دائم في لجنة السلام والتفاهم الدولي) عن زيارة قام بها للعراق سلمت خلالها أدوية ومعدات طبية إلى المستشفى المركزي في البصرة تبرعاً من حركة السلام الألمانية. ووصف معاناة الأطفال والشيوخ والمعوقين بسبب نقص الغذاء والدواء والأدوات الاحتياطية في ظل الحظر. فدعا إلى إنهاء الحظر، والحوار لحل المشاكل.

ثم قدم الباحث فالح عبد الجبار مداخلة تناولت سلطة العائلة وتطورها في العراق وعواقب سياستها، أعقبتها مناقشة حيوية تعددت فيها وجهات النظر بشأن أوضاع العراق والمنطقة والحظر الدولي.

في الأمسية الثانية تليت محاضرة أرسلها من بكين الباحث هادي العلوي تناولت العلاقات بين الصين والعراق في غابر العصور. ثم قدم الباحث فالح عبد الجبار محاضرة عنوانها «فكرة الحق السياسي في الاسلام، نظرة تاريخية ومعاصرة».

بعد ذلك قدمت الدكتورة سالمة حسون نصاً نثرياً عن معاناة المرأة في مدينتها، الموصل. وتلا الشاعر كريم الأسدي عدداً من قصائده الجديدة. ثم تلا الشاعر الكردي فرياد بعض قصائده بالكردية والعربية، وتولى الدكتور زهدي الداودي ترجمة مقاطع منها إلى الألمانية مباشرة. واختتم الأمسية الشاعر فاضل العزاوي بشيء من نتاجه.

وافتتحت الأمسية الختامية (١٦ ك٢) بتحية إلى شعبنا في كل ربوع الوطن. ثم تلا الشاعر عزيز السماوي شيئاً من شعره. أعقبه عزف الملحن كمال السيد لمقاطع من موسيقانا الأصيلة، وأنشد طالب غالي بضع أغاني سياسية. ثم شارك الحاضرون حازم وجاسم في الأغاني الشعبية.

مجيد ـ برلين ٢٨ شباط

حينما يصلب الشعر

شعر محمد أمين پينجويني
ترجمة: رؤوف عثمان

يابنيامين .. بشرتك سوداء
قاتمة
لكنْ روحك بيضاء
ناصعة
قصائدك غابة من لهيب
ماضية حد السهام
الراسية
ياذا اللون الفحمي ...
ماالذنب إلاّ سواد بشرتك
وعشق التراب والانسان؟!
والبحث عبر دمك القاني
عن المساواة بين الأنام
هذه خاتمتك لدى

أنظمة القهر والسلب
وعبّاد الدولار والمال والذهب
ياأيها العبد المعنّى الأسود
حينما صلبوك
المتصفون اغتاظوا
والاذاعات ذرفت دموعاً
والناس ... ثاروا
والتأريخ هتف ملء الحنجرة
أنى لـ (بنيامين) الموت؟
فالشاعر ملاك وزهرة
رسالة وثورة
ياأيها العبد الأسود ...
كيف تجرم بحالك لونك
وبياض قلبك
أنا مثلك .....
أهوى الشعر والجمال
أعشق الأرض والانسان
أغني للحرية في كل زمان ومكان
لكنْ ... آه ...
فحينما أُشنق وأُصلب وأُقتل
هذا العالم بأنامه وبلدانه
يصمت صمت أبي الهول
كمن في أذنه نحاس ووقر
ورائحة النفط تفقده الاحساس
بالصوت والنواح والموت

ظلت ألسنةُ كلّ الأنام
أصدقاء وأعداء
محبوسةً خرساء بكماء
وجهانا حنطي وأسود
لاتُقصَرُ الألوان ببساطة
وأنا ... كي أصبح فحمياً مثلك
يلتف حول عنقي حبلك
يابنيامين ...
لنبك بجوارحنا معاً
أنت لسواد لونك
وأنا لقلبي الساذج الأبيض
لنتعانق في بكائنا
لنحتسي في أكؤس النضال
من خمر أدمعنا.

في العدد القادم

- ندوة في لندن عن أبو گاطع شارك فيها:
  - الروائي زهير الجزائري.
  - الشاعر عبد الكريم گاصد.
  - الشاعر عزيز السماوي.
- الذاكرة... ملحاحة هي الذاكرة، شاكر لعيبي.
- قصاص يبحث عن مستمع، عبد الرزاق أبو عمر.

الكتب ومعاناتها[1]

شعر: م. باوكو
ترجمة: مهداوي أحمد داود

كان الليل يمضي
ورجال الإطفاء
يستبدلون برجال احراق الكتب.
أيها الرجال هل الاطفاء
أكثر متعة في أحلامكم
أم حرق الكتب؟.
كان الليل يمضي
وبكارة عمر الفتيات تتمزق لمرة واحدة.
كانت الشقائق لمرة في السنة تذرف دموعها.
وفي كل الفصول كانت نيران تضرم
في المراعي الخضر.
بينما الكتب كانت تهتك بها
في كل الليالي!.

كان الليل يمضي: وصراع الكتب والأشباح
يعرض في الأزقة المظلمة.
الكتب وصراخ الآلام تحلمان سوية
بسماء صافية.
كانت دماء الكتب تسيل وراء نفسها.
لقد تخثرت الدماء
ومسحت آثارها ..
ولم تتوقف عيون الكتب عن الأسئلة كلها.
انتصف الليل:
الكتاب كان طيراً «مذبوحاً»
لقلوب عباد «أهريمان»[٢]
وكانت عيون الكتب تبدو
أجمل من الماضي.
انتصف الليل:
والحارس يسهر مع حسراته
حينذاك كانت الكتب تعيش
في خيال الهدوء والسكينة.
وكان طعم البسمات المرة
يغدو أكثر مرارة !.
كانت الدماء تسبق نفسها
والبسمات تهجر الشفاه
وكان سراب قبور أرواح الكتب
فلم (هوليودي) مهرب لمربي الكلاب.
انتصف الليل:
وكانت الصرخات تنهال على الكتب.

مسعورة، مجنونة ومصابة بالصرع!
إنها عمل السكير الساهر.
وإن خطايا الكتب تائهة وليس لها قرار
وموانىء مراسيها عديمة الوعي.
الخطايا جمرات تحت الرماد.
وشراراتها رعب أكثر سواداً
من حواجب الرجال المصابين بـ (اللوكيميا)[٣]
وضعت الخطايا في نعش
كاتماً أنفاسها
في مسرحية «مقبرة الأحياء»!.
إلى الآن لم يعرف
ماهي هذه الخطايا ؟
يعتقد أنهم كانوا مدخنين
ويقال أن السكائر لاتقتل الخيال!.

(١) من مجموعته الشعرية (هه رمێن) ص١٥ الصادرة بالكردية سنة ١٩٨٥.
(٢) أهريمان: آلهة الشر في الديانة الزرادشتية.
(٣) اللوكيميا: سرطان الدم.

كابوس أخضر

أحمد ناهد

كان المطر، في البدء، غريباً وغير مألوف، ويزداد ثقلاً كلما تباطأ ايقاعه. ومن منطقة بعيدة الغور في المكان، قفزت إلى الوجود كتل خضراء. مصطفة بلباقة وانتظام ومنهية عند ثقب كبير. وبينما كان يتملى الوجوه مستفهماً، انبثق جرذ أخضر كأبي الهول. شرع يسحبه من قدميه جاراً إياه إلى ثقب بالوعة يتوسط ممراً اخضر.

وكمن استقر جسده في العدم، راح بلاهوادة يناضل من أجل فتح عينيه، عينيه وحدهما. ولم يعرف كم من الوقت إنقضى ليجد نفسه في خلاء يمتد طولياً، خلال لفتة خيوط العناكب واستوطنته أشباح وطناطل ونفير غير مسموع.

ثانية. اثنتين؟ ثم أخذ المطر ينقر جمجمته ويصفق نافذته الوحيدة كأنه طير أبابيل. لبث لثوان ممسكاً بفراشه، خشية أن يسقط في البالوعة ثانية. ولكنه انزلق مرة أخرى وجد نفسه في غرفة تغط في ظلمة واتية وتكتظ برائحة غبار سامة، استقرت على صدره كطابوقة. هل هي غرفة نومه الجديدة التي أبعدته إليها أمه قسراً؟

لكن، مالوقت؟ تساءل ملتاثاً ثم عاين سماء متجهمة. سماء تقع في الجهة الأخرى من نافذته. (اذن، لم تغلق أمه دكانتها بعد؟). تخيل استجابة سوق مريدي الغريزية، وهو تحت رحمة سماء شيطانية مثل هذه: عيون تتطلع إلى فوق كما يفعل الآن كأنه يقلب الفراغ على وجهيه، تندس كالنعاج تحت ظلال الكينكات الخشبية. وصوت أمه وحسب، اخترق ثغاء هذا الهيجان، مهدداً شاتماً.

ترافقه حفنة من كلاب سوق مريدي النابحة كمن يكتشف، على حين غرة، مبرر وجوده. ثم أخذت حركة تجمع أشلاءها، واستعاد سوق مريدي وعيه. (هل توقف المطر؟)

ولكن مالوقت؟ تساءل.

ضوء طفيف تسلل إلى غرفته مثل رجاء، ماسحاً خيوط العتمة عن محتويات غرفته الجديدة كأنه يراها لأول مرة، قنفة صغيرة منذ الأزل، سجادة نصلت ألوانها، مكتبة صغيرة فيها بعض كتبه المدرسية. وفوق رأسه علقت صورة المرحوم والده..

استجمع قواه ليناشد أمه. ناشدها مرتين، ومع ذلك لم تستجب. كان صدى صوته فاتراً وبعيداً. (هل مازال يحلم؟). سقطت عيناه لاشعورياً على صورة المرحوم الرصاصية باطارها الخشبي القديم، نقط سوداء تجمعت على جبهته، وخيط ما اخترق عين والده اليسرى زاحفاً إلى الذقن كأن وجهه قد كسر نصفين. فلجه حزن متعاظم. هل هو هذا الطرق الخفيف للمطر على وحدته المتعاظمة؟ أم لأنه لايقوى على تخيل شكل أبيه الحقيقي؟ فتخيل من جديد: سوق مريدي، مستنقع الأمطار، غرفته، لغز كابوسه الأخضر. أمه التي تنتظر آذان الشيخ لكي تغلق دكانتها وتهرع لكي تعد له الغذاء.

ياترى لم أقصته أمه من فراشها ورمته في غرفة الضيوف؟ هل يبوح لها بسر كابوسه الأخضر؟

٢ ـ الغداء:

تسللت إليه زفرة ثيابها. أعقب ذلك رفس على الباب نافذ الصبر. صفقت الباب بقدمها اليسرى، ثم شرعت بالدردمة عالياً حول السمك والزبائن والمطر غير المتوقع. سرعان ماحلت محلها قرقعة القدور وشهيق الأنابيب. ورحب بهذه المعمعة كبشير خلاص. وانتظر الدعوة، دعوة الغداء لكي يتخلص من أحلام فراشه السوداوية. قال له أستاذ التاريخ أن أباه ليس بشهيد. فتمنى أن يكسر نظارتيه. فالشهيد هو من تعطى عائلته راتباً. هل تأخذ أمك راتباً من الحكومة؟ سأله الأستاذ.

قال: لا.. أمي تبيع السمك في سوق مريدي.

لكن هل عاد المطر ينهمر؟ وانسحب الضوء؟

وبينما كان يفكر بطريقة أخرى يخلد فيها أباه، إخترق صوتها المهتاج سأمه. فهرع إليها مشتاقاً ودائخاً في آن. صدمته روائح زكية، روائح جنة تحديداً.فشعر أنه يغادر كابوسه إلى الحياة. ألقى نظرة إعجاب سريعة على أناقة ملبسها الزاهية، المبهرجة، فأمه، عكس بقية النسوة، لم تلبس الأسود الا سنة واحدة، حداداً على استشهاد والده قبل ١٣ عاماً.

قالت كأنها تعتذر: المطر دوخّن الشيخ ونساه وكت الوذان.

لم يقل لها أنه اضطرب هو الآخر في تحديد الوقت..

قال أنه ليس جائعاً تماماً، لكنها لم تعر قوله اهتماماً، بل مضت تتشكى: ليش مايحط ساعة بالجامع.؟

قال ببديهية: يترجى واحد يتبرعله بوحده.

قالت بعصبية: مو اللي تحصله بتّة بساعة أدگ عليه شهر زمان.

فقال مناكداً: لعد ليش تصلين وراه؟

فقالت مستدركة: أستغفر الله. فاتت الدنيا من ايده..

وحدق في وجه أمه قارئاً: وجه بيضوي، يندلق على صفحته خشم طويل كأنه صافورة. وشم أخضر يخترق ذقنهاعلي شكل حبات مضفورة بعناية. هابطاً بخط مستقيم حتى نهاية بلعومها. وجه يفضل الثرثرة على البيع خاصة بعد ماتمسح القيلولة آثار التعب الصباحي. وجه يراه لأول مرة..

قالت بشكل غير متوقع: شبيك! تريد تخلقني من جديد..!

قال لها مرتبكاً: اني مو جوعان..

فبادرته بحدة: لاتاكل هوه.. ثم أضافت بكرب: كله من الشيخ.

ـ ليش طلب سمچه ورفضتي؟

ـ ياريت.. بس ليش ماوڱن من وكت.. چان الاكل استوى..

فقال كأنه يعزيها: لا، ترى الأكل طيب..

ورآها تعود إلى استغراقها وسهومها. فرغب في الضحك مفكراً بالوقت الذي أنفقته في الغسل والتأنق. قالت له أنها ذاهبة لترتيب فراشه. قال لها: رتبته. ومع ذلك ذهبت وعادت بعد قليل..

قالت: شلونها حجرتك الجديدة.

قال: ليش؟ وبلع بقية شكوته.

٣ ـ المساء:

نثت الدنيا ساعة ثم هجعت وشرعت المزاريب تمطر طيناً. وهبط معها الظلام، ظلام ثقيل مثل لحاف سميك فاستغلت الأشباح وطيور الليل الصمت والجدّ المشهد بخفية ومكر. رآها تحوم حول ضوء مصباح الزقاق الوحيد. هل هو الأنس الوحيد وسط هذا الخلاء؟ هجرت الحركة سوق مريدي أو كادت. وربضت الكلاب تحت دكاكين الزنك بانتظار يوم عمل جديد. (ألم تنه أمه تسوقها بعد؟)

داعبت بصره أشجار السيسبان، شافطة مياه المطر بلهفة وحبور (الشيء الوحيد الذي يذكر المدينة بأصلها الفلاحي، حيث ترعرع والده) أعجبه هذا الربط وأراد أن يسألها عن أبيه ومامعنى أن يكون شهيداً؟ تنطق أمه كلمة الشهيد كمن يتذكر حلماً سعيداً ومزعجاً في آن. قتلوه في رمضان يوم كان عمره سنة أو أقل. هلّ المطر.. النثيث. (هل تخفي أمه شيئاً؟)

ـ يمه، چان أبوي بطل؟

ـ شنو معنى بطل؟

ـ أعني مويس صورة..

ـ الكابوس الأخضر.

ـ أستاذ التاريخ..

عبرت أمه أشجار السيسبان كمن يخوض في مستنقع. لمح شبحها بدءاً، ثم بانت كسيدة، مزيحة الظلام بزنبيلها الخوصي فاتحة الطريق لتعاويذها وصور الأئمة والفاكهة وطيبة قلبها لكي تحضر. عدّ خطواتها واحدة إثر أخرى، ثم نادته فتبعها حالاً إلى غرفتها. قال بلا اهتمام: بس أهل الكهف يحبون الظلام. أشعلت زر الكهرباء فانبثقت إلى الوجود ثلاث أفرشة ممددة كأنها حذوة حصان.. نام هنا حتى يوم أمس. ثم أشعلت المدفأة، معلقة «إن هذا البرد كذاب». فتمتم موافقاً بسطت الفاكهة على طبق وسمتها دليل الصحة وضحك هو لهذا الدلال الذي تسبغه على الأشياء. قالت إن السوق فارغ، ثم أضافت بتعجب: بنت الشيخ راحت تشرب عرگ. فكر أن أمه تغار منها..

ـ جسمها كله ذهب..

ـ يمه، ليش مايزورنا أحد؟

ـ الله أعلم.

ـ آني ماأگدر أنام هناك..

قالت بحزم: لاتاكل حو.

٤ ـ الليل:

قالت أمه: هاك ربع دينار وروح للگهوه.

قال لها: بس انتي تگولين هوايه حراميه بالليل!

قالت: مو انته هسه رجال.

استغرب الحاج أمه وكرمها معاً كأن روحاً غريبة سكنت الدار. حمل بلوزته الخفيفة على كتفه وخرج مكرهاً. لقد تركته أمه لأساطين العراء من قبل، وجد نفسه وسط فراش أبيض طويل. كان يبكي وكانت الدمى من حوله تتقافز كأنها ألعاب شيطانية. (هل هذا حلم أيضاً. يايمه؟) لفحته نسمة باردة فاختض جسده قليلاً. توقف ليرتدي بلوزته،داست قدماه أرضاً صلبة بعض الشيء، وليس كما تخيل. ثم عبر المصباح اليتيم وأشجار السيسبان، بيرغ الماضي والعديم الجدوى، لتواجهه كلاب مريدي. (لقد سمع أنها تأكل البشر في الليل) فدلف نحو اليسار ماشياً بحذر وتوجس فواجهه بيت عادي، بيت لايتميز عن البيوت الأخرى الا بساعته المعلقة في الهواء كشبح. ومع ذلك، تجدد ايقاع أمه اليومي. وبالمناسبة، إن أمه لم تقل له فيما إذا كان أبوه بطلاً أم لا؟ تذكر اسمه مسبقاً بكلمة شهيد وتصمت، قليلاً، متطيرة من أن يزورها النحس مرة أخرى. ثم تقول بتثاقل بأنها لم تر بعينيها كيف استشهد. اقتادوه من البيت. كانوا أربعة أوخمسة يصحبهم المختار. ثم قالوا مات بعد أيام. ولكن، هل كان لون البيت أخضر؟ الجرذ الذي ينتصب في منتصف الممر، هل كان أخضر؟ لقد كنت صغيراً صغيراً جداً. تركتك ولحقت بهم. ساعتان ثلاث ثم تذكرتك فعدت.

لكن هل كان أبي بطلاً؟ جاء المختار وقال أن أباك رجل مستهتر، فلاح أحمق ثم شتمه معرضاً بشرفه. ثم تملى وجهك طويلاً مثل من يعرف منيته. قلت للمختار: ماذا فعل؟ فلم يقل شيئاً. توسلته: هل أستطيع أن آراه؟ فقال: نعم، في جهنم انشاء الله. فركضت خلف السيارة.. وركضت ولكن أباك.. ولكن هل كان أبي بطل؟ تذكرتك بعد ساعتين فوجدتك تصرخ كالميت. رمضان الأسود.. ولكن. هل...

دخل مقهى المحلة، فلفحته روائح الشاي الحريقة والدخان. جلس وطلب شاياً. ثم راقب الضجر المعلق في سماء المقهى وعلى وجوه الرواد وصاحب المقهى. ثم تسرب الدفء إلى جوفه كصديق.

سمع أحداً يهدد بقتل بنت شيخ الجامع التي دنست شرف القطاع كله. (لم لم تحمه أمه من الأستاذ؟) وقال آخر أن المطر فاجأ الشيخ فأصابه زكام شديد. وأقسم آخر بأن يوم القيامة جد قريب. طافت عيناه مابين الآرائك الخشبية، لعب الدومينو. السماور ثم الوجوه المملة، العدوانية. (لم يستوضح رأي أمه بمختار المحلة). ثم أحس الكل يترصده كمن يترصدون نغلاً. فخرج كما دخل غريباً ومنبوذاً، تائقاً إلى دفء غرفة أمه وحيث المدفأة تتربع ثلاثة أفرشة صفت على حدوة حصان وحيث التعاويذ والخضرمات التي تبعد الشيطان أو تثنية.

عندما دخل الدار انزلقت حبات نار خفيفة على خشمه. وسمع لهاث أمه مخترقاً باب غرفتها الموصد. (ألم يكف ابعاده إلى غرفة الضيوف، الفارغة لسنين؟) فدنا من غرفتها برهبة، راغباً أن تعتقه أو تعفو عنه. فهو يخشى الآخرين أو يراهم كقتلة. طرق بابها كالغريب وانتظر. هل ثمة رجل في الدار. توقف لهاثها بغتة ولم ترد على سؤاله. فسحب جسده الغض باتجاه غرفته مشوشاً وجلس تحت صورة المرحوم.

زوبعة القطة

فــؤاد

عندما تتنفس الصباح، وتتالى صياح الديكة، معلناً بدء العمل. بدأت الحياة تدب في أوصال المدينة وشوارع الحي، بعد أن كانت شبه مهجورة. خرجت طفلة جميلة ترتدي صدرية زرقاء، وقميصاً ناصع البياض، حول عنقها النحيف ياقة مذيلة بالدنتيل، ظهرها الصغير كان مزدهياً بحقيبتها المدرسية.

بينما هي تحث الخطى نحو ملعب الطفولة (مدرستها القريبة) من نهاية الشارع الأخير في الحي، توقفت مندهشة أمان حيوان غريب الشكل. الجسم لاريب جسم قطة صغيرة لكن الرأس (!!!) أسطواني.... لماع. دفعها فضولها البريء لتقترب من ذلك الحيوان!؟ تقدمت ببطء وحذر، فإذا هي أمام قطة حقيقية، ترتدي علبة مربى أسطوانية من الصفيح، كصاحب القناع الحديدي.

إن سوء طالع القطة جعلها ذواقة للحلوى مما أوصلها إلى ماهي فيه من مأزق. لملمت القطة الرمادية أطرافها كسلحفاة تحتمي بدرعها. وقفت التلميذة حائرة، بين حالة القطة المؤلمة وخوف الاقتراب. تململت متلفتة.. علّها تجد من ينقذ القطيطة.. بعد هنيهة أقبل زميلها الصغير الذي يصحبها دوماً عند الخروج من المدرسة. فبادرته بأناملها الموجهة نحو القطة: «إنظر... إنها لاتستطيع الخروج، ستموت جوعاً» رد قائلاً ومقلتاه جامدتان بإتجاه القطة: «لاتخافي... إنظري إليّ... كيف سأنقذها».

ماإن خطا نحو القطة مقترباً حتى أحست القطة. قفزت مفزوعة مبتعدة عن مصدر الازعاج.

وقف الصغير مستغرباً، مندهشاً من تصرف القطة، يبادل زميلته النظرات مرة والقطة أخرى.. ماذا دهاها إنني أريد إنقاذها فحسب.. بينما هما على هذا الحال، أقبلت ثلة من تلاميذ المدرسة، أخذوا يحملقون في القطة البائسة، التي استسلمت للظلام.

غص الشارع بجاميع الحشد الكبير من التلاميذ، فهرعوا مفزوعين نحوهم، خوفاً على أطفالهم من حادث دهس، لكنهم ابتسموا حيث تجلى الأمر أمامهم، فطلبوا من أبنائهم الذهاب إلى المدرسة وترك ذلك للآباء.

وعد الآباء أطفالهم بإنقاذ القطة، لكن طفلتنا الجميلة الأولى رفضت الانصياع لأمر أبويها، وأصرت على إنقاذ القطة أمام عينيها فوراً، ثم أجهشت في البكاء. وأصر الأطفال الآخرون على موقفهم فشاركوها البكاء. حاول بعض الآباء إنهاء الموضوع بإنقاذ القطة، لكن القطة أخذت تعدو على غير هدى، في منتصف الشارع الرئيسي وخلفها الأطفال وآباؤهم وأمهاتهم.

كثيرون حاولوا إنقاذ القطيطة، لكن دون جدوى. حاول فتى مفتول العضلات أن يستظهر قوته أمام الصبايا، فأمسك بالقطة محاولاً سحب العلبة من رأسها، حتى كاد أن يقتلع رأسها، لولا صراخ الأطفال والنساء مع صرخة الألم التي أطلقتها القطة، فوضعها على الأرض بسرعة، فأطلقت القطة العنان لأرجلها واستقرت في الشارع العام، وحولها الجمع الغفير الذي أعجبه التفرج على هذه القطة، ثم على الأطفال بالأخص، وهم يبكون، فلم يرغب كثير منهم مغادرة المكان، قبل إنتهاء المسرحية الحزينة، المضحكة، فقد مضى زمن طويل لم يضحكوا فيه من كل قلبهم.

وتعالت منبهات السيارات التي تريد المرور، فقد شبت حركة المرور تماماً ثم ترجل سائق ومن معه ليتبينوا سبب التجمع الغفير، ولحق به سائق آخر وعاشر ومئة، لم يحرك أحد ساكناً لإنقاذ القطة، واكتفوا بالمراقبة للأحداث التي أثارت ضحكهم، وأنستهم آلامهم وأعمالهم التي تأخروا عنها.

في هذه الأثناء رنت هواتف السلطات لتسمع أخباراً عن تجمعات جماهيرية بدأت أول الصباح. المشتركون في هذه التجمعات من فئات وطبقات مختلفة. فتسارعت الأوامر موجهة دوريات الشرطة، أزلام الحكومة من الأمن والمخابرات ورجال الطوارىء، والاطفاء، والدفاع المدني، كما استدعيت قطعات الجيش والفرق الخاصة على عجل، وخلفها المدرعات والدبابات.لكن لم يطرف لأحد من هذه الجماهير جفن أو يهتم لكل هذه القوات، بكاء الأطفال فقط كان يسمع من مسافة بعيدة.

شق قائد عسكري طريقه بصعوبة بين الشعب المتزاحم قاصداً مركز التجمهر، لعله يلتقي بقادة (المظاهرة) وهو يصرخ قائلاً: «ماذا تريدون؟» فجاءه الجواب عندما رأى القطة، وعلم أنها سبب التجمع الكبير، فأخرج مسدسه من غمده المذهب متصنعاً الخشونة والقسوة ليقتل قائد هذا الانقلاب، وينهي الموضوع، فحال الأطفال بينه وبين محبوبتهم، ثم هاجم التلاميذ القائد مع حرسه بالمساطر والأقلام. انتصب أحد التلاميذ أمام القائد رافعاً رأسه لير وجه القائد، ثم بصق بوجهه.

هرب القائد مفزوعاً من هول الدفاع المستميت عن القطة، وطلب تعزيزات على الفور.

حضر إلى المكان مجلس الوزراء، وزير الداخلية، النفط، الصحة، الاعلام، ثم جاء وزير الدفاع بصفحته المدرعة، وتمركزوا حول الجماهير الهادئة التي أصبحت حشودها تسد الشوارع. لاأحد من أولئك الناس يعرف سبب التجمع الأول، فبعضهم يعتقد أن انقلاباً قد حدث.

استخدمت القوات المسلحة القنابل المسيلة للدموع، لكنها لم تخف الجمهور الذي ثارت ثائرته. راح الكبار يدافعون عن أطفالهم، أما أطفالهم فكانوا المدافعين عن القطة.

طلب القادة والوزراء حضور «السيد الرئيس»! فمن غيره يحل هذه المعضلة؟ .

بعد سويعات من التدافع والتصادم، تعددت الاصابات، كثر الجرحى، غصت بهم سيارات الاسعاف والمستشفيات، وبعد الانتظار وصلت طوافة «السيد الرئيس»!

برفقة الموكب الجمهوري الرسمي،من طائرات تحمي الموكب، نزلت الطوافة قرب الجماهير، وهرع «السيد الرئيس» مسرعاً متوغلاً بين الجدران البشرية بمشقة، أغلب الناس لم يسبق لهم أن رأوه من قبل إلا في الصور والتلفزيون، حوله الحرس الخاص يصرخ طالباً معرفة أسباب التمرد. قال بعض الوزراء... لاندري. قال رجال الأمن: إنهم مجرمون! قال وزير الدفاع: إن في الأمر خدعة! أما وزير النفط فيعتقد أنهم اكتشفوا منبع بترول! بدا وزير الاعلام أكثر حكمة، إذ قال: ربما السبب هو إشاعة عن توزيع الغذاء! فتململ «السيد الرئيس».

ترك الوزراء بين الصفوف الأولى من الجماهير مخترقاً الأمواج البشرية نحو قلب التجمع، فرأى العمال.. سألهم عن مطاليبهم.. فقالوا نريد رفع الأجور وتحسين المعيشة، فقال: لكم ماتريدون، أعدكم. وعد «رئيس»! وكلمة شرف. صفق العمال وهللوا ثم هتفوا. لكن البحر البشري لم يتفرق بفرحة العمال، فتوغل «السيد الرئيس» وسط الموج المتلاطم من الأجساد المتعبة، حتى وصل جمع الموظفين، المدرسين، المثقفين والكسبة. سألهم حاجتهم. قالوا له أشياء عن «روتين، حرية، قراءة، «قراطية»*، شعب بطالة، رقابة، جشع وقوت الشعب» بهذه الكلمات همهم ذلك الجمع. فصرح «السيد الرئيس» لكم ماتريدون. وعد رئيس! كلمة شرف! هتف الجمع، صفقوا، حملوا «السيد الرئيس»!!! على الأكتاف ثم أنزلوه وسط قادة التجمع، «التلاميذ». وجدهم غاضبين لايشاركون بالأفراح والهتاف. تصنع ابتسامة خفيفة، لمعت أسنانه... متودداً: ماذا تريدون ياحلوين؟ أجابوه بأصوات متشابكة، متقاطعة: أسكت لنا بكاء الأطفال. لانحب الدموع على خدودهم. على الفور أجاب «السيد الرئيس» مبتهجاً: لكم ماتريدون. وعد رئيس! كلمة شرف. رد التلاميذ: هيا.. لن نصفق، لن نهتف حتى تنقذ القطة المسكينة.

دخل بين الأطفال، لم يحولوا أبصارهم عن قطيطتهم المسكينة: مجهشين بالبكاء. قال «السيد الرئيس» متصنعاً الحنان: لم تبكون؟ فأجابته أناملهم الناعمة، الصغيرة، الرقيقة: إنظر... أخرج رأسها.. هيا حررها نرجوك. لكن إياك أن تخدشها! لكم ماتريدون، وعد رئيس، كلمة شرف، كفوا عن البكاء.

(في هذه الأثناء أرسلت الدول المجاورة والصديقة، وفوداً لتتحقق من الأحداث الخطيرة، التمرد، العصيان حسبما سمعوا..)

«حسناً» قال «السيد الرئيس»: انظروا كيف سأنقذها. شمر عن ساعديه الناعمين، تقدم نحو القطة، فساد هدوء تام، كف الأطفال عن العويل. بأناملهم الرقيقة صاروا يفركون عيونهم وأنوفهم على حد سواء ليروا جيداً، تجمدت عيونهم على القطة و«السيد الرئيس»، تتبعت حدقاتهم أصابع «السيد الرئيس».. لمسها.. نطت القطة، نط خلفها الرئيس. تبعه الأطفال ينطون والتلاميذ، الموظفون وكذلك العمال.

أما الوزراء، الجيش والأمواج البشرية المتلاطمة في الصفوف الخلفية، حيث أصبحوا أشبه بجرف البحر و«السيد الرئيس» في وسط اليم. لم يعرف كل أولئك الناس مايجري في جبهة المفاوضات.

الأطفال يصرخون بالرئيس: أسرع. أسرع. أمسكها. وأخيراً أمسكها. حاول فك أسرها. صرخ الأطفال: برفق.. إنها صغيرة ربما تقطع رأسها!

حاول الرئيس مرةً، ومرةً أخرى، فلم يفلح. نظر إلى الأطفال قائلاً: لم لاتذهبوا إلى مدارسكم؟.. سوف آخذها إلى القصر. وهناك أخرج رأسها من العلبة. صرخ الأطفال لا.. إنك تقتلها! رد الرئيس: أعدكم بكلمة شرف. كرر الأطفال رفضهم: أنقذها فوراً وإلاّ!

جزع «السيد الرئيس» من حماقة الأطفال. قال: «حسناً، سوف نقص العلبة في أحد المصانع ونخرج رأس القطة.. أعدكم بكلمة شرف!»

أجابه الأطفال: نحن لانعرف من هو شرف، لكننا نعرف القطة. غضب «السيد الرئيس» فقذف القطة على الأرض. فتأوهت وصرخت صرخة مدوية مستسلمة لما أصابها.

غضب الأطفال فصاحوا: «أيها الكلب الحقير، كيف تقذف القطة المسكينة هكذا، الويل لك منا.» فهوت على رأس «السيد الرئيس» مسطرة وكانت عينا الطفلة الأولى تحدقان. أسرع الأطفال بنزع أحذيتهم.. انهالت المساطر والأقلام والأحذية تنهمر كالمطر على رأس واحد. أخذ الرئيس يعدو مستنجداً بالحرس وخلفه الأطفال يطورون سلاحهم بعد أن نفذت ذخيرتهم، فاستعانوا بالحصى والعصي والحجارة.

خلف الأطفال ركض التلاميذ وآباؤهم، العمال، الموظفون. لما رأى الوزراء الأمواج البشرية تزحف نحوهم إعتقدوا أنها فرحة النجاح في المفاوضات المزعومة. فاقترح بعضهم الاشتراك في هذا الماراثون فركضوا فعلاً: لأنهم لم يروا أو يعرفوا ماالذي حلّ بـ «السيد الرئيس»!! فعيونهم لاتميز الرئيس في هذا البحر المتلاطم الأمواج. ركض الوزراء ورجال الأمن أملاً بالحصول على جائزة.. تبعتهم قطعات الجيش والدروع وخلفهم الرئيس يتبعه الأطفال، التلاميذ، الآباء، الأمهات، العمال، الموظفون، طلاب الجامعات، الكسبة والمتسولون. وبقيت القطة هادئة تنتظر منقذها!!

١٩٩١/٩/١٨

رجل بلا حرية

علي السام
ترجمة: جاسم ولائي

طال انتظاري للباص. تأخرت كثيراً عن مدرستي، كنت في المحطة، وعدد كبير من المنتظرين، نقف متجمدين تحت رحمة النديف الثلجي الهاطل، والريح الباردة إلى جانبي كان يقف رجل أربعيني، يمسك بحقيبة سفر قديمة. فجأة يفتح الرجل حقيبته، ويخرج تصويراً فوتوغرافياً قديماً يجمع رجلاً وامرأة وثلاثة أطفال.

ـ هذه أسرتي .. قال الرجل.

ـ لم أرهم منذ عشر سنوات، أضاف موضحاً.

انتبهت إلى شعره الأسود، أيقنت أنه أجنبي، وسط غابة الشعور الشقراء الكلبدونية.

ـ من أين أنت؟

السؤال التقليدي الذي يطرحه السويديون على ذوي الشعور السوداء ونطرحه نحن ـ ذوو الشعور السوداء ـ على بعضنا البعض. وهو سؤال لايخلو من فضول.

ـ العراق .. (تنفّس الكلمة والقى بها هواء من الحسرة..) لكنني أقيم في السويد منذ سبع سنوات، وأعتبر الآن مواطنا سويدياً.

لقد بدا الرجل في غاية الانفعال، بعد لحظات بادرته بالسؤال:

ـ أمسافر أنت إلى خارج البلاد؟

واجهني بنظرة، وأومأ برأسه:

ـ سأسافر إلى شمال العراق، لكنّ الباص تأخر.

لماذا لايأخذ هذا الرجل سيارة أجرة بدلاً من الباص؟ إعتقدت أنه إما ثمل وإما مجنون.

ـ سأبقى هناك شهراً. انتظرت عشر سنوات لم أعرف خلالها أي شيء عن أسرتي، هل هم أحياء اليوم أم ماتوا؟ لاأدري!

واستمر في انتظاره لشيء ما.

ـ هل تدخن؟

لفترة طويلة نسبياً بقي الرجل هادئاً وصامتاً كشجرة ميتة، في النهاية قال:

ـ هربت عبر الحدود إلى إيران، هناك انتظرت ثلاث سنوات ـ لم أكن أملك جواز سفر ـ وكان من الصعب العيش هناك، حيث أنني عراقي، رغم ذلك استطعت العيش هذه السنوات.

ـ هل تدخن؟.. أعدت السؤال عليه.

ـ لا شكراً، كنت أدخن خلال ست سنوات، ولكن في إيران لم يكن باستطاعتي شراء السجاير. أحياناً، كنت أقف مع عراقيين آخرين في انتظار أحد يدعونا إلى قدح قهوة ساخنة وسيجارة، لكن لاأحد يأتي.

ـ حقيبتك عتيقة.

بادرت بفضول .. وأضفت:

ـ إنها سوداء من القِدم ومحطمة.

ـ هذه من بلدي الأم، هي آخر ماملكته في العراق، أبي اشتراها لي من شارع الرشيد ببغداد. كان يعتقد أنني سأدرس الحقوق في الولايات المتحدة. وأصبح محامياً ناجحاً. كنت ذكياً في المدرسة، لكني لم أذهب إلى أميركا أبداً.

ـ ألم تتمكن من الاتصال بأسرتك تلفونياً ؟

لم يجب الرجل ثم قدم الباص، لنشرع في الصعود إليه.

قدمت بطاقتي الشهرية إلى السائق، فيما اشترى الرجل تذكرته، جلست في أحد المقاعد الخالية، لأتيح للرجل الجلوس إلى جانبي.

ـ الطقس سيء جداً اليوم.

انتبه الرجل موجهاً نظرة فاحصة إلى السماء كأنه يصحو تواً ويكتشف الطقس لأول مرة. كان يريد رؤية علامات الطقس هناك.

ـ كنت آمل أن أرى وطني وأسرتي مرة واحدة ولتكن الأخيرة. كان لي صديق في العراق، هو الآن يعيش في انكلترا، وهو كاتب، في أحد كتبه نقرأ العبارات التالية:

«هل تملك الشجرة الميتة إسماً خاصاً؟ هل للأنهار الجافة اسماً خاصاً؟ هل يملك الرجل المنزوع الحرية إسماً خاصاً؟»

ـ المطار.. (أعلن السائق من خلال المايكرفون..)

لم يهبط الرجل من الباص !

السويد ٢٧/ك٢/١٩٩٣

نشرت باللغة السويدية

ندوة لفنانين من السليمانية

في الصيف الماضي احتضنت قاعة اللجنة المحلية لحزبنا في السليمانية لقاء ضم نخبة من فناني المحافظة الثقافية لكردستان.

لرحب الرفيق حسيب قره داغي (پروا) بالمشاركين نيابة عن اللجنة المحلية للحزب وتناول الحوار ثلاثة محاور هي الفن والثورة، الفن والتطور التكنولوجي، وتأثير التراث على الفن الكردي الحديث. وشارك في اللقاء الباحث الأنثروبولوجي الرفيق هشام داود. وتولى تفريغ وترجمة الندوة الرفيق بهات حسيب قره داغي.

١ ـ الفن والثورة

عمر علي أمين (مسرحي): كان الفن الكردي مسايراً للثورة . بدأنا من المدارس بتقديم أشكال من الفن وخاصة المسرحيات منذ الخمسينات، ولكن بشكل عشوائي. والمهم هو أننا كنّا نقدم قضايا الشعب السياسية والاجتماعية، وكنا نستفيد من نصوص شعبية ومواد مترجمة ومعدة من نصوص عالمية وفي السبعينات وخاصة بعد بيان آذار ١٩٩٠ كانت مرحلة جديدة في تأريخ الفن والتزاماً جديداً. بدأنا بتنظيم أعمالنا وفرقنا أكثر فأكثر. والطابع المدرسي بدأ بالزوال، وبدأ الطابع الفني المنظم في حياتنا المسرحية.

وفي السنين السابقة وهيمنة الحكم الفاشي كان المسرح، والفن عامة، في حالة رفض دائم. وأنا أعتبر أعمالنا ثورية بمفهوم معين وفي إطار معين. وكان الفن، شغله الأساسي هو الحفاظ على القيم

القومية الأصيلة بالضد من متطلبات السلطة لتشويه التراث والثقافة الكردية.

ومنذ الانتفاضة، دخلنا إلى حيز جديد من التأريخ ولكن لحد الآن لاأستطيع القول بأن الفن المسرحي استطاع مسايرة التغيرات. لم يقدم شيئاً جديداً يناسب الوضع الجديد. وبصراحة، هناك ارتباك في الوضع العام وفي الوضع الفني وكل ذلك يعود إلى عدم وجود الاستقرار، ولكن كل مايقدم هو أعمال في خدمة الثورة وقضية الشعب.

عهدول حه مه جوان (مسرحي): أؤيد الأستاذ عمر على ماقاله عن العمل المسرحي في السابق. بأنه لم يكن مبرمجاً، رغم ذلك فإن الفنانين كانوا طليعيين وأن القضية الأساسية التي كانت تنعكس في عملهم الفني كانت القضية القومية ومحاولة إصلاح أوضاع المجتمع.فكانت أعمالاً ايجابية. ومنذ ١٩٦٩ - ١٩٧٠ بدأت المرحلة المبرمجة في المسرح الكردي من خلال تشكيل الفرق المسرحية منها (فرقة أخوان گزيزة) و(فرقة السليمانية للمسرح) و(جمعية الفنون الجميلة الكردية)... إلخ، ولكل فرقة برنامج ونظام عمل معين ولكن الهدف واحد هو خدمة قضية شعبهم. إذن الفنان الكردي لم ينعزل عن الأوضاع السياسية. وأنني أفتخر بأن الفن المسرحي في كردستان بقي جاداً رغم كل التغييرات السيئة التي أصابت المسرح في العراق وتحوله إلى مسرح تجاري مبتذل في ظل النظام الفاشي.

وأكثر من ذلك، فإن المسرح في كردستان كان يقدم أفكاراً ومسائل طليعية لخدمة الثورة والقضية الوطنية. مثلاً مسرحية (گولاله) كانت دعوة مباشرة للأحزاب الكردية المعارضة لإقامة جبهة بينها وإنهاء حرب اقتتال الإخوة.

بالاختصار، أنا أرى المسرح في السنوات السابقة سباقاً وطليعياً في طرح قضايا قومية ووطنية وجريئة. ولكن للأسف، الآن أراها دون ذلك المستوى، ولاأدري هل السبب هو أن الأحداث تجري بسرعة فلايلحق بها الفن أم أن الفنانين مقصرون، أو أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية غير المستقرة لاتعطي المجال الكافي للفنان للقيام بأعمال جادة.

طاهر عبد الله ره ش (مسرحي): في البدء أسأل: ماهو واجب الفن والفنانين في الوضع الراهن، نعلم بأن الفن الأكثر ثورية في مرحلة الاقطاع هو الفن الذي كان مؤيداً للبرجوازية باعتبارها القوة الثورية والمدمرة للاقطاع.

وعندنا كذلك في السنوات السابقة كنا نقدم أعمالاً جيدة وجميلة، لماذا؟ لأننا كنا أصحاب قضية، والذي يملك قضية عادلة يقدم أعمالاً جيدة.

والآن، وأنتم أشرتم إلى أنه لاتوجد أعمال جيدة، وأرى أننا في الوقت الحاضر، نحتاج إلى أعمال انتقادية، أي أن ثورية الفن في هذه المرحلة ليس فقط في تمجيد الانتفاضة بل في انتقادها وانتقاد نواقصها والآثار السلبية الناجمة عنها، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وأتوجه إلى العالم بالانتقاد، لأننا عرفناه جيداً.

پروا (تشكيلي): الفن بحد ذاته ثورة انسانية. فمنذ المشاعية البدائية والعيش في الكهوف والصراع ضد الطبيعة كان الفن أحد أبرز أشكال الوعي الانساني ومقاومته للطبيعة، أو أنه من خلال رسم وتقليد أشكال وأصوات وحركات الحيوانات والكوارث الطبيعية، كان يعلّم نفسه والأجيال التالية شكل وصوت وحركة الحيوانات المؤذية أو التي يمكن صيدها. فمن هذه الحاجة الحياتية بدأت أولى اشراقات الفن، إلى أن أخذت طابعاً منظماً يتجدد دوماً.

ملخص الكلام هو أنني أعتبر الفن أحد أشكال الثورة بجانب الثورات السياسية والطبقية. وهو مرتبط ديالكتيكياً مع الأشكال الأخرى للثورة، لأن الثورة تعبر عن ثلاثية الرفض والتدمير والبناء. والفن بتصوري مكون من هذه الثلاثية. فهو كذلك كان رافضاً لمجوعة قيم لم يعد قابلاً للعيش معها أو بها، وكان مدمراً لتلك القيم، وبانياً لقيم جديدة.

في ظل السلطة الفاشية كنا نملك فناً رافضاً ومدمراً لكثير من القيم والأسس السائدة، وكذلك لكثير من القيم والعلاقات الفنية داخل الفن ذاته. فالأمثلة كثيرة لواقع هذا التدمير. اذ كنا متعودين على بعض المواضيع المطروحة في اللوحة التشكيلية والغناء والمسرح. ولكن الفنانين يئسوا من هذه المواضيع والأساليب المستخدمة لطرحها. فبدأت عملية الثورة، رافضةً، ثم مدمرةً.

ولكن مع الأسف لم أر إلاّ القليل القليل من البناء، أو طرح البديل. إن الفن مثل السياسة. فقد دمرت، ولكن لم تحضر بديلاً، ولم تنجز بناء جديداً.

مثلاً، الأستاذ اسماعيل خياط كان أكبر الفنانين الأكراد رفضاً وتدميراً، ولكن ثورته وقفت عند هذا الحد ولم يقدم المستقبل، ولم يعط بديلاً. ببساطة نستطيع لمس ماأقوله في شكل لوحات فهي أشكال ومفردات مبعثرة ومحطمة. ولم أر أية لوحة أعيد فيها تركيب هذه المفردات بشكل جديد أو علاقة جديدة صحيحة.

أما عند الفنانين الموسيقيين، فالوضع مختلف قليلاً، إذ أنهم بنوا شيئاً بعد تدميرهم للمفردات السائدة والقديمة، وقد أعادوا تركيب القيم الموسيقية من خلال دمج التراث والفلكلور الكردي مع الايقاعات العصرية للموسيقى.

دلشاد (مسرحي): الفن الكردي كان ولايزال ثورياً ومواكباً وطليعياً في كثير من المرات للثورة السياسية. ومع ذلك أقولها باختصار، لم يستطع أي حزب من الأحزاب لجمه لمصلحة موقفه الخاص. حتى الحزب العفلقي لم يستطع ذلك رغم فاشيته وديكتاتوريته استخدام الفن والفنانين الكرد في بوتقته بينما كنا نرى مع الأسف العديد من الفنانين العرب قد أصبحوا بوقاً للديكتاتورية، أما الفن والفنان الكردي فبقيا على موقف الرفض.

والآن، لأن الوضع عموماً والاقتصادي منه خاصةً وضع سيء فإن الفن يحتاج إلى شيء من الاستقرار وتلبية الحاجة الاقتصادية.الفن والفنان الكردي باقيان على موقفه الثوري الحر. ولكنه مصاب بالركود وهو انعكاس للوضع بشكل عام، وإنني أرى بأن التحسين في الأوضاع السياسية

والاقتصادية سوف يؤثر ايجاباً على الفن.

ظاهر عبد الله (مسرحي): إن سمحتم بمداخلة قصيرة من خلال مثال، في يوم ما رأى لينين شخصاً يقرأ (مايكوفسكي) ويعتبره شاعراً ثورياً عظيماً فنصحه لينين أن يقرأ (بوشكين) لأنه في زمنه، سبق التاريخ وقدم انتقاداً للواقع ورؤية للثورة، أما مايكوفسكي فعاش الثورة وكتب عنها. وشتان بينهما. لذا فإن ثورية الفن في الوضع الراهن هي مايقدمه عن المستقبل وانتقاداته للحاضر.

گزيزة عمر علي (مسرحية): الفنان الكردي في السنوات السابقة، كان متمسكاً بثوريته. ولكنه وبسبب الرقابة المشددة للسلطة، كان يتجه إلى استخدام الرموز، ويلجأ إلى نصوص عالمية، يثير من خلالها روح الثورة عند المشاهد (مثلاً عدو الشعب» لأبسن، دائرة الطباشير القوقازية لبرخت ونصوص أخرى ثورية...).

الاعتماد على النصوص العالمية حصل لأن النصوص المحلية كانت تفرضها السلطة. فمن المعلوم أن المسرح الكردي بشكل عام، مع بعض الاستثناءات الرديئة، لم يقدم شيئاً للسلطة طوال حربها مع الجارة إيران.

فالفن والفنان الكردي الحقيقي حافظ على القيم الثورية الأصلية وسيبقى حراً بعيداً عن التبعية الحزبية.

اسماعيل خياط (فنان تشكيلي): ملاحظة حول ماقاله الأخ دلشاد والسيدة گزيزة، فإن عد. تبعية الفن والفنان للأحزاب، من وجهة أخرى، يعود إلى حسن معاملة وتصرف الأحزاب مع الفن أي أنهم لم يطلبوا من الفنانين التبعية، وهم مع نضالهم للتحرر الوطني، ناضلوا كذلك من أجل حرية الفن والفنانين، فمهّدوا الأرضية لتحرير الفن والفنانين.

أنور قره داغي (موسيقي): منذ القديم، الفنان الكردي عبر عن المرحلة المعاشة،عن الحس القومي. إني أرى المرحلة الأولى للفن الكردي من العشرينات إلى ١٩٥٨ مجسمةً في عمل المثقفين إن الحركة الغنائية الشعبية كانت مستمرة دون وضعها في إطار شعور قومي أو كقضية، أما ماقا. به المثقفون، فهو عمل من خلال شعور وبرنامج من أجل قضية.

فمثلاً، عمل الشعراء (زيور، پي كه س) على نظم الشعر القومي والأناشيد الوطنية، وتلحينها وتعليم التلاميذ على ترديدها في صفوف المدارس، فكانوا يغرسون روح القومية والوطنية في نفوسهم، وكانت هذه الأناشيد والأغنيات تنتشر بين الناس. ولم تمارس هذه العملية بشكلها العلمي أو تكتب كنوتات موسيقية، وإنما عن طريق الحفظ والترديد. حكى لي الأستاذ (حمزة عبد الله) عن نشيد (ئه ي ره رقيب ـ أيها الرقيب) كيف لحنه أحد الهواة ودربوا التلاميذ عليه. كان عملهم يجري بالسليقة الفنية...

أما في الأربعينات، فبدأ شكل جديد من الاهتمام بالموسيقى فبعض المثقفين كانوا يأتون بآلات موسيقية هوائية إلى المدارس ويدربون الأطفال عليها ويعلمونهم على الغناء وأداء تلك الأناشيد

السائدة في وقتها. وكان لوجود فرقة (مولوي) الموسيقية في تلك الفترة تأثير كبير على الفن الكردي في كردستان العراق وعلى الحس القومي لدى المواطن الكردي.

الثورة المباركة في ١٩٥٨ كانت الانفتاح الكبير للشعب العراقي عموماً، والكردي خصوصاً، على الكثير من الانجازات والحقوق. وكان الكردي متفائلاً بامكانية أن يحصل على بعض حقوقه القومية في ظل الثورة. كذلك الفن والفنانون استجابوا للثورة وانطلقوا للعمل الايجابي والأكثر تقدماً. فتوسع نطاق فرقة مولوي، عدداً ونتاجاً، وكذلك بروز أعمال شه مال صائب وقادر ديلان.

ولكن الأوضاع بدأت بالتدهور إلى سنة ١٩٦٣، وضاع الكثير مما أنجزه،حتى جمعية الفنون الجميلة منعت من العمل وأغلقت أبوابها. ولكن الفنان الكردي لم يستسلم لليأس وبقي صامداً يدافع عن تراب شعبه وفنه القومي، إلى أن تأسست فرقة السليمانية للموسيقى فبي ١٩٦٤ - ١٩٦٥. وإني أتذكر زيارة للأستاذ حقي الشبلي للسليمانية وسماعه للفرقة المذكورة، وتثمينه للعمل قائلاً أن: من الجميل جداً أن ينتج عمل كهذا ويحافظ على الحس القومي من خلال مجموعة شابة من الفنانين بامكانيات ضعيفة ودون إرشاد ومعلم للفن الموسيقي.

إنني أعتبر كل هذا، هذا التاريخ، وهذا العمل المتواصل وهكذا اعتراف بوجود فنان كردي وفن كردي هو اثبات حقيقي لثورية الفن بحد ذاته.

ومنذ بيان آذار ١٩٧٠، بدأت الخطوط العريضة في نهج الفنانين تتوضح، ولكن المهم هو أن الحس الأساسي السائد بيننا هو كيفية خدمة الفن القومي، سواء عن طريق الأغنية السياسية أو الفلكلورية، أو عن طريق إيجاد سبل حديثة للفن، وكنا ننطلق من مبدأ البناء على حجر الأساس الذي وضعه لنا الجيل الذي سبقنا، لنكون بدورنا أساساً للأجيال القادمة. وبعد نكسة عام ١٩٧٥ أصيب الانسان الكردي بجرح عميق وكان دور الفن هو أن يداوي ذلك الجرح، وفعلاً هناك دلائل عديدة على أداء الفن الكردي، من قبل عدة فرق موسيقية، لتلك المهمة على أحسن وجه. على الأقل استطعنا الحفاظ على الموسيقى الكردية والأغنية الكردية ظاهرة وبعيدة عن تشويهات السلطة الشوفينية. وبذلك استمر تطوير التراث الموسيقي الكردي حتى تحت نيرها وهذه بحد ذاتها ظاهرة ثورية.

وخلال الثمانينات في زمن القادسية المهزومة أرادت السلطة أن تستغل كل الطاقات الفنية لخدمة الحرب. فاضطر الفنان الكردي الشريف إلى الإختفاء عن الأنظار محاولاً أن يقدم بعض نتاجاته الفنية بصورة شخصية وفي غفلة من عيون السلطة. استمرت هذه الحالة إلى يوم الإنتفاضة. ففي كل الأزمنة والظروف كان الفن الكردي تعبيراً عن مشاعرنا القومية أي كان وسيلة هذا التعبير. ووصل بنا الأمر في بعض الأحيان إلى التعبير عن هذا الحس القومي عن طريق التعليم وتربية عدد من الأطفال والصغار، أو التعبير الرمزي عما كان يدور في ذهن ووجدان المواطن الكردي المقهور المتعطش لكل نغمة أو كلمة أو حركة رمزية، وكنا كثيراً مانواجه صعوبات في المراوغة مع عيون

السلطة.

ولابد أن أقول للتأريخ بأن الخلافات (حتى الشخصية) مابين الفنانين لم تتطور في ظل السلطة إلى حد القطيعة، وكان يجمعنا جامع واحد برغم كل شيء وهو الوقوف بشرف أمام كل إغراء. وفي الأيام الأولى من الإنتفاضة تفجرت طاقات عديدة للفنانين (الموسيقيين خصوصاً) فالكل كان ينشد للپيشمرگه وللوطن والحرية. فتوحدنا مرة أخرى في ظل الحرية برغم وجود خلافات مابيننا، تلك الخلافات التي لم نسمح لها أن تحرف وجهة مسيرتنا الفنية، وهذا المبدأ هو أساسي بالنسبة للفنانين الحقيقيين حتى الآن.

في النتيجة أريد أن أقول: أن الفن والفنانين الكرد، لم يتخلوا في يوم من الأيام عن قضية شعبهم الكردي... ولم يبرز من بيننا (على الأقل هنا في السليمانية) أي فنان يتجاهل التقاليد الثورية والأخلاقية للفنان الكردي المقاوم والرافض للتعاون مع السلطة.

پروا: لدي ملاحظة على ماذكره الأستاذ أنور الذي ذكرني بما قاله بليخانوف عن الفن.. حيث قال مامعناه: حينما تغلق أبواب النضال السياسي بوجهكم، ناضلوا عبر الفن.. عبر سلاح الثقافة.

أنا أتفق مع الأستاذ أنور في حديثه وسرده الرائع لمسيرة الفن الكردي الأصيل وحديثه عن معاناة الفنان الكردي المقاوم تحت كل ارهاب وإغراء السلطة، بحيث تمكن من صيانة سمعة ونزاهة الفن والفنان الكردي طوال تلك السنوات. ولكن هناك حقيقة واقعة وهي أن النظام حاول، وبمنهجية مدروسة، لجم الفن والفنان الكردي وكانت هناك مقاومة لذلك التوجه، ومع ذلك استطاع النظام الفاشي أن يدس في الوسط الفني والثقافي عموماً بعضاً من مرتزقته ومن طفيليي الفن. وكان أكثر أولئك من المسيطرين على قنوات الاعلام الجماهيري. والسؤال هنا عن موقف الفنانين المخلصين إزاء بقاء وهيمنة البعض من أولئك الطفيليين على بعض القنوات الاعلامية إلى يومنا هذا في كردستان المحررة. فمن المعلوم أن هناك طفيليين في السياسة والاقتصاد وأخيراً في الثقافة وتفرعاتها كالتلفزيون الكردستاني بقنواته المختلفة. إننا نصطدم كمشاهدين ليلياً بمواد غنائية على شاشة التلفزيونات هي نفس المواد التي كنا نطفيء التلفزيون عند عرضها في عهد سلطة العفالقة.

فما رأي الفنان الأصيل إزاء وضع كهذا؟!

خالد سركار (موسيقي): في البدء أريد أن أقول أن الفنان الحقيقي لم ينعزل عن الشعب ونضاله في أي يوم من الأيام وكان ولايزال واحداً من الپيشمرگه يقاتل بفنه قريباً جداً من وجدان وأحلام أبناء شعبه بحيث يمكنني أن أقول أن الفنان الحقيقي كان دوماً أقرب إلى الناس من سياسييه. جيلنا مكمل لمسيرة جيل الأناشيد الثورية والقومية التحررية، أنا لست متشائماً من الوضع الراهن برغم كل النواقص، فمعلوم أن تركة الدمار الشوفيني في كردستان ثقيلة ونحتاج إلى وقت طويل لتصفيتها والتخلص منها. برأيي أن ثورة فنية في الوضع الراهن يجب أن تنطلق من ذات الفنان الحقيقي.

صحيح ماذكرتموه حول وجود بعض الطفيليين، يظهرون هنا وهناك. ولكن في المقابل هناك العديد العديد من الأصوات والطاقات الأصلية والنظيفة والمبدعة، لاتزال تمسك بدفة الأمور. وهذا مبعث أفتخار الشعب. إن الطفيليين ليسوا بفنانين، بل إنتهازيون نفعيون يعملون بدافع مصالحهم الأنانية، والتأريخ ليس في صالحهم، وإنما في صالح الفن والفنان الحقيقي والمخلص لقضية شعبه.

كان هناك توجهان للفنانين الموسيقيين الأول توجه الذين خدموا أغراض وأعلام السلطة مباشرة، والتوجه الثاني كان للفنانين الحقيقيين، سواء داخل المدن أو في الجبال، منهم الذين كرسوا طاقاتهم في سبيل خدمة قضية الشعب وتراثه وفولكلوره. وكان هؤلاء في خندق واحد مع إخوتهم البيشمركة. ويجدر بالذكر أن الفنان الذي كان داخل المدن، كان عليه ضغط وعبء أكبر من غيره، كان يواجه السلطة مباشرة ويراوغها في حين كان الفنان في الجبل يعبر بحرية عن دواخله متحرراً من رقابة السلطة. وبذلك، كان الفن الثوري والمقاوم ·يكتمل بين المدينة والجبل.

عبدول: مسألة بروز الطفيليين في أي مجال فني هي مسألة طبيعية خصوصاً في بداية كل مرحلة جديدة من تأريخ شعب ما. فعلى سبيل المثال نذكر جميعنا بروز مجموعة من الطفيليين والمرتزقة في المسرح والغناء وحتى الفن التشكيلي في بداية السبعينات، وقد تركوا لحالهم دون التصدي لهم، فسرعان ماشدوا الرحال وتركوا الساحة دون أن تكون لهم آثار سلبية على مسيرة الفن الأصيل. إذن أنا متفائل ولست متشائماً من وجود عناصر طفيلية هنا وهناك، فهي لابد أن تترك الساحة إن آجلاً أو عاجلاً.

عمر (مسرحي): أنا أعتقد بأن مسألة الطفيليين والطفيلية مرتبطة مثل كل شيء بذاتية الفنان أي بشخصيته. أذكر لكم مثالاً صغيراً، في عام ١٩٧٧ كنا مجموعة من الممثلين (كان معي الفنان عبدول حه مه جوان وطه خليل وآخرون) ذهبنا إلى تلفزيون كركوك لتصوير تمثيلية عن محو الأمية، وأثناء اعداد الستوديو وفي زخمة التحضيرات وقبل البدء بالتصوير أراد المخرج أن يستغل المناسبة فوضع لوحة كتب عليها (شعار عفلقي) بين بقية قطع الديكور، فكان رد فعلنا هو الإحتجاج بشدة على ذلك التصرف إلى حد المشاحنة الكلامية مع كل المسؤولين هناك. ثم خرجنا وعدنا إلى السليمانية رافضين الرضوخ والتنازل. هذا الموقف كان نابعاً من ذواتنا، ولم يكن توجيهاً من أي حزب أو إتحاد للفنانين، من هنا أؤكد على أن شخصية الفنان هي الأساس في هذه الأمور في نفس الوقت كان هناك مطربون محسوبون على الفن الكردي يقدمون الرشاوى لمسؤولي التلفزيون مقابل تسجيلهم الأغنيات الساقطة.

اسماعيل: الفنان على صلة دائمة مع البشرية ،مع بقية الفنانين في العالم وهو يحاول دائماً أن يعبر عن هذا الاتصال وهذه المحبة بأدواته الفنية وطاقاته المخزونة في سبيل تحقيق السعادة ونيل أكبر قدر ممكن من الحرية لنفسه ولشعبه (سراً أو علانية)، ولم يشذ الفنان الكردي الأصيل والحقيقي عن هذه القاعدة، فقد كان على إتصال دائم مع قضية شعبه ومنذ الأربعينات حيث بدايات مسيرة

الفن التشكيلي الكردي كانت تعبر عن آمال الشعب في التحرر ولو بأساليب بسيطة من حيث المستوى الفنّي. إذن فالثورة والفن الحقيقي لم ينفصلا يوماً عن بعض. والآن وبعد انتفاضة الشعب يلعب الفن التشكيلي الكردي دوراً هاماً في تصوير تأريخ شعبنا ونضالاته، وهناك تطور جيد ملحوظ في اطار كسر الحواجز والأساليب القديمة والتوجه إلى الأساليب الحديثة والتعامل معها.. فأنا متفائل من هذه الناحية، الفن الكردي اليوم أكثر تطوراً من الأمس، وغداً سيكون أفضل من اليوم.

آري بابان (تشكيلي): في محور الحديث عن الفن والثورة قيل الكثير عن دور المسرح والموسيقى، تحدث الأخ إسماعيل عن الفن التشكيلي.. أريد هنا أن أؤكد ماذهب إليه زملائي من أن الفنان الكردي (أياً كان مجال ابداعه) كان على الدوام (فنان قضية) أي كان من البيشمركه يقاتل لا بالسلاح بل بالفكر والجمال. أما عن مسألة الفنان والطفيلية فأنا مع رأي زملائي بأن الزمن والخلود ليسا في صالح الطفيلية والطفيليين، والفنان الأصيل لايتعجل الأمور فهو بحاجة إلى وقت كاف لتبلور أفكاره وتصوراته. أما الطفيلي فيتسرع وبذلك يصبح سطحياً. فيفقد صفة الفنان ويزول.

غمگين فرج (موسيقي): أنا لاأتحدث كموسيقي بل كفنان بصفة عامة عن موضوعة الفن والثورة، تحدث زملائي كثيراً ،ولايسعني إلا أن أقول أني معهم مبدئياً وهذا لايمنعني من أن أقول أن هناك مفاهيم تؤول خطأً أو هناك قصور في استيعابها. فمثلاً، الثورة في الفن، أو الفن الثوري، لايعني أن على الفنان (التشكيلي مثلاً) أن يرسم لوحة تعبر عن حالة ثورية بالمعنى العسكري أو السياسي. بل عندي أن الثورة في الفن تعني (ولاتعني غير هذا) أن يلتزم الفنان بوعي بالأصول العلمية لمجال عملة الابداعي والعمل على تطويرها باستمرار. فنحن في هذه المرحلة بأمس الحاجة إلى مجموعة من الاختراقات لأشكال قديمة راهنة.فإذا لم نفعل ذلك فإننا نعترف بعجزنا عن فهم وإستيعاب مفهومي النهضة والثورة في الفن. قال (كونفوشيوس) مامعناه لو أردت أن تعرف شعباً فاعرفه من خلال فنه. إذن نحن في بحاجة إلى تطوير فننا بحيث يكون صورة مشرقة لشعبنا الكردي.

فرنسيس داود (موسيقي): الفن بحد ذاته معاناة، فمن لامعاناة له لايصبح فناناً، ولن يقدم فناً جيداً ونحن اليوم أمام ظاهرة تدفق وبروز وجوه وأصوات غريبة عن الفن على المستوى الابداعي خصوصاً، ان يكون الشخص وطنياً أو يعبر عن مضمون وطني لايعني بالضرورة أنه يقدم فناً جيداً أو حتى مقبولاً من زاوية فنية. المادة التي يقدمها ينبغي أن تراعى ضوابط فنية علمية. كثير هم الناس الذين لم يقبلوا في فرق فنية في حينه، واليوم يستغلون أجواء الحرية وعدم وجود أي نوع من الرقابة في أجهزة الاعلام في كردستان. ولذلك نرى الكثير من المواد المشوهة للذوق العام تقدم بل ربما هي السائدة. هناك أشخاص بدأوا التدريب على الموسيقى منذ شهر واحد وفجأة تراه من على

الشاشة وهو يغني أو يعزف قطعة كلها نشاز. كذلك الحال بالنسبة للمسرح، لاأداء ولاشروط فنية أولية متوفرة في أعمال أناس غرباء عن الفن.

مع الأسف أن هيمنة أناس من هذه الطينة على مساحات واسعة وقنوات عديدة، فنية اعلامية، أصابت الفنان الأصيل بنوع من الخيبة والتوقع، فهو ينسحب ولايريد أن يختلط صوته بهذا الضجيج وإن كان يقدم (عندما يريد) مواد رصينة جيدة. إذن فالسؤال هنا هو كيف السبيل للتخلص من هذه الشوائب،وهذه مسؤولية قنوات التلفزيون والمنظمات والفرق. ولايمكن السكوت عن عدم وجود أية ضوابط فنية.

أخيراً أقول أن الفنان يجب أن لايكون قنوعاً، فالفن هو عدم إقتناع مستمر وتمرد وثورة دائمة، فلادوام للفن والإبداع مع وجود أو بروز حالة القناعة لدى الفنان.

دلشاد أحمد (مسرحي): لابد للفرق والجمعيات الفنية من التركيز على أهمية تشكيل لجان رقابة فنية للتشديد على الجانب الفني دون الفكري (حيث أن الفنان حر في طريقة تفكيره) وبتصوري أن عملية كهذه تنقذ الوضع الراهن من تدني المستويات الفنية وتفسح المجال أمام الطاقات الابداعية التي انسحبت بعيداً عن الأضواء.

أنور قره داغي (موسيقي): للشروع في تحقيق مايراه الزميل فرنسيس والزميل دلشاد حول وضع رقابة وضوابط فنية، لابد لنا من برنامج عمل قومي في المجال الفني، إذ كيف لنا أن نحدد ضوابط فنية إذا لم يكن لدينا برنامج عمل مستقبلي. فمن الذي يقرر صلاحية وجودة مادة فنية ما من عدم صلاحيتها ؟ هل نحن متفقون حول ميزات وسمات الفن القومي الأصيل مسبقاً؟

هشام داود (باحث): من خلال سماعي لمجريات الحديث تشكلت لدي صورة عن رؤية الفنان الكردي. وأنا لاأدخل في تفاصيل بل بشكل عام، يرى الفنان الكردي أن هناك ترابطاً جدياً بين الثورة والفن. وإنني لأعتقد بصحة ماقيل عن الاستقلالية والنسبية لأشكال التعبير الفني. إن الوضع المعقد في كردستان قد يدفع بالفن إلى التلاصق مع السياسة وهذا ليس جديداً، كثير من الشعراء الفرنسيين تحولوا إلى شعراء مقاتلين. وفنانو اسبانيا أصبحوا خلال احتلال نابليون ثوريين. فتصوري الاستمرار في الابداع والانتاج الجيد هو السمة الأساسية لثورية الفن والفنان. أما عن مسألة الطفيليين في الفن فهذه ليست خاصة بالفن الكردي فهناك الكثير من الطفيليين المحسوبين على الفن في العراق، والعالم العربي وفي فرنسا وبريطانيا، ودائماً هناك فن مبتذل وفن حقيقي. وكخاتمة أستعير من (الجاحظ) قوله «إن الخط الجميل يزيد الحق وضوحاً» فالجمال والأصالة في الفن يمنحان الحياة جمالية أعلى وهذه هي جوهر الثورية في الفن. فإذا كان الفعل الثوري، بمعناه المباشر السياسي، يعني عملية قطع في المؤسسات التشريعية فإن الفعل الثوري في الفن هو التجديد التقني.

* * *

٢ ـ الفن والتطور التكنولوجي

بروا: نريد الدخول في المحور الثاني فنتحدث عن فعل التطور التكنولوجي في المجال الفني. فيما يخص المجتمع الكردي لتطور التكنولوجيا الأثر الفعال عليه سواءاً عن طريق التأثير المباشر التقني أو عن طريق إنتشار القيم التي تتغلغل مع التكنولوجيا. والآن نريد أن نتحدث عن مدى تأثر الفن بمختلف مجالاته عندنا بالتكنولوجيا وتجليات ذلك وأرجو من الزملاء والأخوة التركيز في أحاديثهم حول جوهر الموضوع وشكراً.

عمر: بشكل عام لم ينتفع الفن الكردي وخصوصاً المسرح من الوسائل التكنولوجية الحديثة، فمثلاً ليس لدينا لحد الآن أجهزة إنارة حديثة دقيقة وذات كفاءة ولاحتى أجهزة صوتية كلاقطات حساسة أو مؤثرات صوتية بل حتى يمكنني أن أقول أن هندسة بناء المسارح عندنا ليست في المستوى المطلوب.

عبدول: لم يكن لدخول القيم البرجوازية الذي ترافق مع دخول التكنولوجيا إلى بلد كبلدنا أية آثار سلبية على مسيرة الفن الكردي فنحن وعلى ماأذكر لم نتأثر بالقيم والأفكار البرجوازية ولم نجعل من مسارحنا منابر لنشر تلك القيم. بل على العكس من ذلك كان المسرح الكردي المتواضع منبراً للأفكار التقدمية الأساسية ،والقيم التي تتسم بالشعور القومي التقدمي.

خالد سه ركار: في مجال الموسيقى والآلات الموسيقية هناك تطور ملحوظ ولكن في تصوري ليس المهم مدى تطور الآلة الموسيقية من الناحية التقنية بل المهم هو الفنان الذي يتعامل مع تلك الالة. وعند ذاك يظهر الأثر الحقيقي للتطور التكنولوجي.

غمگين فرج: التكنولوجيا سلاح ذو حدين له مضار بقدر ماله من منافع. نادراً مانجد مجالاً حياتياً إلاّ والتكنولوجيا داخلة فيه، في مجال الموسيقى نرى نفس الحالة. فمنافع التكنولوجيا في هذا المجال معروفة لذلك أشير إلى مظاهرها، ويمكنني أن ألخص فأقول أن التطور التكنولوجي في مجال صنع الآلات الموسيقية وتقنية التسجيل الموسيقي تسبب غياب وإلغاء العمل الجماعي وترسيخ أسلوب العمل والأداء الفردي. توجد أجهزة موسيقية متطورة جداً بحيث تعوض عن مجموعة مختلفة من الآلات ولذلك نرى عازفاً واحداً يدخل إلى الاستوديو مع هذا الجهاز دون أن يساعدهم معه أفراد آخرون فيسجل مادة موسيقية فردية لاأثر للعمل الجماعي وحيويته فيها. كذلك بالنسبة لأساليب التسجيلات الصوتية. فالكثير من المؤلفين أو الموزعين يمارسون أسلوب التسجيل الفردي، فاليوم يسجل عازف الكمان مقطوعته، وغداً عازف آلة أخرى وهكذا وأخيراً يسجل المطرب أغنيته وفي الأخير تكون الأغنية والمادة الموسيقية جاهزة ومطروحة في السوق دون أن يتمكن العازفون وحتى المطرب من التعارف، وحتى دون رؤية بعضهم البعض. وهذا عنصر ضار إذ أنه يجرد العمل الفني من الروح الجماعية وبالتالي يكرس القيم الفردية وروح الإنعزال.

إسماعيل: بصورة عامة يمكنني أن أقول أن الفن التشكيلي الكردي لم يصبح في موقع يمكنه من الإنتفاع والإستغلال الأمثل للتطور التكنولوجي وذلك للتخلف الحضاري الذي يهيمن على العراق، وخصوصاً في كردستان التي كانت في ظل أوضاع إستثنائية. فالفنان الكردي نادراً ماكان في وسعه التجول في البلدان المتطورة ورؤية ذلك التطور عن قرب والتعامل مع الأجهزة والوسائل التقنية وماتوفره التكنولوجيا بحرية. على سبيل المثال لايوجد في العراق حسب علمي سوى جهاز واحد للطبع على الحجر وتعطل ذلك الجهاز ولايزال عاطلاً مهملاً في معهد الفنون الجميلة في بغداد. ونادراً ماتجد جهاز طبع الكرافيك عند عدد قليل جداً من الفنانين. لاتوجد أنواع جيدة من الورق ولاتتوفر أصباغ وألوان ذات كفاءة عالية، وحتى الخشب لصنع إطارات للوحات وإلى آخره. وكما قال الأستاذ عمر لاتتوفر لنا حتى قاعات وبنايات لعرض الأعمال الفنية والإحتفاظ بها، ومع ذلك فإني أرى أن هناك جهوداً مخلصة بإتجاه استثمار التطور التكنولوجي والإفادة منه.

أما مايقال عن تدخل التكنولوجيا السافر للتعويض عن القصور الإبداعي لدى الفنان فأنا أقول أن قسطاً كبيراً من هذه الأقاويل مغرض. والغرض منها الحط من قيمة المدارس الفنية الحديثة. فإذا كانت التكنولوجيا هي الأداة والسبيل لكسر الطوق والرتابة والجمود في الحياة فلابد أن تدخل إلى المجال الفني أيضاً لكسر القوالب التقليدية وإيجاد الأساليب والطرق الحديثة للتعبير.

آري بابان: في تصوري أن الفن التشكيلي الكردي لم يتأثر، كمضمون وكمدارس فنية بالتكنولوجيا مباشرة على غرار ماحدث للفن التشكيلي والفن عموماً في الغرب الصناعي، فهناك أدى التطور التكنولوجي إلى تطور مماثل في الفنون. فظهرت مدارس فنية كالتكعيبية والمستقبلية وغيرها، أما عندنا فوصلنا التأثير من خلال تلك المدارس الفنية (وليدة الحياة التكنولوجية) وليس من خلال التطور التكنولوجي للحياة مباشرة.

گزيزة عمر علي: أريد أن أعقب على ملاحظة الأستاذ خالد حول أهمية وأولوية الفنان الذي يتعامل مع التكنولوجيا بمثال من مهرجان بغداد المسرحي قبل سنوات حيث قدمت فرقة مسرحية كويتية عملها وهي مجهزة بأحدث الأجهزة والمعدات التكنولوجية الخاصة بالمسرح. ولاأخفي عليكم أننا كنّا جميعاً مبهورين بتلك التجهيزات. وكنا نحسدها عليها. ولكن عندما بدأت الفرقة بتقديم عرضها خابت آمالنا وترك الكثير من الجمهور مقاعد الصالة قبل إنتهاء العرض، وذلك بسبب خلو المادة والأداء من أية مضامين فنية إبداعية.

وجه آخر للمشكلة هو بعد كتابنا المسرحيين عن التكنولوجيا وتطورها وتأثيراتها. فهم لحد الآن يكتبون نصوصاً تعالج قضايا ومشاكل تخص العلاقات الاجتماعية العشائرية والاقطاعية. أي أنها (النصوص) باتت مستهلكة والجمهور لم يعد تستهويه متابعة هكذا نصوص.

بتصوري أن حجم احتياجاتنا إلى تطور تكنلجة وتقنين المسرح يساوي حجم احتياجنا إلى تطور الفكر وتحديث الكتابة للمسرح. أقلها سوف يكون لدينا مسرح يتذوقه الجمهور ولايمله.

ظاهر: إن أهم شيء عندي في هذا المحور، هو العلاقة بين التكنولوجيا والفنان، وخصوصاً هل هي علاقةمتبادلة، أم علاقة غير متكافئة؟ هل الفنان يوظف التكنولوجيا في خدمة فنه أم أنه يستسلم لمصادفات الإستخدام التكنولوجي في المسرح؟! بإعتقادي، الفنان الذي يستخدم خياله أكثر ويوظف التكنولوجيا لتسهيل عملية توصيل هذا الخيال، هو الفنان المتمكن. ولكن إذا ترك للتكنولوجيا أن تلعب الدور البارز دون تخطيط مسبق أو خيال مدروس، أي أن تلعب المصادفة دورها في خلق أجواء، وتكوينات جمالية فهذا هو بالضبط الإستسلام الأعمى للتكنولوجيا وتبعية الخيال الجمالي الفني للصدفة التكنولوجية. وأنا أعتبر هذه حالة سلبية بعيدة عن الفن.

أنور: يلعب التطور التكنولوجي دوراً هاماً جداً في كل نواحي الحياة المعاصرة، والفنية منها خصوصاً، وبالتالي فبالامكان القول أن الموسيقى لها حصة الأسد في مجال الإستفادة من التطور التكنولوجي من حيث صناعة الآلة الموسيقية وعمليات التسجيل الصوتي والبث والإلتقاط أو الأداء والتلقي. النقطة المهمة هنا هي كيفية التعامل مع هذه الانجازات التكنولوجية وتكييفها مع الروح والثقافة القوميتين بشكل يؤدي إلى انتاج فن أصيل ومعاصر في آن.

غمگين فرج (موسيقي): أعود وإؤكد على ماذكره الإخوة والأساتذة حول الجوانب السلبية والإيجابية للتطور التكنولوجي في المجالات الفنية، فالتكنولوجيا أدت إلى ظهور مدارس فنيه متعددة تشكيلية في العالم وكذلك حصل نفس الشيء في مجال الموسيقى العالمية.. فظهرت على سبيل المثال الموسيقى الالكترونية والموسيقى الكونكريتية وتيارات أخرى.. والتي سماها موسيقار روسي الموسيقى اللأمقامية وهي تمثل تجليات الجوانب السلبية والضارة للتطور التكنولوجي الذي دخل المجال الموسيقي.. وأنا شخصياً أعاني وجدانياً من هذه الظواهر.. إذ يعلم كل منا أن عازف الكمان مطلوب منه الاستغراق جدياً بعقله وروحه وجسده، في التمرين المستمر على العزف لسنوات عديدة من أجل أن يصبح عازفاً فناناً معقولاً ومقبولاً. في حين نجد جهازاً موسيقياً تكنولوجياً معقداً ومتطوراً جداً يعوض عن أكثر من عشرة من عازفي الكمان البارعين.. وبسهولة مفرطة للغاية، وهذا يعني دون أيّ شك إصابة العازفين الحقيقيين الذين عانوا السهر والتعب خلال سنوات عديدة، بالاحباط.. التكنولوجيا، أو هذا الجانب السلبي منها، سيتسبب في تحطيم نفسية ومواهب وطموح الفنان الانسان. إذن علينا أن ندرك جيداً هذه المخاطر وبالتالي فأنا أرى من المناسب جداً التقليل إلى الحد الأدنى من استخدام واستيراد آلات موسيقية تكنولوجية للحفاظ على انسانية الفن وفنية الانسان.

عمر: اقترحت السيدة گزيزة الاهتمام أكثر فأكثر بكتابة النصوص الحديثة التي تتيح المجال والفرصة للاستغلال الأمثل للمنجزات التكنولوجية في مجال المسرح لكن العملية قد تكون عكسية.. أي بمعنى أن عدم توفر الامكانات التقنية للمسرح الكردي أدى ويؤدي إلى تحديد وتأطير خيال وفكر الكاتب المسرحي وحتى المخرج المسرحي.. أنا مثلاً كنت في كثير من الأحيان أحلق

بخيالي عالياً في تصور المشاهد التي كنت أنوي كتابتها، ولكن سرعان ماكنت أهبط إلى الواقع المر وأستسلم إلى الامكانات الواقعية الفقيرة جداً في مجال الديكور والاكسسوار والانارة والمؤثرات الصوتية.. بل قل حتى في مجال إدخال الشخصيات النسوية في النص، إذ كنت في السابق كثيراً ما ألغي شخصية المرأة في نصوصي لمعرفتي المسبقة بعدم توفر العنصر الفني النسوي.

إسماعيل خياط: الخيال ملكة انسانية قد لاتتساوى في إمتلاكها، كماً وكيفاً، ولكن للناس جميعاً، هناك في الغرب وهنا في الشرق وفي كردستان، خيالاً، وتخيلات.. والفنان الكردي له قدرته التخيلية الخاصة به.. ولكن الاشكال يبدأ في رأيي بعد مرحلة التخيل.. أي في مرحلة الاعداد للتطبيق.. ومرحلة الممارسة الفعلية لانتاج المادة الفنية.. فأنا كثيراً ماأفكر وأحلم وأتخيل ولكن الامكانات المادية والموضوعية لاتساعدني في تحقيق وتجسيد ماأحلم به وأتخيله. إن من أعظم طموحاتي الفنية هو أن أرسم جدارية على جدار ثابت في مكان عام لائق، بطول ٢٠ متراً وعرض ١٠ أمتار مثلاً.. ولكن عندما أعود إلى الواقع، أرى أن لامواد فنية من أصباغ وغيرها من النوعية الجيدة التي تحتمل التقلبات الجوية متوفرة لدي.. لاجدار ثابت لائق لعمل فني.. وأخيراً حتى لو توفرت هذه وتلك من يضمن لي أنها لاتزال مع الجدارية لأسباب سياسية أو (أمنية) غداً أو بعد غد؟!

پروا: أود أن أقول أن التكنولوجيا لم تدخل إلى محيطنا الحياتي اليومي مباشرة عن طريق الصناعة والتصنيع أي عن طريق التقدم الاقتصادي كما هو الحال فيالغرب وفي اليابان.. بل أنها دخلت من خلال منجزاتها.. من خلال تأثيراتها في المجلات المختلفة ومنها الفنية.. وهذه الحالة لاأعتبرها سلبية أو ضارة.. بل أعتبرها حالة صحية وخطوة إلى الأمام.. فنحن الآن على إستعداد لقبول التكنولوجيا مباشرة بعد أن هيأنا لها الأرضية الذهنية والفكرية المناسبة من خلال تعاملنا الجاد مع منجزاتها ومردوداتها في المجالات الفنية على الأقل.

هشام داود: التكنولوجيا بشكلها المجرد ليس في امكانها أن تنقل أخلاقيات من مجتمع ما إلى مجتمع آخر.. وإنما العلاقات الاجتماعية التي تحيط بالتكنولوجيا في مصادرها هي التي يمكن أن تضغط أو تهيمن من خلال نقل التكنولوجيا وإلاّ فيأتي فنانون مثل الحركة الشارتية في بريطانيا في القرن الماضي الذين حطموا الآلات وهم يتوهمون بأنهم يحطمون الاستغلال.. في اعتقادي أن الانسان عندما يدخل في أولى خطواته إلى ميدان ثورة عظمى مثل ـ اكتشاف الزراعة، المدينية اوالتحضر، وأخيراً الثورة العلمية التقنية، قد يكون غير مدرك لأهمية عمله ـ فالفلاح الأول لم يكن يدرك أنه دخل في مسيرة ستغير من مجرى التأريخ..

ونحن الآن على أعتاب دخول مرحلة جديدة ألاّ وهي الثورة العلمية التقنية التي سوف لن يكون في مقدورنا ولافي صالحنا الوقوف في وجهها كتيار، بل المطلوب منّا تكيفها مع واقعنا وحاجاتنا.. الكثير من أشكال وأساليب التعبير الفني غائبة عن الساحة الفنية الأوربية.. فالسينما مثلاً غائبة

تقريباً في أوروبا.. عدا السينما الفرنسية . - السينما الأمريكية التي أصبحت مصنعاً للأفلام المبتذلة.. التلفزيون هو البديل الآن وهو الأهم وقد يترك مكانه وموقعه لأشكال تعبيرية أخرى مستقبلاً.. إذن فالتطور التكنولوجي قد دخل وبشكل جارف كل الميادين.. التكنولوجيا بحد ذاتها خرساء.. صامتة.. أما العلاقات الاجتماعية التي تصاحبها وترافقها فهي التي تثير الجدل والنقاش.. فهذا الموضوع يثير جدلاً كونياً حتى في أوربا وأمريكا نفسها.. والفنان الكردي لابد وأن يواجه هذه الحالة ولايمكننا أن نعزل أنفسنا عن التكنولوجيا ومنجزاتها.

٣ - التراث الفني وتأثيره على الفن الكردي الحديث

پروا: إذن دعونا ندخل محورنا الأخير، ألا وهو الحديث عن تراثنا الفني والثقافي والفولكلوري الكردي ومدى تأثير هذا التراث وكيفية انعكاسه على مجمل الفن الكردي المعاصر الحديث. من المعلوم أن شعبنا الكردي ويعد تعرضه لأقبح مؤامرة استعمارية من خلال تجزئة أرض وطنه وتجزئة اقتصاده، وكل المحاولات الشرسة لأبادته هنا وهناك، أقول أن هذا الشعب استطاع وبشجاعة لامثيل لها أن يحمي لغته وفولكلوره وتراثه الفني الشعبي من الضياع والفناء.. بحيث أصبح هذا التراث الشعبي (الفني منها خصوصاً) دليلاً قاطعاً على وحدة هذه الأمة المجزأة جغرافياً واقتصادياً..

من هنا أقول أن الفنان الكردي استطاع وبتحدٍ كبير أن (يعصرن) هذا التراث ويرفعه إلى مقام راقٍ ويقدمه كمادة فنية حديثة معاصرة وأصيلة في نفس الوقت.

خالد: جرى الحديث في كثير من المناسبات حول ماهية العلاقة المناسبة مابين التراث والحاضر.. ولكن للأسف لم تتح لنا الفرصة الكافية والامكانات الجدية للانتقال من «الحديث عن» إلى «العمل من أجل».. لهذا فإننا في هذه المناسبة لاأريد آن أخوض في «الحديث عن» بل أقترح اقتراحاً عملياً للزملاء والأخوة (الموسيقيين خصوصاً) للتنسيق فيما بينهم بصورة جادة للبحث عن كل أثر موسيقي غنائي شعبي تراثي وجمع كل مايحصلون عليه من بين الأوساط الشعبية و تصنيفه تصنيفاً علمياً وعملياً بحيث تؤدي هذه العملية في النتيجة إلى إيجاد أرشيف شامل وغني للموسيقى والغناء الشعبي التراثي الكردي فيكون في متناول كل مؤلف موسيقي أو باحث أو دارس فني للاستفادة منه..

أنور: أنا آؤيد ودون تحفظ ماذهب إليه زميلي الأستاذ خالد حول ضرورة جمع كل المواد التراثية (الموسيقية والغنائية) خصوصاً وذلك كمرحلة أولى، ومن جانبي أرى من الضروري أن نقوم بعد التجميع والتصنيف بدراسة وتحليل هذه المواد التراثية للوصول من خلال التحليل العلمي الدقيق إلى روح الموسيقى الكردية والغناء الكردي والإيقاع الكردي المتنوع والذي له سمات خاصة ومميزة..

ونحن نعلم أننا في كردستان العراق متأثرون وإلى حدٍ ما بالموسيقى والايقاع والأداء العربي.. وهناك تأثير فارسي على نتاجات إخوتنا في كردستان إيران.. وتأثير تركي على أعمال الأخوة في

كردستان تركيا.. وهذا الوضع ناتج عن تجزأة كردستان الكبرى والشعب الكردي الواحد إلى عدة أجزاء رغماً عن ارادته والحاق أجزائه بشعوب وقوميات أخرى ذات سيادة وسلطة.. مما أدى إلى تشوه أو ضياع جزء غير قليل من تراثه ووقوعه تحت تأثير ثقافة وفنون الشعوب المسيطرة في أجزاء وطنه الممزق.. فلأجل إعادة الهوية الرصينة للفن والتراث الكردي لابد لنا من جمعه وتصنيفه وتحليله علمياً ودون تأجيل. وأنا شخصياً مقتنع تماماً بأننا مؤهلون للقيام بهذه المهمة وأن نتائج البحث والتحليل ستكون مبشرة بالخير، إذ ربما وجدنا من خلال التحليل أن الموسيقى الكردية (تون) خاص أو (ربع صوت) أو امتياز في أحد الأصوات الأساسية.. فدراسة الآلات الموسيقية التراثية الشعبية وطرق العزف عليها ومختلف الايقاعات بلهجات (هورامان أو بهدينان) مثلاً وأساليب وأشكال الأداء الغنائي.. كل ذلك من صلب المهام التي تنتظرنا وحان الوقت للبت فيها..

ظاهر عبد الله: النقطة الأهم في رأي، في موضوع العلاقة مابين التراث والمعاصر، هي كيفية النظر إلى ذلك التراث والعقلية التي يتم التعامل بها مع التراث.. هل هي عقلية جامدة وناقلة نقلاً ميكانيكياً دون أي اعتبار لعامل الزمن والتطور؟.. أم هي عقلية علمية تقدمية تدرس المادة التراثية وتعالجها وتكيفها مع المتطلبات العصرية؟!

فرنسيس: تعقيباً على رأي الإخوة أقول.. إنه من المهم جداً التعرف عن كثب ومن خلال التحليل التأريخي على المواد والآلات التراثية لفصل مايخصنا ككرد عن كل مانشترك فيه مع شعوب أخرى أو كل مايخص شعوباً أخرى تأثرت به فتوهمنا بأنه (كردي) أصيل. ومعرفة كل مايخصنا وامتزج بفنون وتراث أقوام أخرى فلانكاد نتعرف عليه الآن.. إلخ.. أذكر لكم حادثة: قبل سنوات عديدة كنا.. الأستاذ أنور والأستاذ خالد وأنا.. مجتمعين مع المطرب المرحوم (حسن زيره ك) فأسمعناه لحناً أرمنياً أعجب به فغنى معه أغنية كردية.. وهي "ن شائعة والناس يتوهمون بأن اللحن كردي أصيل لعدم معرفتهم بأصول الموسيقى ،والايقاع الكرديين.

إسماعيل: أرى من الضروري جداً النظر إلى التراث والتعامل معه من وجهة نظر شمولية لاتغيب عنها البيئة الكردية ويبرز من خلالها الانسان الكردي وأرضه وماؤه وسماؤه وتأريخه.. الفنان التشكيلي الكردي لم يتفهم وبالتالي لم يوظف المادة والموضوع التراثيين بالشكل المطلوب وفي مستوى الطموح في حين أنه متأثر جداً بالمدارس الأكاديمية والعصرية الغربية.. الفنان العربي العراقي له محاولات جادة في تطعيم مادته وأسلوبه الفني بأسلوب الرسم والزخرفة والخط البابلي والسومري والاسلامي.. وكذلك الفنان المصري الذي يوظف الأساليب الفنية الفرعونية.. ولكن هذا لم يحدث عندنا إلاّ في إطار ضيّق وعلى مستوى المجهود الفردي لهذا الفنان أو ذاك، مترافقاً مع قصور في الفهم والرؤيا في حالات عديدة...

آري بابان (تشكيلي): إحدى المشاكل الرئيسية التي تواجه الفنان الكردي وتعيق عمله أو ربما تثنيه عن المحاولة هي في رأيي عدم وجود جهات مختصة بالبحث عن التراث وتجميعه وتصنيفه

ثم توثيقه، وبالتالي اضطرار الفنان لأن يتحمل لوحده، بجهده الفردي، البحث عن التراث وتجميع مايحصل عليه هنا وهناك.. وهذه عملية ليست بالسهلة أبداً.. بالاضافة إلى أنها ليست من مهام الفنان، ما يؤدي في النتيجة إلى بعثرة الجهود والوقت.. أو ربما إلى يأس الفنان لعدم قدرته على مواصلة هذه المهمة الشائكة التي لايعرف أصولها العلمية والمنهجية..

إذن فالكثير من الاقتراحات التي تقدم بها الزملاء والأساتذة سوف لن ترى النور ولن تجدي نفعاً إذا لم يتم تشكيل لجان وجمعيات متخصصة في البحث عن التراث وجمعه، وأخرى متخصصة في تصفية وتوثيقه ثم أخيراً لجاناً مختصة في تحليله ودراسته دراسة علمية تمكّن الفنان من الاطّلاع عن كثب وبحريّة على مجمل تراث شعبه في مجالاته المختلفة لغرض الاستفادة منه وتوظيفه وتطويره..

عمر علي أمين: التعامل مع التراث ليس مطلقاً، بل هو نسبي، أي بمعنى أنه لايمكن التعامل مع كل عناصر التراث بنفس الأسلوب.. وبنفس المنطق بل قد يضطر الفنان للتعامل مع عنصر كعنصر المثل والمأثورة الشعبية بأسلوب النقل الميكانيكي والفوتوغرافي إذ لايمكن أن تغيّر الحادثة والأشخاص والأجواء القديمة حتى ولاأسلوب الحوار والحديث بين الشخصيات التي نفترض أنها هي التي شاركت لأول مرة في صناعة وصياغة ذلك المثل أو القول المأثور التراثي.. فلو فعلت ذلك بحجة التعامل العصري مع التراث ستكون المهمة فاشلة ودون نتيجة حتماً، بعكس ماستكون عليه نتيجة التعامل العصري مع مادة تراثية درامية أو فكرية.. إلخ.. حيث من الممكن جداً عصرنة مواد تراثية كهذه..

عبدول: التراث نتاج فترة زمنية وهو من صنع أبناء شعب ما.. ولكل الشعوب تراثها الخاص.. وأنا أرى من الضروري التعامل مع التراث باعتباره شيئاً لايمكن تغيره أو إعادة تشكيله أو صياغة موضوعه من جديد.. قد يجوز للفنان أن يطور ويغير من شكل المادة التراثية، ولكن ليس مسموحاً له أن يغيّر من موضوعها وجوهرها.. فالموضوع والجوهر في هذه الحالة أصبحا ملكاً للتأريخ وجزءاً من هوية تراث الأمة.

محمكين: حول ماذكر عن صعوبة واستحالة تحديد ماهو تراث كردي وماهو عائد لشعوب أخرى، لي ملاحظة شخصية، أقول أن أجزاء كبيرة من تراثنا الغنائي والموسيقي لها تسمياتها، ولها طابعها الخاص وكذلك لها مواقعها الجغرافية الخاصة بها في كردستان، ألاتكفي كل هذه المؤشرات الواضحة (تسميات، طابع، موقع) لتحديد عناصر مهمة وأجزاء أساسية من تراثنا الفني (الموسيقي منه خصوصاً) دون الحاجة إلى البحث والتصنيف والتحليل؟... فمثلاً لدينا (لاوك، حيران، سياچه مانه، هوره.. إلخ) والتي لها تسمياتها الكردية ويجب أن تعامل بامتيازها أساساً ومنطلقاً لتأسيس المشاريع الفنية المستقبلية في مجال الموسيقى والغناء.

حدد (أوسكار مان) في «التحفة المظفريّة» هذه الألوان الغنائية ومقاماتها أيضاً.. وذكر بأنها أجزاء من التراث الكردي، فلا أدري ماهي الحكمة في التشكيك فيما صادق عليه الباحثون

والمستشرقون الأجانب، ولم نهدر الوقت في البحث عما هو مكتشف وموثوق تأريخياً.. هذه هي الحالة إذن: فلو كنا نريد الانطلاق من التراث، فتراثنا أو أقلها أجزاء واسعة من تراثنا الموسيقي، معروف ومكتشف، فلنبدأ إذن.. إذا كنا نريد أو نفكر في سبيل أمر غير هذا، كأن نتمسك بالموسيقى العالمية ففي حالة كهذه نحن بحاجة إلى مؤتمر موسيقي نتحاور ونبحث ونقرر فيه مانريد..

أنور القره داغي: إن ماذكره الأخ (غمگين) هو حالة واحدة من عدة حالات أي جانب واحد من الموضوع وليس كل الموضوع...

أذكر هنا مثالاً واحداً في تركيا لاتسمى أيّة أغنية كردية (كردية وإنما تسمى الأغنية التركية الجبلية)! وكثيراً ماتناقشت وجادلت مع أساتذة الموسيقى في كونسرفتوار أزمير - في تركيا حول كردية تلك الأغاني والايقاعات، ولكنهم، رغم معرفتهم المؤكدة بأنها كردية، كانوا ولايزالون يصرون على تركيتها! وكانوا يطالبونني بتقديم الحجج والبراهين التأريخية والعلمية الوثائقية على ادعائي!. فما هي حججي؟ وماهي الوثائق التي تبرهن على صحة وأحقيّة ماأقول؟! ليس لدي سوى التعاطف الوجداني والحدس اللذين يؤكدان لي صحة قولي.. ولكن هل هذا يكفي؟ كلاً، هذا لايكفي! فلاأحد يكتب تأريخه ويطالب بحقوقه بسلاح العاطفة والوجدان فقط. نحن بحاجة ماسة للبحث والتقصي عن الوثائق والبراهين التأريخية والعلمية وتوثيق كل هذه الأمور لاثبات أحقيّة مانطالب به ونسعى من أجله. كل الشعوب الحرة والمستقلة فعلت ذلك - حتى الأتراك منذ بداية حكم أتاتورك، فعلوا ذلك..

گزيزة: أنا أنتهز هذه الفرصة لأطرح تساؤلين حول علاقة التراث بالفن المعاصر - أولاً، أتساءل: لماذا لايستفيد الموسيقيون الكرد من تراثنا الملحمي.. (شيرين وفرهاد.. مه م وزين.. قه لاي دمدم.. إلخ..) في تأليفاتهم الموسيقية.. كما استفاد آخرون في العالم مثلاً من ألف ليلة وليلة.. وغيرها... ثانياً: إلى متى يتوهم البعض بأن كتابة النص المحلي (للمسرح) تعني وبالضرورة الانطلاق من المواد التراثية وإلاّ فهو (أي النص) ليس محلياً!؟

پروا: أنا لاأستطيع أن أنظر إلى التراث إلاّ باعتباره نتاجاً للنشاط الاجتماعي للانسان عبر التاريخ.. نشاطه اليومي والابداعي.. وعلى هذا الأساس أحدد العلاقة مابين الحاضر والتراث.. وبين المشروع والتاريخ.. فالتراث من هذا المنظور ليس شيئاً مقدساً ولاحيزاً محرماً على الانسان دخوله.. ولكن وفي نفس الوقت أرى من الضروري جداً أن يتم توثيق التراث كما هو دون أي مساس بجوهره أو بشكله.. فالموثق يجب أن يكون منزهاً من أية أغراض أو مصالح شخصية أو فئوية أو ايديولوجية (حين القيام بمهمته تلك) فالتاريخ والتراث يجب أن يوثقا كما هما وكما كانا بالفعل لاكما يريدهما الباحث والموثق الآن أو غداً. أما كيف يتم التعامل مع مايتم توثيقه بموضوعية فهذا عائد للشخص الذي يريد التعامل معه وذلك انطلاقاً من المعتقد والايديولوجيا والمصالح الطبقية والعقلية التي تتحكم فيه..

أما ماذكر حول تقسيم المراحل التي من خلالها وفي نتيجتها سيتمكن الفنان الكردي من الاستفادة من التراث.. فأنا لاأرى ذلك من هذه الزاوية.. فلاداعي لتحديد مراحل للعمل.. لبحث، تجميع، ثم توثيق.. ثم تصنيف.. إلخ..) فلايمكن أن ننتظر طوال أعوام وأعوام حتى تكتمل كل هذه المراحل.. وإنما أرى أنه يجب أن نتبع خطة لتوزيع الأعمال والاختصاصات التي ذكرت على أنها مراحل فكل هذه الأعمال مترابطة ترابطاً حيوياً، هذا من جانب، ومن جانب آخر فكل هذه الأعمال هي أعمال اختصاصية وهي ليست في صلب مهمات الفنان.. لايطالب الفنان بهذه المهام.. ليس على الفنان سوى توظيف التراث الموثوق وكما يرتأيه هو في عمله الابداعي..

هشام داود: أنا أريد أن أتحدث من خلال تجربتي كـ (أنثروبولوجي) أعمل في مجال الاثنوكرافيا الكردية في تركيا، لاأحد يهتم بالفلكلور ولابالتراث الكردي، وإذا ماأراد الكردي أن يقرأ عن تراثه يجب عليه أن يقرأ ماكتب عنه بالروسية أو الفرنسية أو الانكليزية. صحيح أن الحكومات في العراق وفي تركيا وفي إيران تتحمل المسؤولية الأولى عن هذا الانعدام للاهتمام بتراث الشعب الكردي.. ولكن كل هذا لايعفي المثقفين الكرد وشبابه من المسؤولية التاريخية الجسيمة تجاه شعبهم وتأريخهم وتراثهم.. فمثلاً نجد أن المعهد الكردي في باريس منذ تأسيسه ولحدّ الآن قد أعطى أكثر من مئة منحة دراسية، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد من الدارسين الكرد أن يحضر أطروحة حول الأثنوكرافيا والفولكلور الكردي.. حول قضية شعبه.. في حين أن هناك أكثر من عشرة من الدارسين، يحضّرون أطروحاتهم حول سوسيولوجية المجتمع الفرنسي أو حول الثقافة الفلانية.. إلخ... أما في الجانب الآخر فلم يتم عمل أي شيء.. فلم يتم تجميع الأمثال الشعبية والملاحم والأساطير والحكايات ووالعادات والتقاليد.. إلخ.. حتى التجميع لم يبت فيه.. أما عن التحليل فحدث ولاحرج..

حتى التأريخ.. تأريخ هذا الشعب لم يكتب ولايبدو أن هناك من يريد أن يكتبه.. فلازلنا ومنذ أكثر من خمسين سنة نعيد ونكرر ماقاله (نيكتين) عن هذ الشعب.. أما الدراسات الأركيولوجية عن كردستان، فأني أجزم ليست هناك أية دراسة من هذا النوع عن كردستان..

وبالمناسبة، الآن في أوربا ـ في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واسبانيا بشكل خاص ـ الجامعات تمنح الأولوية للدراسة (بالنسبة للطلبة المتفوقين لديها) للشرق الأوسط.. والقضية الكردية من ضمن هذه القضايا وفي المرتبة الثانية تأتي قضايا وموضوعات أوربا الشرقية.. والعالم أجمع هو القضية التي تأتي في المرتبة الثالثة.. والقصد هو أن العالم مهتم إلى هذه الدرجة بمنطقتنا وقضايانا ونحن لازلنا دون مستوى المسؤولية التأريخية.

إذن فهذه صرخة للحكومة الكردية الاقليمية.. للوزارات المشكلة حديثاً للعمل في هذه المجالات الحيوية.. أو تشجيع من هم في الداخل.. داخل المنطقة المحررة من كردستان العراق، واستقبال وفود وبعثات أركيولوجية عالمية للبحث والتنقيب في هذه المناطق المحررة..

من يوميات الانتفاضة ...

ظهيرة الثلج الحار في شقلاوه

رجاء أحمد الزنبوري

التاسع من آذار/ ١٩٩٣

ماالذي كان يميزهم أكثر من رجفة البرد التي امتصت حرارة أجسادهم الغضة، وحمرة خدود شققتها سياط شتاء قارس وقوده الصبر ودفؤه ممالك أحلام نوّمت الأمهات عليها صغارها في مهود الخشب الجبلية الباردة.

انساق خفقات بشرية وجوقة حناجر طرية ترتبك بين رعشة الهتاف ودفء النشوة... تتسلق صبر شقلاوة الكردستاني الطويل. وقدّة حماسها تضيء بعد عتمة ليل الكهرباء المقطوعة صبراً بعد صبر وانتظاراً بعد انتظار، على مدى زمن الديمقراطية الوليدة بلاوقود ولاكهرباء، في كردستان بهيّة منزوعة أغلال المستعبدين.

... إنها مسيرة أسراب عصافير المدارس في شقلاوة..

أو ليست هذه أيام الذكرى الثانية لانتفاضة مدينة موسيقى الحياة والأعناب.

شقلاوة التي هبت تقاتل بجراحها وشقائها فلول الجبروت الجاثم على صدر عراق الخير...

شقلاوة التي من رحم كردستان العراق أوقدت زيت انتفاضتها المقدس.. وعلى هواجس نواقيس كنائسها علق فقراؤها وشهداؤها نذورهم الراية..

شقلاوة التي من جذوة محبة أهلها تذوب درجة التجمد، وتزدهي بلاوقود في زمهرير شتاء أزهى في عتمة الغدر تسطع رغم «انقطاع» الكهرباء..

سراق بهجة النور في عاصمة عنكبوت الموت القابعون خلف منجنيق مكائدهم يتوهمون..

لماذا سراق بهجة النور في عاصمة أدمان الرعب يتوهمون دمامة حصارهم ومخالب ديناصورهم القيحية تطفيء كبرياء بلدة صمودها عنوان صمود كردستان، وتحت مستوى التجمد تمخر في شرايينها حرارة العنفوان..

* * *

التاسع من آذار/ ١٩٩١

ظهيرة التاسع من آذار تقترب..

الثلج في شتاء شقلاوة شال تحيكه ألعاب «پنيلوپ» الدهرية..

يدثر الثلج همس السر ونشيج الغياب والذكريات..

.. الزمن، هذا المؤرق باللوم وبالسهاد والأحجيات، كجبل الجليد العائم يخفي مرساة الشوق وربابنة المسعى والديمومة، كالميلاد.. وتر يصدح في تاريخ ربيع مجنون.

.. قوس الغضب مشدود حتى أقصاه.

ملاهي الثلج بكبلها التباس الأيام، على ناصية مفارز الوعد تتواثب موسيقى الأعوام.. يلهو الثلج ويمحو مرعى أسراب الحسرة.. يلهو الثلج ويمحو شوك الكبوة والتجريح.. على هواء موسيقى الربيع يرسم الثلج النداء..

يازهرة موسيقى الماء

يامنجم الحرية والنرجس.

التاسع من آذار يزحف نحو شقلاوه..

فلتتغير أعياد الماء.

ولتتمهل بدايات الأسماء

فالجمر سيطلع آذار الجمر ...

* * *

ريح فاتحة البركان تكتسح غضب جنوب العراق.

يخلع الوطن جلاجل العار.

تاج زلزال الكرامة على عرش الكرامة ينتفض... فـ «الشعب مامات يوماً

وإنه لن يموتا ...»

* * *

أسلاك البرق والهاتف.. جسور الفصل والوصل تأوي في خمودها الحيرة..

مجسات الاتصال الشعبية تصحو من ذهول العار، وصدمة الهزيمة، تعيد ترتيب ذاكرتها فيغص الشعب بالدم..

بالجثث تتعثر الجثث، وعلى الوطن المسجّى تبكي عزيمة الوطن، على رصيف محطة الموت القادر تتصادم فلول الأهوال.

الوطن أنفال/ الوطن أنفال.

«التكريتي» يعلق نوط البلوى يغتسل بالدم، يتقيأ الكارثة في صحراء الهزيمة.

وعلى رصيف محطة الموت ينزف العراق صبره..

لكن النبض سليم.

الشعب هامات يوماً.

... ...

* * *

من ذهول الصدمة تصحو متاريس الوثبة، كل آذار ويقظة الشعب بخير، وعمت مجداً أيتها الانتفاضة..

متاريس الجبال البعيدة تردد أصداء هسيس النار المنبعثة من رماد براكين الجراح الجبلية..

الخامس من آذار ١٩٩١

(رانية) (١) تنهض من شقائها.

وسط مشاعل الربيع تخفق أجنحة الانتفاضة. ثلوج هامات (سفين) (٢) تستقبل صبيحة التاسع من آذار بانتباهة تواطؤ واستعداد.

طوفان «اللاندكروزرات»، غابات البيارق الضوئية تجتاح شقلاوة قادمة من (رانية)

.. إنه التاسع من آذار

هللويا .. الانتفاضة جاءت

هللويا .. الشعب قام.

* * *

ظهيرة ثلج حار ..

يكتب الثلج ويمحو كلّ أسفار الطغاة ..

هللويا .. الانتفاضة جاءت، فلول عبيد

لذة التعذيب تتداعى. تفر مفاصل قلاعها القمعية. مبنى الأمن والشرطة ومنظمة الحزب الحاكم تشرع جرائمها على النهاية دون مقاومة.

البيشمركة يتقدمون..

تاريخ المغدورين والمعذبين وليالي الخوف والاذلال تتقدم، تطارد فلول الهاربين.

في «منظومة الاستخبارات» في (سه رميدان) تحتمي أفاعي سلطة العبيد. خلف رشاشات غادرة. يهدر الموت وحصاد آخر تضاريس الجريمة..

الشهقة

يشهق أول شهيد ربيعي

يشهق جبل سفين، صخوره تكتظ بالأصداء. دموعه تتحجر كالجليد، يتخضب الثلج الحار بدماء النرجس والربيع. تتخضب بالشهقة أعشاش الوعد. يتخضب الكون بالدماء.

يشهق (محمود ملا سعيد) حين استلقت بين يديه قامة الشهيد المضيئة، ولده (زرار).. قامة شهيد آخر تضيء مشجب الهول والبسالة:

«ولدي ولدي سيف اللهب، أيتها الانتفاضة، لاتهجري بيتي ولاجمر الغضب، أيتها النصرة الأبدية المباركة الانتفاضة»

أعلى من كروم العنب واللوز والصخور، أعلى من هامة الجبل والتاريخ تتألف أبدية النوارس: زرار محمود ملا سعيد/ مام هجار/ وكل شهداء الانتفاضة.

* * *

أحداث ظهيرة الثلج الحار في شقلاوة تتلاحق وتهدر..

الرابعة والنصف عصر الثلج الحار ذاته، تغرق في صمت العار والنهاية آخر رشاشات الموت العمياء في «منظومة الاستخبارات». البرابرة كتبوا في أوكار عارهم أسماء جرائمهم وصور ضحاياهم وملفات همجية القادمين من رمل التاريخ الأسود والصحراء.

نوارس الحرية تدق نواقيسها في سماء الانتفاضة. بيشمرگة (رانية وشقلاوه ناس الكرامة والحرية والأحزاب المؤتلفة، تزحف الجموع نحو (كويي) في الطريق إلى (صلاح الدين).

في الحادي عشر من آذار ستنفجر الانتفاضة في اربيل. في (راوندوز) في (كويي) في السليمانية،في دهوك، ستشتعل كردستان ببروق الحرية، لكن الدكتاتورية ستناور مؤقتاً هنا وهناك.. لاستعادة مواقعها. لكن الدكتاتورية ستفلح مؤقتاً هنا وهناك.. إلا في شقلاوه.. ففي التاسع من آذار انزاح العار دونما رجعة.. وستتطهر كردستان لاحقاً وستخفق على ذرى الجبال بيارق الديمقراطية ثم الفدرالية والمجد للانتفاضة.

* * *

إنها الذكرى الثانية لمجد الانتصار الدامي. أسراب عصافير المدارس المرتعشة في نداوة برد الربيع، تتسلق الشارع الصاعد من سوق البلدة القديم إلى (عين ترمه) ثم إلى حيث المصير.

الشهداء زرار محمود ملا سعيد ومام هجار... شهداء كردستان والمستقبل يوسعون دروب الحياة أمام الصغار..

تنشد جوقة المستقبل وتقرع الانتفاضة أجراس الذكرى..

تحت هواء الحرية يسير سرب المستقبل... جيوب سراويلهم الممزقة لاتحمي أصابع أكفهم المزرّقة في البرد والرطوبة، لكن الأمهات تزغرد والعصافير تنشد وكوابيس فلول الظلام تفر هاربة إلى

الأبد... فيما يعلو إنشاد إنشاد الحرية:

تحيا حكومة كردستان

لاعودة للدكتاتور والدكتاتورية

ديمقراطية وفدرالية

والمجد للانتفاضة

* * *

شقلاوة

(١) مدينة كردية انتفضت في الخامس من آذار ١٩٩١

(٢) سفين: جبل يطل على شقلاوة من جهة الغرب.





رسالة إلى المثقفين العرب

السيدات والسادة الأعزاء في الهيئة العامة للكتاب بمناسبة اللقاء العربي في القاهرة:

نضع أمامكم، وأنتم تعدون ميثاقاً للدفاع عن حرية المثقف والثقافة العربية/حصيلة ذاكرة جمعية لعدد من المثقفين العراقيين.. فقد أردنا من منفانا الصعب أن نجمع قتلانا ومفقودينا ومساجيننا: أكثر من خمسين كاتباً وفناناً أعدموا واغتيلوا أو ماتوا تحت التعذيب. حوالي الأربعمائة اعتقلوا وعذبوا بالطرق المعروفة التي تتراوح بين التعليق والكي الكهربائي والاغتصاب بمعناه الفعلي لاالمجازي. وأكثر من خمسمائة أجبروا على ترك قرائهم ومسارحهم وبيوتهم في الوطن، إلى منفى لم يكن بمنجى من «ذراع العراق الطويلة» التي اغتالت الأصوات المعارضة بالثاليوم أو بكاتم الصوت.. كل هذا خلال فترة حكم العفالقة الممتدة من حكم الحزب الواحد إلى حكم الفرد الواحد، ومابين حربين على الخارج (حرب ايران وحرب الخليج الثانية) وحرب داخلية تغذيها وتستمد منها المشروعية.

نضع أمامكم وقائع المجزرة الثقافية في البلد الذي شهد ميلاد الألف باء الأولى للثقافة الانسانية وأول شريعة قانونية، وأول قصائد حب وأول المحاولات الانسانية للوصول إلى الخلود، وفي عمر ثقافتنا العربية الحديثة،فهو الذي شهد ميلاد الشعر العربي الحديث..

ولانريد أن نطيل عليكم الحديث حول ماحصل لثقافتنا العراقية اليوم، إنما ندعوكم لأن تأخذوا أية جريدة عراقية، لا على التعيين، لتجدوا إن ذاك التنوع الثقافي المتعدد القوميات والأصوات قد

أصبح في ظل ثقافة العفالقة مكرساً للقائد الواحد و«حروبه التي تلد أخرى».

وقد طرحنا «محنة الثقافة في العراق» في أكثر من مناسبة سابقة وكنا دائماً نصطدم بنفس الجدار المسدود، لأن النظام المتهم بمذبحة الثقافة هذه، يسيطر بقوة المال والنفوذ السلطوي على رئاسة معظم الاتحادات الثقافية العربية (الأدباء، الصحفيين، الفنانين التشكيليين، السينمائيين التسجيليين، المصورين الفوتوغرافيين، المؤرخين) أو له حصة الأسد فيها.

ورغم إن «حرية المثقف» كانت مطروحة على أكثر من لقاء ثقافي رسمي،أو شعبي عربي وأحياناً كانت العنوان الرئيس لهذه اللقاءات، إلا أن بحث هذه القضية كان دائماً يتعثر عند الانتقال من العموميات النظرية إلى التشخيص الملموس لهذه القضية، لأن ممثلي الأنظمة في مثل هذه اللقاءات يعملون المستحيل، بالتعتيم مرة، وبالصراخ الدفاعي ثانية، لمعارضة أي تحديد خشية أن يسري ذلك على بقية الأنظمة الموضوعة على لائحة الاتهام بانتهاك حرية المثقف والثقافة.. ولذلك يجري القفز على الملموس وتبرئة النفس باشارات ختامية عمومية رتيبة تتحدث عن معاناة عموم المثقفين العرب والدعوة للدفاع عنها، دون تشخيص المدافِع والمدافع عنه.

ويؤسفنا أن نقول بأن هذه الطريقة الهاربة العائمة في تناول الموضوع أصبحت تماماً في الأنظمة الأكثر قمعاً. والمثال الفاضح هو أن الصبي القاتل عدي صدام حسين الذي يترأس الآن معظم المؤسسات الثقافية العراقية (اتحاد الأدباء، نقابة الصحفيين، تحرير جريدة بابل ومجلة الرافدين، والبعث الرياضي) يترأس أيضاً رابطة الدفاع عن حقوق المثقف العربي، بين أعضائها مثقفون عرب بارزون، تستغربون كيف قبلوا هذه النكتة السوداء كمهمة!

ونحن نطرح قضيتنا هذه توصلنا، ومعنا مثقفون عرب، إلى استنتاج مرّ: وهو أن هذه الهيئات التي ناشدناها، أصبحت بحد ذاتها حاجزاً إضافياً يعمم قمع المثقف من قطريته إلى إطاره القومي لأنها الحصيلة (الثقافية) للتوازن السياسي بين الأنظمة أو حصيلة توازن الخوف مابينها.

وقد ازدادت قضيتنا تعقداً ومرارة بعد حرب الخليج الثانية، لأن مثقفين متنورين نعوّل عليهم، فقدوا بصيرتهم في حمأة الصراخ، ونسوا حكمة (٥ حزيران) التي علمتنا أن نقيس أية مواجهة مع الامبريالية أو مع اسرائيل بمدى احترام المواجهة لعقل وإرادة الناس الذين نريد بهم أن نخوض هذه المواجهة.

وكان المثقف والانسان العراقي هو الضحية المزدوجة: فهو القتيل والخاسر في حرب لم يخترها ولم يردها، وقد ضاعت صرخته بالمطالبة بالديمقراطية بين الهتافات وطبول الحرب، وهو الضحية الأولى للحصار الاقتصادي المفروض على بلادنا، وتنقل لنا أخبار الوطن صوراً مؤلمة عن مثقفين عراقيين خرجوا ليبيعوا كتبهم في الأسواق، أو يتوسلون بحثاً عن أية فرصة عمل في الأردن لتوفير الحد الأدنى من الطعام لهم وللعائلة في بلد جائع أصبحت الثقافة فيه سلعة ترف.

نضع أمامكم هذه القضية المحددة لأن هذا الجسد هو جسدنا، ولأن هذه الثقافة الموجوعة هي

صرخة روحنا. ومن هذه القضية المحددة الملموسة نشعر أن قضية الدفاع عن المثقف العربي تقدمت خطوة نحو الجدار المحظور.. وكلما خرجنا من التعميم إلى التحديد، وأيضاً كلما أجمع وسط من المثقفين العرب في الدفاع عن بعضهم، تحول مشروعنا من الجزع الشخصي المنفرد إلى نوع من الفعل الجماعي الضاغط، ونحن على يقين، بأنه سيوضع في الحساب في مواجهة الظلامية وقمع الأنظمة ،من أجل يوم نقول فيه كلمتنا دون أن نلتفت إلى الخلف أو نتعثر خوفاً من الرقيب الذي حولنا وفينا.

أيها السيدات والسادة:

نحن نحيي جهودكم خلال مؤتمر «مستقبل الثقافة العربية في عالم متغير» لارساء دور الثقافة في عالمنا العربي. ونحن نعتقد، مثلكم، أن شرط المعاصرة مرهون بفاعلية الثقافة في حياة الأمة. ولكن لدينا ملاحظات، وبالأصح تحفظات، نتمنى أن تتسع صدوركم لها، علي الصياغة التي خرجتم بها لـ «مشروع ميثاق المثقفين العرب».

وتنصب تحفظاتنا على العناصر المكونة للمشروع وهي أهدافه وجسمه وقيادته:

أولاً ـ يحدد المشروع ستة «أهداف» رئيسية هي:

١) الديمقراطية.

٢) التفوق التكنولوجي.

٣) شروط صحية لنمو الابداع العربي وتطوره.

٤) التصدي للارهاب (الأصولي خاصة).

٥) بناء مفاهيم التكامل الاجتماعي والاقتصادي العربي.

٦) مشاركة الأمة العربية في صياغة شكل العلاقات الدولية الجديدة.

وفيما يلي ملاحظاتنا علي هذه الأهداف:

١ ـ إنها ليست محددة على مقاس المثقفين حصراً وبالضبط. فتحقيقها لايرتهن بمشيئتهم خاصة ولاهو في طاقتهم، لأنه مسؤولية عامة مشتركة لكل فئات المجتمع، ومسؤولية خاصة للجهات والمؤسسات النافذة فيه (والمثقفون ليسوا بينها في عالمنا العربي).

٢ ـ إن «الأهداف» عامة بحيث يمكن أن تصدر بصيغتها هذه عن مؤتمر يعقد في ظل أعتى دكتاتوريات العالم العربي أو «أرحم» أنظمته. ومن المعروف أن النظام العربي بكل تلاوينه يستوعب النقد مهما كان شديداً طالما كان النقد عاماً يتجنب التحديد. أكثر من ذلك فإنه أصبح أيضاً منتجاً لمثل هذا النقد.

بيانات مؤتمرات اتحاد الأدباء العرب، مثلاً، تحفل كل عام بالدعوات الحارة للحريات. لكن هذه المؤسسة لم تستطع مرةً الاشارة إلى قتل رئيسها الشاعر شفيق الكمالي لأن علاقات النظام العراقي كانت قبل غزو الكويت «طيبة» مع الجميع.

٣ ـ تنطوي صياغة المشروع على افتراض وجود استقلالية نسبية يتمتع بها المثقف العربي عامة، وخلافاً لذلك فإننا نشكو غالباً من انعدام هذه الاستقلالية. والصياغة تحمل تبرئة للمثقف العربي من التورط بالمشاركة في آلة القمع. إن الذين ينهضون بمؤسسات الثقافة والاعلام الرسمية العربية هم مثقفون أيضاً ويتحملون المسؤولية بمقدار مسؤولية الأنظمة التي يعملون في كنفها عن مثل هذا القمع. إن وضع المثقفين المناضلين من أجل الحرية في سلة واحدة مع نظرائهم من مسوقي بضاعة الدكتاتوريات هو بمثل مساواة الضحية بالجلاد. فالتفريق واجب والادانة لازمة.

٤ ـ وأخيراً فإن أهداف «مشروع ميثاق المثقفين العرب» ليست بالأحرى أهدافاً وإنما هي رؤيا ترسم كيفية عامة لنهضة الأمة العربية، بل وفي الواقع كل أمة تعيش في هذا العصر وهي خارجة عن ميدان الفاعلية فيه.

أحرى بنا نحن المثقفين أن نحدد معنى الهدف بوصفه غاية إلى الترجمة في عمل ملموس. ونحن كمثقفين عراقيين نعتبر إنقاذ بلدنا من الطغيان أولوية مطلقة لاشيء لدينا قبل خدمة هذه المهمة وكل شيء يمكن أن يأتي بعد إنجازها لخدمة الثقافة والانسان.

من أين لحديث «التفوق التكنولوجي» أن يكتسب الجدية وسط غابة طغيان؟ وكيف يحلم المضطهد في فكره ومعدوم الأمان عل حياته ببناء التكامل العربي؟ ومن أين يتأتى لأمة وُضِعت اليد على ثرواتها أن تلعب دوراً في صياغة شكل العلاقات الدولية؟

نعتقد أنه مهما تفاوتت درجات الطغيان فإن موضوع الديمقراطية في الحياة الثقافية والعامة يمثل المنزلة نفسها من الأولوية في العالم العربي. وإذا ما آمنّا بأن الحرية هي شرط كل إبداع فيلزمنا التسليم بأن نطاق مهمتنا العامة هو هذا، وإن أهدافنا ينبغي أن تفصّل على قياسها، وتكون، بنفس الوقت، عملية قابلة للتطبيق.

إن إقتراحنا فيما يتعلق بأهداف «ميثاق المثقفين العرب» هو إعتبار الالتزام بالديمقراطية أولوية تتصدر النضال الفكري للمثقف العربي، وأن تُحدد للتعبير عن هذا الالتزام شروط معينة تمنع الخلط واللبس،منها:

١) تبنّي الأعمال الفكرية والابداعية التي تعرّي أصناف القمع والارهاب في هذا البلد العربي أو ذاك من خلال تهيئة فرص نشرها وترويجها.

٢) العمل على إيجاد وسائل لنشر النتاجات المرفوضة أو المعاقة لأسباب تتعلق بالارهاب الفكري.

٣) تقديم حصيلة موثقة في كل إجتماع أو دورة عن وقائع ملموسة لاضطهاد الثقافة أو المثقفين في البلدان العربية، مثل منع كتاب أو حظر توزيع مطبوع أو إعتقال مثقف إلخ. ثم طبع هذه الحصيلة ونشرها علي الرأي العام العربي والدولي، كما تفعل منظمات حقوق الانسان مع ضحايا الرأي أو الضمير.

٤) تشريع النقد البناء البعيد عن الاستهتار في مجالات حياتنا كافة، وخصوصاً بالنسبة لـ «الثالوث القومي المحرم»: الدين والسياسة والجنس، معتبرين أن «العقيدة» رأي يُحترم لايُفرض، وأن هذا الرأي قابل لفائدة الحياة بمقدار مايقبل النقد.

٥) إن «ميثاق المثقفين العرب» هو مشروع يلزمه وسيط من أعضاء لتنفيذ أهدافه. وإن على هذا الوسيط أن يكون من جنس أهدافه: فلايكون فيه من كان نتاجه أو عمله أو اصطفافه يصب في اتجاه إعاقة الديمقراطية. إن وجود عضو في هذا الوسط يعبر عن جهة رسمية هي دكتاتورية او غير رسمية ارهابية يتعارض مع مشروع الميثاق بل وينسف مصداقيته من الأساس.

٦) إن العنصر الرئيسي في إنجاح مشروع الميثاق يتوقف على نوع الهيئة التي من المفترض أن تتولى متابعة أهدافه ومراقبة مدى إلتزام المثقفين المهنيين بها.

الواقع إن مايعطي المشروع برمته المصداقية مرتبط بهذه النقطة الحساسة جداً: فالخطوة الحاسمة التي تجعل الميثاق قابلاً للفائدة وذا جدوى تبدأ من انتخاب هيئة تقوده ممثلة بمفكرين ومبدعين ثقاة عرفوا باستقلالهم ولم يلتبسوا بشبهات تلق الطغيان أو مداهنة التعصب من أي إتجاه.

ختاماً تقبلوا اعتزازنا وأمنياتنا لجهودكم الخيرة بالنجاح.

رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين

آذار ١٩٩٣

رسالة دكتورا

في العلاقات البريطانية العراقية

مؤخراً نال شهادة الدكتورا طالب الدراسات العليا بموسكو، علي عودة، بعد أن دافع عن رسالته المعنونة «العلاقات البريطانية العراقية بين ١٩١٤ - ١٩٣٢.» وقد تناولت هذه العلاقات والأوضاع في العراق خلال فترة الاحتلال المباشر، وخلال فترة الانتداب وحصول العراق على الاستقلال الشكلي. واختتمت الرسالة بالاستنتاجات.

أشرف على الرسالة الأستاذ ب. سيرنيان وجرى الدفاع في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية.

المـــدى

صدر العدد الأول من مجلة المدى، وهي فصلية ثقافية حرة، تعنى بالإبداع ومايتصل به.

يضم مجلس تحريرها: أدونيس، إلياس خوري، حنا مينة، شيركو بي كه س، صنع الله ابراهيم، الطاهر وطّار، قاسم حداد، عبد اللطيف اللعبي، محمد بنيس، هادي العلوي، يمنى العيد.

ويتولى رئاسة التحرير: الشاعر سعدي يوسف.

تبدأ المجلة بصفحتي فوتوغراف لمحمود ذياب، تليها افتتاحية مركزة حول معنى صدور المجلة.

المقال الأول كتبه محمد دكروب، محاولة في السيرة، تتناول تحولات يوسف ادريس الابداعية، متشابكة مع حياة غير عادية لفنان كبير.

باب «جذور» يضم دراسات ثلاث. يكتب بو علي ياسن عن «ريادة بندلي جوزي في فهم التاريخ العربي الاسلامي»، ويكشف هادي العلوي عن صفحات غامضة «من تاريخ العلاقة بين الحضارتين الصينية والاسلامية»، أما هيثم الجنابي فيقدم بحثاً عن «روح الأدب، أدب الحقيقة» لدى المتصوفة المسلمين.

يفتتح علي الشوك باب «مدن»، في الحديث، عبر مدخل شخصي عن مدينة بغداد والطريق الطويل إلى متسلق الجهنمية.

مقابلة «المدى» حوار مطول مع أدونيس أجراه ابراهيم الحريري، وبالامكان اعتبار هذا الحوار كشفاً واضاءة لجوانب عديدة من حياة أدونيس وإبداعه وآرائه.

خمسة عشر شاعراً حضروا في العدد، ليشكلوا ديواناً حقيقياً تتجاوز فيه الأشكال والتجارب والأماكن. الشعراء هم: سعد الدوسري، عصام ترشحاني، شيركو بي كه س، محمد سعيد الصكار، محمد طالب محمد، مهدي محمد علي، شاكر لعيبي، فاضل السلطاني، جمال مصطفى، عبد الكريم كاصد، هاشم شفيق، فوزي كريم، حنميد العقابي، كاظم جهاد، جمال جمعة.

وفي المجلس خمسس قصص لكل من: ابراهيم صموئيل، عبد العزيز مشري، ابراهيم أحمد، شاكر الأنباري، قيس العذاري.

في المسرح، يتحدث المخرج جواد الأسدي عن تجربته في تقديم «رأس المملوك جابر» بالاسبانية، في مدينة فالنسيا، حيث البروفة هي المدخل الصعب إلى ممثل ومشاهد مختلفين.

د. جواد بشارة، يتناول «شخصية الهامشي في السينما الغربية» عبر رحلة طويلة، سوسيولوجية المنحنى، تشكل جهداً ملحوظاً في متابعة السينما بالملموس.

في الفن التشكيلي، ثمة دراسة لزينات بيطار عن آنجي أفلاطون ومسرتها من السريالية إلى الخصوصية، مع لوحات بالألوان للفنانة المصرية الكبيرة.

كما تظهر في المجلة مجموعة تخطيطات بالأسود والأبيض لنعمان هادي عن «العدوان».

من أبواب المجلة الغنية، باب الكتب.

وكذلك «الرسائل الثقافية».

«المدى» في خطوتها الأولى، تؤشر، بوضوح، إلى خطواتها التالية.

سعدي يوسف قدم العدد بالكلمة التالية:

الخطوة والمعنى

ضئيل، ومحدود، معنى صدور مجلة ثقافية جديدة، إن لم تكن بحثت، هي، نفسها، عن معنى، المغزى، ليس في الصدور ذاته، وإنما في مايصدر عنه الصدور.

المجلة الثقافية، يمكن فهمها، إذاً، باعتبارها بؤرة، أو فكرة، أو حركة، بل ربما كانت المجلة، كما حدث هنا، أو في أوروبا، وأميركا، بؤرة وفكرة وحركة، في آن.

قد ترى مجلة، تبريرها، في أنها تعبر عن اتجاه في الفن التشكيلي، مثلاً، وقد ترى مجلة أخرى، هذا التبرير، في أنها متخصصة بحقل من حقول البحث الكومبيوتري، إلا أن هاتين المجلتين تظلان في دائرة المعنى، معنى الصدور.

وثمت الضرورة التي تطالب، وتملي أحياناً. وهي ضرورة عجيبة، إذ الاستجابة لها، دخول في الحرية، ومسعى إلى التغيير، وخروج على السائد.

حجر في سكون الماء؟

لا، فالماء ليس ساكناً، إن لم يكن في غليانه الكامن.

والحجر، وحده، لايكفي.

الاستمرار، هو الذي يضمن للمويجات، بهجة الحركة الدائبة، هذه التي تنقذ الغليان من أن يظل كامناً، حسب.

علينا، أن نوسع الدوائر، لتبلغ ضفافاً كانت ترتد عنها منكفئة، خائرة، فاقدة قوة الدفع.

وعلينا، أن نقرأ من حولنا، لنعرف ماذا هم قارئون.

وعلينا أن نتقرى التغييرات التي تفعل فعلها في بنية الثقافة، نتاجاً، ومنتجين، ومستقبلين.

المسرح، والسينما، والتلفزيون، والفوتوغراف، والرسم، والأغنية، على سبيل المثال، غدت فنوناً شائعة، يمارسها، ويهتم بها، عدد متزايد من الناس، حرفة وعلاقة ...

ألا يستدعي هذا، الخروج من دائرة تقليدية للتصنيف الثقافي؟

إننا نواجه أسئلة كبرى، تبدو أحياناً، فوق قدرتنا على الاجابة. مثلاً: كيف نستعيد استقلالنا، استقلال المبادرة والدور والتطور؟

وماذا يعني الاستقلال، ثقافياً في الأقل، الآن؟

والعلاقة بالغرب عموماً ...

ألا تستدعي مراجعة جادة؟

لقد كنا أهل اليمين وأهل اليسار في علاقة فعل الاستجابة الشرطي، مناهضة أو ممالأة ...

ألا يتعين علينا تفادي هذا الكمين المستمر، منذ هبط نابليون على أرض مصر، مسبوقاً بمدافعه، ومتبوعاً بعلمائه؟

وديمقراطيته التي تنتهي عند حدود البرابرة، حدودنا، ألا يمكننا أن نحاول، ازاءها، مايليق بنا، بشراً، أحراراً، بناة حضارات ورسالات؟

ألا يمكن أن نبدأ بديمقراطية الثقافة، التي تشكل الوعي، والهوية الفردية، وخطوات الكائن البشري في الكون؟

إن ديمقراطية الثقافة، تعني، ضمناً، الحرية والتنوع والتحديث، تعني شرط استقبال المجهول، غير المتوقع، غير المألوف، الذي سيكون، يوماً ما معروفاً، متوقعاً، مألوفاً.

أين «المدى» من هذا كله؟

المشروع الحر الذي تنهض به المجلة، يتسم بحساسية عالية، مرهفة، تجاه مبادىء أومىء إليها، ايماء، في ماسبق من سطور، لكنها تشكل العصب الحي، والمؤشر، والاقنوم، في كل ماتسعى اليه، وتعمل من أجله.

آذار/١٩٩٣

القافلـة

صدر عن وزارة الثقافة لاقليم كردستان - العراق العدد الأول من مجلتها (القافلة). تتألف هيئة التحرير من الشاعر الكبير شيركو بيكه س رئيساً، والأستاذ أحمد سالار نائباً للرئيس، والأستاذ جلال زنكابادي سكرتيراً، والأستاذ زبير اسماعيل محرراً.

جاء في كلمة هيئة التحرير:

تطمح القافلة إلى تعريف وتقديم ماهو هام، في كل ميادين الثقافة الكردستانية، وذي صلة بها (ترجمةً أو تأليفاً) بقصد فتح حوار جاد بين ثقافتي الشعبين الشقيقين (الكردستاني والعربي)، لتمتين أواصر التفاهم وترسيخ التآخي وتعزيزه، على طريق المصير المشترك، وذلك من أجل المستقبل المؤنسن المنشود...

وقد استهل الأستاذ جلال زنكابادي العدد بالكلمة التالية:

القافلة تسير

رغم العديد من الحصارات الغاشمة، التي تتحلق كردستاننا المحررة وفي وضع (الابشري)، مزر وعصيب - تستثنى منه الحرية، - هاهو العدد الأول، من مجلتنا الوليدة، يصافح القراء الكرام...

لاريب أن «القافلة» ليست هي المجلة الأولى، التي تصدر بلغة (الضاد) العريقة، بهذا الحجم والنزوع؛ فقد سبقتها في هذا المضمار شقيقات أخريات، هنا وهناك، سيما في المنافي - لكن بأعداد قليلة... - وستلحقها حتماً أخريات... أما (القافلة) فتصبو إلى المسيرة المتواصلة، وتغطية كل

الجوانب الابداعية والمعرفية، في الثقافة الكردستانية، أي دون الاقتصار على جوانب أو مجالات محدودة.. كما أنها ترحب بكل المساهمات الجادة، من لدن أخوتنا: العرب، التركمان، الكلدان والآثوريين...

إن (القافلة) وقد إنطلقت لاحقة بركب مطبوعات مابعد الانتفاضة الشعبية العظمى لتراكب المتغيرات التاريخية المصيرية؛ لتبرهن مع سواها، على حقيقة ساطعة، طالما حاربها، شوهها أو تجاهلها محتلو كردستان، ألا وهي أن شعبنا حي أبداً، عاشق للحرية، ومكافح مستميت، طوال تاريخه؛ للذود عن: كيانه الحضاري العريق، سيادته الثقافية، وهويته القومية الأصيلة، رغم شتى صنوف الغزو والقمع سياسياً وثقافياً... وهاهو يجاهد؛ ليحطم كل جدران (الغيتو) الجائر، المفروض عليه عنوة؛ حتى يشهد العالم وجهه الناصع الأصيل، ويسمع صوته الجهوري الهاتف للحق والحرية والابداع والتآخي...

ولئن ولدت (القافلة) في هذا المنعطف التاريخي المصيري، الذي أتاح الفرص الذهبية، لتحقيق العديد من أحلامنا وطموحاتنا الثقافية المحظورة والمقموعة، في ظل الفرامين والممارسات الدكتاتورية العنصرية سابقاً؛ فإن لسان حالها يلهج:

(ـ صيّروني رائدة
للحرية الملتزمة،
للديمقراطية السمحاء
للابداع المؤصل
وللتآخي المنشود من قبل، ومن بعد ...

كي أكون (القافلة) المبتغاة بحق وحقيقة..؛ هلا سمعتم معي مايقوله الشاعر العظيم (أوكتاڤيوباث): الحرية بلاإخاء جمود، والديمقراطية بلا حرية إستبداد!؟)

لاضير إن إبتهجنا بهذا العدد (المتواضع)، لكننا ومن منطلق تطلعنا المشروع إلى مستقبل أفضل، بل وأمثل للقافلة حجماً، مضموناً وفناً؛ نعتبره دون مستوى الطموح بكثير؛ مادمنا قد بدأنا من الصفر، ولانبالغ إن قلنا بأن مجلتنا تفتقر حتى إلى أبسط وأدنى الضروريات والمقومات: مكتب بسيط ناهيكم عن المزيد من المسببات الموضوعية، التي يتعذر علينا حتى تناولها الآن، وفي مقدمتها التكاليف الباهظة، بل وشبه الأسطورية للطباعة، ومايرافقها من المنغصات الألف..

ومع كل ذلك، عهداً ويقيناً ستكافح (القافلة) وبمؤازرة المخلصين والغيارى من المسؤولين والمعنيين والكتاب والمترجمين من أجل ماهو أفضل في أعدادها المقبلة، بما في ذلك: تقديم مافي الوسع من المحاور والملفات المنسقة، في مجمل ميادين الثقافة الكردستانية: الشعر، القصة، اللغة، النقد...، الموسيقى، التاريخ والفنون التشكيلية، الجغرافية السياسية، المرأة، الفولكلور والبيئة.... إلخ..

فكلها ثقة وأمل في أن يهب كتابنا ومترجمونا الجادون إلى رفدها بمساهماتهم القيمة، من الآن فصاعداً؛ مادام يهمهم تعزيز مصداقية خطابها المشروع، لعلها تفي عهدها برد مايتيسر لها من دين ثقيل ومديد غمرتنا به أرض كردستان المعطاء، أجل إن (القافلة) ستسير، وهي تستضيء بشاعل، زيتها الدم الزكية لقوافل من الشهداء الأبرار، على مر التاريخ، كما أنها لاتني تستذكر الجسام من تضحيات شعبنا المقهور، الذي ماانفك يناضل من أجل حقه المشروع في تقرير مصيره بنفسه، ثم صياغة مستقبله، الذي يستحقه، شأنه شأن سواه من شعوب المعمورة.

وهكذا تدعوكم (القافلة) إلى الانخراط - إن كنتم من الكتاب والمترجمين... وإلى مساندتها مادياً ومعنوياً - إن كنتم من المسؤولين والمعنيين أو القراء - وحبذا لو توحدت الحالتان؛ عسى أن نحقق مجتمعين بعض مانتوخاه، والله من وراء القصد.

هذا وقد ضم العدد المواد التالية:

• الديمقراطية بين خطاب السلطة وغياب القانون، آزاد صبحي. • كردستان والكرد حتى (١٩١٤)، زبير بلال إسماعيل. • مذكرة الجنرال (شريف باشا) إلى مؤتمر فرساي، ترجمة د. نوري طالباني.
• مسكوكات الدولة الدوستكية، عبد الرقيب يوسف. • اللغة الكردية الموحدة، جمال زه نگنه.
•مدخل إلى ملامح التشابه في القضايا الفولكلورية، كمال غمبار. • كردستان تحتفي بـ (سعدي يوسف)، جلال زنگابادي. • بقع النوستالجيا في مديات الرؤية عند (نالي، كريم ده شتي. • شعر المقاومة والشاعر الوطني علي فتاح دزه يي، كريم شاره زا. • حكاية شعرية، سعيد يحيى الخطاط.
• قصائد تعشق الحرية، ترجمة: حسن سليڤاني. • كردستان و(أدونيس)، هاوار كاكائي. • الخوف: قصة قصيرة، شيرزاد حسن. • ودخلت (يه سنا) بلاط السلطان، قصة قصيرة، نجاة رفيق حلمي.
• تالا، قصة قصيرة، م.مندلاوي. • (بيان نقدي) عبد الله البرزنجي، حميد ريبوار - محمد أمين أحمد. • قراءة في مسرحيات بهدينانية، حمه كريم هورامي. • هژار مكرياني، المترجم والمعجمي، آزاد حمه شريف. • الكرافة، مؤاخاة الدم عند اليزيديين، زيدو باعذرى. ترجمة: نوزت الدهوكي.
• أهم الاتجاهات الحديثة في الموسيقى، امانج غازى رواندزي. • مايعيق التفاعل الحضاري بين اربيل وقلعتها، كوهدار فتحي. • موسى عنتر رمز التحدي والنضال، نور الدين بوتاني. • اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، ناصر يوسف. • فن الكاريكاتور والديمقراطية، محمد صاله ي. • إعانة. • (مواقف) إزاء القضية الكردية. إعداد: خ الجبوري.

توق لسيادة الوجدان النظيف

عبد اللطيف السعدي

ليس سهلاً أن يجمع كاتب بين سيرة حياته ومايتطلبه أدب السيرة من شروط، وبين أن يسجل بأمانة وموضوعية مراحل هامة من حياة شعب، عاشها أو كان شاهداً على بعض فصولها. فالغوص في تفاصيل قد يفرضها السرد للسيرة يكاد يبدو - للوهلة الأولى - متعارضاً مع الدقة والتركيز على أحداث هامة، أرخت ماضي الوطن، وتفسر اليوم حاضره وأفق مستقبله.

في هذه اللجة وقع الصحفي العريق، والمناضل التقدمي الديمقراطي د. فائق بطي في كتابه الأخير «الوجدان»، الذي صدر مؤخراً جزؤه الأول، وقد تلمست هذا بشكل واضح عند قراءتي المتمعنة له.

وزاد الكاتب من مصاعبه أنه تلمس بعض سمات الأسلوب الروائي مستخدماً الحوارات والاسترجاعات. وكان واضحاً أنه بهذا، وباستخدامه صيغة الغائب في ايراد قصة حياته، إنما أراد أن يحقق معادلة التوازن بين الذات والموضوع، بين حديثه عن حياته وحياة عائلته بدءاً من والده، وبين الأمانة في نقل أحداث التاريخ القريب. وتقديري أنه نجح إلى حد كبير في ذلك. ولكنه بنفس الوقت لم يخرج سالماً من محاولة المزاوجة بين السرد التقريري، الذي تفرضه حكاية السيرة، وبين ولوج اللون الأدبي في الكتابة الذي يتطلب، أول مايتطلب، تكثيفاً في اللغة وارتقاء بمستوى الجملة المعبرة. فبدت لدى الكاتب بعض هنات لم تقلل من قيمة الكتاب.

بين طفولته، أوائل الأربعينات، حين فوجىء بردود الفعل على حيازته لصورة هتلر ببراءة، واضطراره إلى التغرب مجدداً عام ١٩٧٧ بعد أن تجاوز الأربعين، أورد فائق بطي أحداثاً ومراحل هامة في تاريخ العراق المعاصر، ومن موقع المشارك والفاعل فيها بهذا القدر أو ذاك.

حاول كتاب «الوجدان» أن يمس وجدان القارىء بتذكيره بأحداث عبر خلفيات لايعرف الكثيرون تفاصيلها، تفاصيل ارتبطت بحياة الكاتب ولكنها تفسر وتكمل أبعاداً وصوراً لما حدث: حديث الزعيم محي عبد الحميد عن بدايات تشكل حركة الضباط الأحرار (تفصيل سبب اختيار عبد الكريم قاسم لقيادتها)، جوانب تفصيلية ولكنها هامة سبقت انقلاب شباط الأسود وأعقبت المجازر الدموية

ضد الشيوعيين والديمقراطيين، أحداث سبقت ورافقت الانشقاق داخل الحزب عام ١٩٦٧ قد تفسر الكثير مما صار حتى الآن، مخاضات ماقبل ومابعد العام ١٩٦٨ والانقلاب الجديد، تجربة «التحالف» ومارافقها من ممارسات وأخطاء من قبل الحزب والحركة الوطنية عموماً ... إلخ.

كاتب «الوجدان» الأستاذ فائق بطي لم يخف، عبر كل أسطر كتابه وفصوله الخمسة، علاقته بالفكر الشيوعي وبالحزب الشيوعي العراقي، على العكس إنه جاهر مدافعاً وناقداً ومعاتباً وبأحداث ملموسة، ولكنه لم يبتعد عن الوجدان في بحثه عن الموضوعية والدقة في ايراد الأحداث وتحليلها وتحديد مواقفه منها، وهذا جانب أضاف لإيجابيات الكتاب حسنة، ووضعه في صف الجهود القليلة لدراسة تاريخنا المعاصر بعين أمينة بلاتحامل أو تجاهل أو تجهيل.

أخيراً، كتاب «الوجدان» الذي صدر بالقطع المتوسط وفي (٢٤٦) صفحة لم يخل من هنات، قطعاً، أشرت لبعضها، ولكنه أضاف قيمة جديدة لجهود الكاتب التي ماتزال تقدم العطاء، على صعيدي التأليف، ونقل خبرته الصحفية الزاخرة للأجيال المتعاقبة، والمساهمة في النضال الوطني من أجل عراق بلادكتاتورية، بلاقمع، يزدهر فيه الوجدان النظيف.



مقتطفات ومعالجات

الحادي عشر من اذار

معلم هام من معالم النضال القومي الكردي والنضال الديمقراطي للشعب العراقي.

تحل اليوم الذكرى الثالثة والعشرون لتوقيع اتفاقية ١١/ آذار/ ١٩٧٠ بين قيادة الثورة الكردية وحكومة البعث.

في هذه الذكرى ـ التي تشكل نصراً للقضية الكردية ولمجموع الحركة الديمقراطية نتذكر المسيرة النضالية التي أدت إليها.

وفي هذا السياق لانريد الحديث عن نضالات الشعب الكردي البطولية التي امتدت مايزيد على خمسين عاماً قبل هذه الذكرى والتي تمثلت في انتفاضات وثورات يصعب حتى مجرد تعدادها في هذا التعليق، ولكن لايمكن إغفال ثورة أيلول ١٩٦١ التي استمرت حوالي عشر سنوات قبل اتفاقية ١١/آذار/ ١٩٧٠.

في ١٧/تموز/١٩٦٨ هادن الانقلابيون الثورة الكردية ليضمنوا وصولهم إلى سدة الحكم بسهولة، طبخوا مؤامرة الانقلاب مع النايف والداود وضباط القصرالجمهوري.

وبعد ثلاثة عشر يوماً نقضوا الهدنة ليواصلوا نهج استخدام العنف لاجبار الشعب الكردي على الرضوخ لارادتهم.

يومذاك كان أنصار الحزب الشيوعي العراقي يقاتلون في صفوف الثورة الكردستانية وكانت قيادة الحزب في بغداد تضغط على الحكومة من أجل الحل السلمي الديمقراطي، والاعتراف للشعب الكردي بحقوقه القومية، وبالحكم الذاتي. وتطالب باجراء مفاوضات مع قيادة الثورة الكردية.

وكان جواب الانقلابيين، بكل عجرفة وعنجهية، إننا لن نفاوض الخونة!

لم يكن حزبنا الشيوعي العراقي وحده يطالب بحل المسألة الكردية حلاً سلمياً ديمقراطياً، بل كان إلى جانب جمهرة واسعة من الديمقراطيين والقوميين الشرفاء، وكذلك الرأي العام الديمقراطي العالمي، والاتحاد السوفيتي الذي رمى بثقل كبير من أجل هذا الحل.

وجرب الانقلابيون العفالقة حظهم مرةً أخرى في حملات ظالمة ضد الشعب الكردي أودت بحياة

الألوف المؤلفة من أبناء الشعب عرباً وكرداً وتركماناً وآشوريين، كما سبق لهم أن جربوه أيام انقلابهم الفاشي في ١٩٦٣ بعد أن يتسوامن إمكانية قهر الشعب الكردي البطل وثورته الباسلة.

اضطروا للتفاوض مع قيادة الثورة الكردية. وانحنوا أمام العاصفة مظهرين السوء والنوايا الخبيثة.

ففي ١١/آذار اضطروا للحديث عن الحقوق القومية للشعب الكردي، وتبنوا شعار الحكم الذاتي الذي طرحه الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٦٢، وأشركوا خمسة وزراء من الحزب الديمقراطي الكردستاني في الوزارة ووعدوا بتشريع قانون الحكم الذاتي بعد أربع سنوات.

ومأأن اتفقوا مع قيادة الثورة الكردية حتى بدأوا بتنفيذ مخططهم الشرير بالهجوم على الحركة الديمقراطية ورأس رمحها. الحزب الشيوعي العراقي، والقوى القومية العاملة في ساحة النضال السياسي، والتي كانت تشارك في النضال مع الحزب الشيوعي من أجل اطلاق الحريات الديمقراطية وإقامة جبهة وطنية واسعة على أسس ديمقراطية.

وكانت أولى بوادر الهجوم اغتيال القائد الشيوعي الرفيق محمد الخضري في العشرين من آذار ١٩٧٠ عشية الاحتفال بنوروز، ومهاجمة موكب الشيوعيين في مظاهرة العيد التي أقيمت في بغداد يوم ٢١/آذار/١٩٧٠، ومن ثم اعتقال المئات من الشيوعيين، واغتيال عدد من قياداتهم وكوادرهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ـ بطبيعة الحال ـ فقد علمتنا التجربة أن من يبدأ باضطهاد الشيوعيين ينتهي باضطهاد جميع القوى الديمقراطية والوطنية. ولذا لم يمر وقت طويل حتى دبروا مؤامرة اغتيال قائد الثورة الكردية المرحوم مصطفى البارازاني، يوم أرسلوا إليه جمعاً من المعممين وحملوهم ـ دون أن يدروا ـ بالمتفجرات التي فجروها عن بعد، فقتلوا كلهم، ونجا البارازاني بأعجوبة خارقة.

وبرغم كل دناءات الحكم ومؤامراته ومساعيه لإضعاف الثورة الكردية، وقيادتها، فقد فشلت مخططاته للقضاء علي الثورة، التي ظلت تقض مضجع الحكام، وتهدد حكمهم.

وبسبب من قوة الجذور الشوفينية التي تحكم سلوك الحزب الحاكم، ولأن ادعاءاته التي خرج بها في اتفاقية آذار لم تكن تنم عن أصالة، بل عن براگماتية سياسية تستهدف كسب الوقت وتحين الفرص لتوجيه الضربات للثورة الكردية ولحقوق الشعب الكردي، فقد أقدم صدام حسين على ماتجنبه نوري السعيد والعارفان، ذلك هو التفريط بنصف شط العرب إلى شاه إيران ليضمن تأييده في سحق الثورة الكردية، ومسخ الحقوق القومية والحكم الذاتي، وإفراغه من أي مضمون حقيقي. وأعقب ذلك بتخريب الريف الكردي، وتدمير الحياة في كردستان، وصولاً، إلى قصف حلبجة بالسلاح الكيمياوي وحملات الأنفال البربرية، وتشريد مايزيد عن مليون مواطن كردي في ربيع ١٩٩١، ومواصلة العداء للشعب الكردي، وفرض الحصار عليه بعد أن أفلحت جماهيره المناضلة بطرد قوات صدام وأجهزته القمعية، وراحت تبنى حياتها والديمقراطية رغم الصعوبات التي أثارها

ويثيرها النظام الدكتاتوري والأعمال التخريبية.

إنّ حصيلة هذه الذكرى ودرسها الأول هو ضرورة الخلاص من الحكم الدكتاتوري وبناء عراق ديمقراطي يصون فيه الشعب الكردي حقوقه القومية ويطورها بعيداً عن تهديدات الدكتاتورية ومخاطر انتكاس المسيرة الديمقراطية.

مجداً لمناضلي شعب كردستان البواسل ولكل مناضلي شعبنا العراقي الذين ضحوا من أجل السلم في كردستان وتمتع شعبها بحقوقه القومية العادلة.

وخلوداً للشهداء الأبرار الذين رسموا بدمائهم الطاهرة طريق الحرية عرباً وكرداً وتركماناً وآشوريين!

والموت للدكتاتورية.

كلمة إذاعة حزبنا في ١١ آذار ١٩٩٣

حول الحكم الذاتي والفيدرالية

مرت خلال الأسبوع المنصرم الذكرى ٢٣ لاتفاقية ١١ اذار ١٩٧٠ المبرمة بين قيادة الثورة الكردية والحكومة العراقية. ومن المفيد إبداء الآراء حول هذا الموضوع:

- لقد كانت اتفاقية ١٩٧٠، رغم عمومية بنودها، خطوة نحو الأمام في تلك الظروف لحل المسألة الكردية في إطار الكيان العراقي الموحد.

- إن التصور الكردي للحكم الذاتي الذي لم يرد ذكره في بنود الاتفاقية بصيغة محددة وواضحة المعالم كان يختلف عن التصور الحكومي الذي يعتبر الحكم الذاتي مجرد اقرار بحقوق شكلية.

- حازت الاتفاقية على أهمية استثنائية في حينه باعتبارها ثالث وثيقة دولية تقر للكرد بعض حقوقهم بعد معاهدة سيفر الدولية عام ١٩٢٠ بين الحلفاء وتركيا والبيان البريطاني ـ العراقي المشترك عام ١٩٢٤ حول حق الكرد العراقيين في تشكيل كيان سياسي مستقل ضمن حدود المملكة العراقية.

- إن الحكومة العراقية التي كانت قد تسلمت مقاليد الحكم إثر انقلاب تموز ١٩٦٨ والتي لم تكن قد عززت مواقعها بعد في الحكم والتي كانت تحس بوطأة فشل حملتها العسكرية على كردستان في عام ١٩٦٩، وافقت على الاتفاقية مضطرة وتحت ضغط ظروفها المتأزمة.

- رغم أن مبدأ الحكم الذاتي ارتقى إلى صيغة تشريعية في ١٩٧٤، إلاّ أن تلك الصيغة التي جرت حوالي نصف المناطق الكردية من اقليم كردستان سيما المناطق النفطية ولم تمنح المجلس التشريعي سوى صلاحيات هزيلة.

ـ إن كل الجرائم التي ارتكبها الحكم العراقي بعد ١٩٧٤ تمت تحت غطاء الحكم الذاتي وتحول الحكم الذاتي إلى مجرد واجهة دعائية مارست السلطة تحت غطائها عمليات الترحيل القسرية أو التعريب والاعدامات الجماعية واستخدام الغازات السامة وعمليات الابادة.

ـ إن السلطة العراقية هي التي سوفت موضوع الحكم الذاتي وجعلت مؤسساته مجرد مؤسسات كارتونية بدون أية صلاحيات حقيقية.

إن الإتحاد الوطني الكردستاني قد أوضح منذ زمن طويل أن الحكم الذاتي سواء بالصيغة التي تفهمها السلطة العراقية أو بالصيغة التي يفهمها الآخرون، لايحل المسألة الكردية حلاً جذرياً. وإن الحل الجذري والحاسم للمسألة الكردية يتم من خلال اقرار حق الشعب الكردي في تقرير مصيره بالشكل الذي يرتأيه لذلك دعا الاتحاد إلى اقرار حق الكرد في تقرير مصيرهم بصيغة الاتحاد الطوعي مع الشعب العربي في العراق ضمن عراق ديمقراطي موحد. وفي ظل المستجدات الدولية العاصفة وفي ظل الظروف الداخلية الملائمة برز التفكير في إعادة طرح ترتيب جديد لأولويات المسألة الكردية، توصل البرلمان الكردستاني من خلاله إلى إعلان الاتحاد الفيدرالي في ٤/١٠/١٩٩٢ وهي الصيغة البديلة لصيغة الحكم الذاتي والأكثر انسجاماً مع الطموحات الكردية. وكما أن السلام الحقيقي لايقوم إلا على أساس التوازن، فإن الحل الجذري للمسألة القومية لايقوم إلا على أساس المساواة.

وبداهة أن الحكم الذاتي، مهما اختلفت صيغه، لايحقق عنصر المساواة. أما الفدرالية بنظرنا تحقق هذا العنصر. ومن هنا جاء اختيار البرلمان الكردستاني لصيغة الاتحاد الطوعي ضمن فدرالية عراقية كأمثل تعبير عن طموحات الكرد وميلهم إلى التعايش مع إخوانهم العرب في ظل نظام سياسي فيدرالي يضمن الديمقراطية والتعددية السياسية ويحترم حقوق الانسان. أما صيغة الحكم الذاتي التي مر عليها حوالي ربع قرن فقد عفا عليها الزمن وأصبحت جزءاً من الماضي وإن إصرار السلطة العراقية وبعض الأطراف السياسية العراقية خارج السلطة على الصيغة القديمة مجرد ميل يجنح إلى الإبقاء على موروث الماضي ويتحفظ على التغيير الجذري. وإن إقرار المؤتمر الوطني العراقي الموحد الفدرالية كنظام سياسي للعراق بعد التخلص من الدكتاتورية خطوة هامة في الاتجاه الصائب لحل مشاكل العراق وفي طليعتها المشكلة القومية وإن العمل على ترسيخ هذا الاتجاه واجب وطني تحتمه الظروف على كل عراقي غيور على وطنه وشعبه.

إفتتاحية (الاتحاد) ٣/١٣

الاتحاد الوطني الكردستاني

لماذا «الوطن» ؟

منذ أن تكللت جهود القوميين الديمقراطيين في العراق بالاتحاد وتشكيل لجنة تنسيق موحدة لتنظيم عملهم. كانت فكرة إصدار جريدة ناطقة بإسم تيارهم تتبوأ الصدارة. نظراً لأهمية الجريدة في إبراز دور الحركات الكبرى في التاريخ.

وما أحوجنا نحن معشر القوميين العرب الديمقراطيين لمثل هذا المنبر. لتعميق وحدتنا وشد أزرنا. وللدفاع عن قضايا شعبنا. حيث تتعرض بلادنا لأخطار شتى. فوحدتها مهددة وأرضها مهانة وشعبنا يعاني الأمرين من قهر النظام الدكتاتوري. فالجريدة إذاً حاجة ملحة وعليها مهمات جسام فكرية وسياسية ومعنوية وفي طليعتها:

١ ـ التأكيد على الترابط بين العروبة والاسلام. ودحض الإتجاه القائل بأن القومية العربية نقيض التوجه الاسلامي. فالعلاقة بينهما هي علاقة الروح بالجسد والقوى الممثلة لها «التيار القومي الديمقراطي والتيار الاسلامي» يمثلان القوى الحية في المجتمع وبينهما من القواسم المشتركة ووشائج الكفاح المشترك مما يجعل التعاون أمراً ضرورياً. بل ومطلباً ملحاً لكل المخلصين والحريصين على وحدة بلادهم وتحررها.

٢ ـ إبراز الترابط العضوي بين المهمات الوطنية والقومية. وقضية الديمقراطية وحقوق الإنسان. فأبناء شعبنا يعانون من التسلط والإستبداد ومصادرة أبسط الحقوق التي نصت عليها شرعة حقوق الانسان. فتغييب دور الشعب هو الذي جلب الويلات على شعبنا ولو كانت هناك مؤسسات ديمقراطية حقيقية لما تمكن الطاغية من شن حربه العدوانية على الجمهورية الاسلامية الايرانية. ولما تمكن من الإقدام على غزوته الجاهلية ضد دولة الكويت الشقيقة والتي أساءت إلى معاني الأخوة العربية وسببت تدمير البنى التحتية للاقتصاد العراقي وجعلت جماهيرنا تعيش تحت وطأة حصار رهيب.

إن العمل من أجل الديمقراطية وممارسة الشعب لحقوقه وتداول السلطة. وتأكيد حقوق الانسان يجب أن تنال الاهتمام الأعظم في مسلكنا ومسيرتنا السياسية. كما أننا مطالبون ببذل أقصى الجهود لتثقيف جماهيرنا بضرورة ايجاد التوازن بين مقاومتنا للإستبداد ونحن في المعارضة وعدم الإنسياق في الإستبداد في أثناء الحكم. وإن الهدف المطلوب هو إقامة دولة القانون والمؤسسات.

٣ ـ تعميق الوحدة الوطنية العراقية. فقد ناضلت جماهير شعبنا من أجل ترسيخ هذه الوحدة. وحالت دون تنفيذ مخططات القوى الأجنبية والطامعة في تفتيت هذه الوحدة. فالعرب والأكراد والتركمان وسائر الأقليات القومية المتآخية عاشوا في ظل رايات الكفاح المشترك والإحترام المتبادل والحرص على وحدة العراق (أرضاً وشعباً).

إن القوميين الديمقراطيين في العراق يشددون على التآخي بين العرب والأكراد ويؤكدون على شراكتهم مع إخوانهم العرب في الوطن. ويدعمون كفاحهم للحصول على حقوقهم القومية المشروعة والتي تنكرت لها الأنظمة الدكتاتورية المتعاقبة. ولكنهم بالوقت نفسه يدعونهم إلى وضع الحركة التحررية للشعب الكردي في إطارها الصحيح. أي كونها تمثل جناحاً أساسياً من الحركة الوطنية العراقية وإن طريق حصول الشعب الكردي على حقوقه المشروعة هو في النضال المشترك مع قوى الشعب الأساسية لإقامة نظام ديمقراطي تعددي. وعدم الرهان على الصيغ والهياكل المعدة من قبل القوى الأجنبية وعلى هذا الأساس فإن لقاء يضم التيار القومي الديمقراطي والتيار الإسلامي والجبهة الكردستانية وسائر الوطنيين مطلب ضروري لتخليص شعبنا من النظام الدكتاتوري القائم وإقامة البديل الوطني الديمقراطي.

٤ ـ توثيق أواصر التعاون مع المنظمات والأحزاب القومية العربية في الوطن العربي. فالعراق جزء لايتجزأ من الأمة العربية والتيار القومي الديمقراطي في العراق هو جزء من الحركة القومية العربية. ولابد من إقامة أوثق الصلات مع القوى القومية الديمقراطية في الأقطار العربية لتوحيد صفوفها وحشد طاقاتها لتحقيق الأهداف المشتركة في:

- التحرر الوطني والقومي من الهيمنة الأجنبية وإستعادة الأراضي العربية المحتلة.
- تحقيق الديمقراطية لمواجهة الاستبداد والدكتاتورية وإقامة دولة القانون والمؤسسات.
- العدالة الاجتماعية لمواجهة الظلم والاستغلال وسوء توزيع الثروة.
- الوحدة العربية ضد التجزئة بكافة صورها وأشكالها القطرية والمناطقية والطائفية والقبلية.
- التجدد الحضاري ضد الجمود في الداخل والمسخ الثقافي من الخارج.

عن (الوطن) العدد ١ ـ آذار

لجنة تنسيق العمل القومي الديمقراطي في العراق.

الحلقة الأولى: الديكتاتورية.

هل تصلح المعارضة العراقية بديلاً عن صدام؟

(...) يمارس النظام المتسلط في العراق نموذجاً فريداً من الدكتاتورية وإلغاء الآخر ـ فكراً أو رأياً أو عقيدة أو وجوداً ـ وديكتاتورية النظام لاتحتاج إلى مزيد بيان فهي من الوضوح بحيث أصبحت عنوانه، والذي نشير إليه هنا أمران هما، إن نظام صدام لم يبدأ في ممارسته الدكتاتورية والقمع من

فراغ أو من الصفر، فقد ورث صدام أنظمة حكم حكمت العراق بالقمع والتسلط وإن كان له دوره في المضي بالدكتاتورية أشواطاً بعيدة، إذ تعملقت في زمنه وازدهرت وتوسعت حتى أصبح وكأنه مؤسسها وواضع لبناتها الأولى، وهذ الأمر له دلالته المستقبلية، فالدكتاتورية في بلدنا قد تقادمت عليها السنون وامتدت جذورها في الأرض، ونحن نريد أن نغير واقعاً أصبح مزمناً في العراق ـ إن لم يكن مزمناً في تاريخنا أيضاً ـ ابتداء من الحكم الأموي وإنتهاء بالحكم العثماني ومروراً بالحكم العباسي!

وأما الأمر الثاني فإن النظام المتسلط في العراق لايبدو استثناء شاذاً في أغلب آسيا وافريقيا وحتى أميركا اللاتينية، وهكذا تبدو الدكتاتورية مزدهرة أو في الازدهار ولأمر له دلالالته إن ليس هناك اجتماعاً عربياً على أي مستوى كان ـ سواء على مستوى المندوبين أو حتى على مستوى القمة إلا وشهد اختلافاً وتنوعاً في الرأي سوى اجتماع وحيد هو محل اتفاق دائم وانسجام وهو اجتماع وزراء الداخلية ـ ولانعني بذلك أن نساوي صدام بسواه من الحكام في هذا الشأن، إذ يبقى صدام متفرداً في مديات دكتاتوريته فهو على الأقل أول حاكم في التاريخ يستعمل الغازات السامة والأسلحة الكيمياوية لابادة آلاف المدنيين من أبناء شعبه الذي يحكم باسمه!

وهذا الأمر له دلالته أيضاً، فليس من المعقول أن تجد أنظمة قمعية لشعوبها تمد لك يد العون لتقضي على الدكتاتورية في العراق والتعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة، فهؤلاء لايرون سوى الرأي الواحد ولايؤمنون إلا بالحاكم الواحد، وبالتالي فلايساعدونك على شيء هم يفتقرون إليه أو لايؤمنون به، هذا إن لم يقفوا ضد مثل هذه التجربة ـ إن وجدت ـ باعتبارها تهديد لهم ومحرض لشعوبهم ضدهم.

بعد هاتين الاشارتين العابرتين لامتداد الدكتاتورية الزماني والمكاني، نعود إلى المعارضة العراقية لنتفحص موقفها الحقيقي وامكاناتها الذاتية في تجاوز هذه المعضلة التي ساقت العراق دولة وشعباً إلى مهاوي الردى.

أما على مستوى الموقف، فنجد أن المعارضة العراقية لأول وهلة تدين الدكتاتورية في العراق وترفضها رفضاً مطلقاً، ولكننا لو تجاوزنا هذا الرفض الأولي، إلى تفاصيل الموقف، لتبدت لنا أمور أخرى، من هذه الأمور، إن هناك من أطراف المعارضة العراقية من لايرفض المؤسسة القمعية الحاكمة في العراق كلها وإنما يرفض رأس الهرم فقط، ولربما تعتبر نفسها الوريث الشرعي لبقية الهرم أو المؤسسة القمعية، وهناك من المعارضة من يراهن أو يخطط لاحتواء المؤسسة القمعية، وإنه بتغيير إسمها فقط ـ ولايرى هذا البعض من رصيد له سوى هذه المؤسسة ولو بتغيير بعض وجوهها المحترقة.

وعلى ضوء هذا الموقف فسيستمر القمع حتى لو سقط صدام، وعلى ظهورنا أن تستعد لنفس السياط التي انتزعت جلودها بالأمس باسم صدام لتنتزعها مرة أخرى باسم الرئيس الجديد ـ فيما لو

أتي ـ القادم من خلف الضباب أو من خلف الحدود المجاورة!

إنها نتيجة مأساوية حقاً، وهي تدعو المعارضة لتعيد النظر في مواقفها إن لم يكن بشكل جذري فعلى مستوى القول وقبل استلام الحكم على الأقل لتتمكن من رفض دكتاتورية صدام وطرح نفسها بديلاً «ديمقراطياً» عنه.

أما على مستوى الممارسة فلو تجاوزنا ـ وهو أمر غير صحيح ـ الممارسة الداخلية لكل فصيل، وطبيعة العلاقات القائمة بين قياداته وقاعدته، وهل أن هذه الممارسة قائمة على أساس تبا .ل المواقع وحرية الرأي والحصانة لصاحب الرأي الآخر، أم أنها قائمة على أساس تفرد شخص أو مجموعة بالفصيل السياسي دون حق الاعتراض أو التعبير من قبل الأعضاء الآخرين؟ لو تجاوزنا ذلك مع علمنا الأكيد بأن من لايمارس «الديمقراطية» مع رفاقه وأعضاء تنظيمه وهو في المعارضة فمن المستحيل أن يمارسها مع الآخرين أو مع الشعب وهو في الحكم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن لدينا العديد من المؤشرات إن لم تكن الأدلة على ممارسة القمع الداخلي.

لو تجاوزنا الوضع الداخلي لكل فصيل من فصائل المعارضة العراقية واعتبرنا ذلك من شؤونها الداخلية وأسرارها الخاصة التي لانستطيع الاحاطة بها ولايصح التدخل فيها، ونظرنا إلى الممارسة فإننا نجد الادعاءات الكبيرة على مستوى تمثيل الشعب العراقي من جهة، ونجد من جهة أخرى محاولات الالغاء، أي أن كل فصيل يحاول إلغاء الآخر، تارة للتفرد باسم المعارضة العراقية كله، وتارة للتفرد باسم تيار من تيارات المعارضة كله، وهذه ظهرة في المعارضة العراقية تكاد تستشري لتشمل الجميع حتى غدا الأفراد ـ الشخصيات! يحاولون جاهدين لالغاء حركات ووجودات سياسية كبيرة ذات امتداد تاريخي، ولأن اعتمد صدام على فرق المخابرات أو الجيش لإلغاء الآخر، فإن المعارضين العراقيين لايملكون هذه القوة لإلغاء أو تصفية فرقائهم ولذلك يعتمدون أحد أمرين أو كليهما. إما باعتماد اللعبة السياسية أو بالاستقواء بدولة أخرى لتصفية أو إلغاء المنافس وإذا كان هؤلاء لايتورعون من استخدام أو تحريض قوة خارجية ـ حليفة طبعاً! ـ لإلغاء الآخر، فماذا تراهم يفعلون إذا أمسكوا بوزارة المالية أو الدفاع أو الاعلام؟ هل هناك صوت آخر يسمع وهل لهذا الصوت من جسد يمشي في الشارع أم أنه سيكون مصيره القبر أو السجن إن لم يحالفه الحظ فيصل إلى أحد المهاجر ـ للتذكير هناك أكثر من مليوني عراقي مهاجر خارج العراق الآن؟

على أن القضية لاتتوقف عند ذلك، وإنما تتعداها إلى مديات أكثر، فقد وجدنا في تجارب المعارضة أن أشد دعاة «الديمقراطية» و«الليبرالية» هم من أبعد الناس «الديمقراطية» ونظرة إلى مؤتمر صلاح الدين وماتمخض عنه، وهو مؤتمر أداره «الديمقراطيون» و«الليبراليون» من مبتدأه إلى منتاه، تكشف عن «ديمقراطيتهم» التي تجسدت في ادارة المؤتمر ونتائجه.

نقطة أخرى جديرة بالملاحظة، وهي الانتقال الحاصل لبعض الأفراد من صف النظام إلى صف المعارضة، وهو أمر مفرح، ومن الطبيعي أن تسعى المعارضة لاستمالة السائرين في ركب النظام من

أجل أن ينفضوا عنه، ولكن من غير الطبيعي أن يصبح هؤلاء في يوم وليلة من رموز ومتحدثين باسم المعارضة، دون تشكيك بصدق انتمائهم للمعارضة وتركهم للنظام. ولكن الذي يقضي عمراً كجزء من جهاز الدكتاتورية لايمكن أن يتحول في يوم ،وليلة إلى داعية من دعاة الديمقراطية. على أن مشكلة الدكتاتورية لاتقتصر على الميدان السياسي، ولكنها تمتد إلى ميادين الثقافة والاجتماع ـ وتلك مواضيع أخرى نأمل في اثارتها لاحقاً ـ لتكتمل دورة القمع والتسلط والقهر!

كيف السبيل للخروج من هذه الحلقة الجهنمية؟

ماهي المشاريع ـ وليس البيانات السياسية ـ التي يمكن أن تكون مدخلاً لتحطيم حلقات الدكتاتورية الخانقة؟

مالعمل؟

تلك أسئلة نأمل أن تكون موضع حوار جاد بين المعارضين العراقيين، سياسيين ومثقفين، في صالوناتهم السياسية أو على صفحات جرائد المعارضة الكثيرة. و«الموقف» تفتح صدرها رحباً لهكذا حوار.

صادق الركابي

/ ١١/شباط عن(الموقف)

تعبر عادة عن راي حزب الدعوة.

خطورة تطبيع العلاقات مع نظام صدام

بين حين وآخر، تحمل وكالات الأنباء، أخباراً عن تحركات محمومة لنظام صدام حسين باتجاه اعادة آليات علاقته الدبلوماسية مع دول العالم المختلفة بما فيها، أو بالأحرى في مقدمتها، دول التحالف التي خاضت معه حرباً مدمرة (التأديبه) كما جاء على لسان أكثر من مسؤول دولي.

وفي سياق هذه التحركات المحمومة فإن صدام حسين يوزع الرشاوي هنا وهناك من أجل الخروج من المآزق التي ورط نفسه فيها سالماً، لأنه يعتقد أن تحريك مؤشرات علاقة نظامه مع حكومات العالم، أو ـ على الأقل ـ أي حكومة مستعدة لذلك، سيساعده على الاحتفاظ بكرسيه المهزوز أطول فترة ممكنة.

ولتنفيذ ذلك قام بارسال عددمن أبرز معاونيه، بصورة علنية أو سرية، حسبما تقتضي الأحوال، إلى عواصم عديدة في المنطقة والعالم، وهم يحملون في جعبتهم وعوداً مغرية بمنح اقتصادية، وارتهان أهم الطاقات الاقتصادية العراقية لدى تلك الدول، حكومات وشركات، من أجل أن تعمل على تبييض صفحة النظام، وتصعد من وتائر وتطبيع العلاقات معه.

ويبدو أن بعض الجهات المتنفذة في دول اقليمية وغير اقليمية قد استجابت للاغراءات الكثيرة

التي يمنحها لها صدام ونظامه بسخاء قل نظيره، خاصة وأنه يقدم لها مالاحق له فيه من خيرات العراق وطاقاته الاقتصادية.

وصدام يعمل وبكل الوسائل إلى التغلغل في الحلقات الضعيفة لدى دول الجوار أساساً، وقد استطاع في هذا الجانب أن يحصل على استجابة من بعض الدول التي تنظر إلى أوضاعها الداخلية بقلق، حيث تواردت تصريحات على لسان بعض حكام جارات العراق أن لامانع لديها من تطبيع علاقاتها مع صدام للضغط على دول أخرى في المنطقة.

وبالرغم من أن العوامل الاقتصادية (مهما كانت طبيعتها)، وكذلك الخلافات الحدودية، لابد أن تؤثر على هذا الطرف أو ذاك ـ إلا أننا نفترض أن العلاقات بين الدول لايصح أن تقوم على الأطماع الاقتصادية والمصالح الضيقة فحسب، فثمة قانون دولي هو الذي يتحكم في طبيعة تلك العلاقات، إضافة إلى جملة من القيم الانسانية والمعايير الأخلاقية.

فنظام صدام حسين، وبكل الأعراف والمقاييس، خارج على القانون الدولي، وهو يمثل انتهاكاً صارخاً ومستمراً لقرارات الأمم المتحدة التي تتعلق بالقضية العراقية، وتشعباتها ـ ولعل من أبرز الأدلة على ذلك أن النظام مازال يستهتر وباستمرار بقرارات مجلس الأمن المتعلقة بحماية حقوق الانسان في العراق، كما أنه مازال يصعد من ممارساته الاجرامية في جميع أنحاء العراق بما فيها منطقة الحظر الجوي في الجنوب، والمنطقة الآمنة في الشمال ـ إضافة إلى تصميمه على المضي قدماً في ارسال المرتزقة والمخربين إلى جميع الدول المحيطة به والبعيدة عنه لممارسة عمليات التخريب والاغتيالات.

إن هذا النظام، والذي فقد شرعية الوجود، منذ أن قررت دول العالم مقاطعته ومحاربته واسقاطه ـ مازال كما هو، ومازالت ممارساته تتصاعد بالضد من الشرعية الدولية والقانون الدولي ولوائح حقوق الانسان وغيرها من لوائح الأمم المتحدة ـ ولذا نعتقد بأن الجهات التي تعمل اليوم على إعادته إلى الحظيرة الدولية ستمنى بخيبة أمل قاسية، لأن النظام لن ينفذ لها وعوده، وهذا سجله حافل بالغدر والخيانة، ولأن العالم مازالت فيه قوى انسانية شريفة لاتنظر إلى طبيعة نظام صدام من خلال اغراءات اقتصادية زائفة. ولأن الشعب العراقي بكل قواه الشريفة مصمم على انهاء الدكتاتورية واقامة حكم الدستور والقانون، وآنذاك سوف لن تنفع هذه الدول أي من الوعود التي منحها نظام صدام الجائر.

افتتاحية(بغداد)٥/٣

الوفاق الوطني العراقي

مهام المؤتمر الوطني العراقي الجديدة

تتكثف جهود المعارضة العراقية هذه الأيام لوضع اللمسات الأخيرة على المؤتمر الوطني العراقي ليخرج بصورة مقبولة لدى الجميع.

وطالما تلقّت معظم فصائل المعارضة العراقية فكرة وجود مثل هذا المؤتمر بشيء من القبول فإن جزءاً كبيراً من العراقيل التي تواجه مهمة ترميم المؤتمر قد ذللت فعلاً وبقي جزء هام كان لابد من إلقات النظر إليه.

ويتذكر الإخوة الذين دعوا إلى عقد هذا المؤتمر، الفترة الأولى من ولادة المؤتمر كيف جوبه بفيتو من قبل بعض الشرائح؟ وكيف إستطاع ومن خلال عمليات الترميم الجادة التي أجريت في مؤتمر صلاح الدين الأول.. إستطاع تجاوز هذا الفيتو بكسب صك القبول من أكثر الحركات والتنظيمات والفعاليات العراقية التي رفضت الاشتراك في مؤتمر فينا. وهذا مايؤكد لنا حقيقة هامة هي الرغبة الملحة لدى جميع فصائل المعارضة العراقية على التآلف والتكاتف وحتى التشكل في صيغ موحّدة بشرط أن يضمن المؤتمر القدر المشروع من حقوق الحركات.

وكان على الإخوة الداعين للمؤتمر، أن يستثمروا الطاقة الخيرة التي تفرزها هذه الحالة لدى جميع فصائل المعارضة باتجاه التشكل مع المؤتمر، وأن لايديروا ظهورهم لحقائق هامة كان لابد من الاذعان لها لتحقيق البناء الشامخ للمعارضة العراقية ومن أهم هذه الحقائق:

١ ـ إستيعاب المؤتمر الوطني العراقي للحقائق التي يفرزها الواقع العراقي الديني الاجتماعي، فالعراق يتشكل من شرائح دينية واجتماعية يشكل الشيعة فيها الأكثرية المطلقة.

وطرح قضية الشيعة ليس من الزاوية الطائفية الضيقة فالشيعة ليسوا في مقابل السنة. وليس هناك من قائل يضع الشيعة في مصاف الطرف الطائفي.

بل الشيعة كتيار سياسي معارض للسلطة منذ زمد طويل الشيعة كمجموعة بشرية مقهورة على أيدي الحكام الظالمين الذين توالوا على حكم العراق.

الشيعة كمجموعة من المجتمع العراقي التي فقدت حقوقها وقد جاء اليوم الذي لابد من إعادة كل شيء إلى مكانه وإعادة الحق إلى نصابه. كان لابد للمؤتمر الوطني أن يؤخذ بهذه الحقيقة ويتعامل معها بروح إيجابية وبعزيمة مستقلة لاتلين أمام الضغوطات الدولية.

٢ ـ إستيعاب جميع فصائل المعارضة العراقية، فإذا أريد للمؤتمر الوطني أن يعبر عن إرادة المعارضة العراقيةالموحدة فلابد لها من استيعاب أجنحة المعارضة في تركيبتها الداخلية سواء في اللجنة التنفيذية أو في اللجان الأخرى.

إن المهمة الأولى التي أنيطت بالمؤتمر الوطني العراقي هي توحيد ساحة المعارضة العراقية، وهذا

هو الأصل، وكل شيء هو فرع من أصل توحيد المعارضة العراقية. وحتى عملية إسقاط الطاغية ليست بالأمر المهم في قبال توحيد المعارضة.. لأن لاسقوط لصدام بدون وحدة المعارضة.. فهو النتيجة لذلك السبب.. ولانتائج بدون أسباب فكل مشاكل الساحة العراقية تقريباً تكاد تكون محصورة في اختلافاتها، وكل الحلول موكولة في وحدتها وتلاحمها وتكاتفها.

وكل النتائج الايجابية التي يطمح إليها الشعب تتوقف على وحدة المعارضة. وكل عراقي اليوم هو بانتظار تلك اللحظة التاريخية التي تعلن فيها المعارضة العراقية عن وحدتها وتلاحمها وهذه المهمة ليست بقليلة وربما حلت الفرصة ولربما سيكتب للمؤتمر الوطني العراقي القدر الذي انتظرته المعارضة العراقية طويلاً، فكان لابد من إستيعاب هذه الحقيقة والعمل من أجل تكريس حالة الوفاق والأخوة وذلك من خلال إستيعاب كل الفصائل العراقية.

إن أي تجاوز على هذه الحقيقة يعني تضييع أكبر الفرص التي أتاحتها الظروف والأحداث لتوحيد الساحة العراقية.

عن (الوفاق الاسلامي)

حركة الوفاق الاسلامي في العراق

في ذكرى انتفاضة آذار المجيدة

تمر هذه الأيام الذكرى الثانية لانتفاضة آذار المجيدة التي بدأت في البصرة وسرعان ماإنتشر لهيبها إلى محافظات الجنوب والوسط وكردستان، لتكون رداً شعبياً حازماً على نهج النظام الدكتاتوري وسياساته المجرمة بحق الشعب والوطن وحروبه «وغزواته» وإرهابه الشنيع وحربه الشوفينية ضد الشعب الكردي. لقد كانت انتفاضة آذار المجيدة تعبيراً عن إصرار شعبنا العراقي على إسقاط النظام الدكتاتوري وتوقه للعيش في ظل السلم والديمقراطية والتآخي القومي ودولة القانون والتعددية السياسية.

وبرغم إغراق الانتفاضة بالدماء، وتهديم المدن المنتفضة وسقوط الآلاف من الشهداء وتشريد أكثر من مليوني مواطن كردي، فإن جماهير الشعب تشهد نتائج إنتفاضتها الباسلة وان لم تفلح في الإجهاز على النظام الدكتاتوري، فإنها زعزعت هذا النظام، وتركت سلطته ضعيفة مهزوزة، وغرزت ثقة الشعب وجماهيره المناضلة بحتمية زواله، وأظهرت للعالم كله أن شعب العراق، بعربه وكرده وأقلياته القومية وطوائفه الدينية كافة، يرفض هذا النظام ويتحفز للقضاء عليه.

إننا جميعاً مدعوون في ذكرى الانتفاضة المجيدة إلى إستيعاب دروسها الغنية وعوامل انحسارها التي تكمن في عفوية اندلاعها، وضعف التنظيم الجماهيري، وضعف التنسيق بين قوى

المعارضة العراقية، والشعارات الفئوية الخاطئة لبعض أطرافها، وعدم الاستفادة من أفراد القوات المسلحة ووحداتها التي تحركت ضد النظام، أو امتنعت عن الدفاع عنه.

إن العوامل التي أدت إلى تفجر الانتفاضة مازالت قائمة، بل زادت بفعل ضعف السلطة وازدياد السخط الجماهيري والغلاء الفاحش وشحة المواد الغذائية والحالة التي تقترب من المجاعة التي يعيشها الغالبية العظمى من أبناء شعبنا الأمر الذي يتطلب من القوى الوطنية تعزيز صلتها بالجماهير وتوحيد صفوف المعارضة وتأكيدها على البديل الديمقراطي التعددي، واحترام إرادة الشعب الكردي في الحكم الفدرالي وجعل ثقل نشاطها السياسي والدعائي والتنظيمي في داخل الوطن، وذلك درءاً للمساعي التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها وأتباعها الذين لم يكتفوا بدورهم في مأساة شعبنا وماألحقوه من دمار كامل ببلادنا خروجاً عن قرارات مجلس الأمن الدولي، وباسم (تحرير الكويت) وإنما يسعون أيضاً لفرض هيمنتهم على بلادنا عن طريق بديل يتجاهل إرادة ومصالح شعبنا ووطننا.

إن صدام حسين يتاجر بمأساة شعبنا التي كان هو سببها، بالمطالبة بإطلاق يده في التحكم بشؤون وطننا تحت لافتة رفع الحصار عن العراق وفك العزلة الدولية والعربية عن نظامه الدكتاتوري.

حقاً لقد تحول الحصار وبسبب من وجود صدام حسين في السلطة، إلى عقوبة ليس للنظام، بل للشعب كله، الأمر الذي يتطلب إتخاذ إجراءات جدية من المجتمع الدولي ومجلس الأمن لمعالجة الأضرار التي لحقت بالشعب العراقي وحمايته من خطر المجاعة، وذلك بتأمين التغذية والأدوية لمحتاجيها بالتعاون مع قوى المعارضة والمنظمات الانسانية والاجتماعية العاملة على أرض الوطن، والاستفادة من الأرصدة الحكومية العراقية المكدسة في البنوك الأجنبية، والأموال التي نهبها صدام حسين وعائلته، وتصدير جزء من النفط العراقي حسب قرارات الأمم المتحدة واستخدامه في أعمال الاغاثة تحت اشراف الأمم المتحدة.

أواسط آذار ـ الحملة من أجل عراق ديمقراطي

أنور الغساني*

بيان مكمل لـ «ميثاق ٩١»

يكتسب «ميثاق ٩١» أهمية عظمى في الوقت الحاضر بالنسبة لتكوين تصور عن عراق المستقبل بعد زوال النظام الحالي. لايوجد لدينا أي وهم بخصوص الامكانات الفعلية لتطبيق مثل هذه التصورات. ستكون هناك صعوبات غير اعتيادية ستواجه التطبيق، ومن المتوقع أن ساسة العراق في المستقبل سيتقاعسون عن تطبيق مقترحات جذرية كهذه، بل وربما تحايلوا واستغفلوا العراقيين للتملص من القيام باصلاح جذري كالذي يقترحه الميثاق.

لاتكمن أهمية ميثاق كهذا في كونه برنامجاً قابلاً للتطبيق فهو ليس كذلك في كل جوانبه، وليست مهمته أن يكون كذلك. كما وليس من المهم أن يحظى بتوقيع الألوف عليه (حبذا لو تحقق ذلك ولكنه غير ممكن في ظروف المنفى). يكفي أن يوقعه عدد مناسب من مثقفينا. ولكن من المهم أن يشمل الجوانب الأساسية لحياتنا المقبلة.

الميثاق حلم، مثالي/ يوتوبي ونتاج تفكير مجموعة من المثقفين فهمت مهمة المثقف اليوم على نحو مناسب:خلق «الأطر» العامة لحياتنا الفكرية والروحية، إنتاج الأفكار، وإنتاج الحلم. أما وضع الخطط والمشاريع الممكن تطبيقها، ورسم الحدود بين الممكن وغير الممكن، وبلورة كيفيات التطبيق فهي عمليات تقنية ليست من مهمات المثقفين وبحاجة إلى جهد إضافي تبذله جمهرة من المتخصصين.

لماذا نحن بحاجة ماسة إلى وثيقة حلمية كهذه؟

١) لتحرير الذهن العراقي من المسكنة لكي يستعيد العراقي قدراته التأريخية: القدرة على الحلم على نحو كبير وسخي.

٢) للتأثير في صياغة قائمة القضايا والشؤون التي يفكر فيها العراقي في يومه.

٣) لاستفادة من الوظيفة الارشادية والتوجيهية للمثال. يخلق المثال كمرشد وكمعيار لقياس نتائج العمل. المثال لايخلق من أجل تطبيقه. إن أية محاولة لتطبيق المثال تؤدي إلى كارثة لشدة تناقض المثال مع ماهو ممكن واقعاً.

٤) الاستفادة من الوظيفة الادانية ـ الرقابية للمثال عند تقييم جهد ساسة العراق في المستقبل: هل تتوجه السياسة، في تطبيقها العملي، نحو المثال أم تأخذ توجهاً مضاداً له؟

إذا نظرنا إلى «ميثاق ٩١» من هذا المنطلق، وبهذا القدر من التوقعات، فإننا نجد فيه جملة نواقص ينبغي تلافيها. سنكتفي هنا بذكر بعضها:

١) كان ينبغي طرح مسودة الميثاق للنقاش العلني بين المثقفين على الأقل للتوصل إلى صياغة

أدق وأشمل. بالامكان تلافي ذلك بتخصيص مدة ستة أشهر لمناقشة الميثاق.

٢) كل حلم، مثال (يوتوبيا) ينبغي أن ينطلق من الحد الأقصى لكي يكون بامكان السياسة التطبيقية أن تحقق الحد الأدنى الممكن. الميثاق ينطلق في قضيتين خطيرتين كعقوبة الاعدام والجيش من الحد الأدنى. إنه يتحول ، في هذه المواضع على الأقل، إلى مسودة لاجراءات تنفيذية ويفقد قدرته الالهامية والتحريضية على التفكير وابتكار الحلول.

لهذا أرى أن من الضروري:

١) استبدال العبارة التي تطالب بالغاء عقوبة الاعدام لفترة انتقالية لاتقل عن عشر سنوات (الفقرة الثانية) بعبارة أخرى تفيد بأن عقوبة الاعدام ينبغي أن تلغى نهائياً وإلى الأبد وأن يحرم على الدولة العراقية إعادتها مهما كانت الظروف، على أن يجري تثبيت ذلك في دستور عراق المستقبل.

٢) إستبدال مبدأ تقليص حجم الجيش الذي أخذ به الميثاق لمعالجة وضع هذه المؤسسة (الفقرة الخامسة) بمبدأ آخر، وإعادة صياغة الفقرة بحيث تتضمن الصياغة الجديدة المبادىء والتوجهات التالية التي ينبغي أن ينص عليها دستور عراق المستقبل:

أ) الأخذ بالمبدأ القائل: لاتدافع عن الشيء الذي يهاجمه الآخر ولاتهاجم الشيء الذي يدافع عنه الآخر.

ب) إعلان حياد العراق الدائم وتحريم إلغاء هذا المبدأ.

ج) الحصول على ضمانات عربية وإقليمية ودولية لاحترام حياد العراق وسيادته.

د) إلغاء الجيش، كمؤسسة، نهائياً وتحريم إعادة تشكيله مهما كانت الظروف(٢).

هـ) إلغاء الشرطة السرية والاستخبارات، كمؤسسات، نهائياً وتحريم إعادة تشكيلها مهما كانت الظروف، وتشكيل قوة جديدة من الشرطة العلنية للمحافظة على الأمن والنظام داخل البلاد (شرطة مرور، سفر، مكافحة الجرائم والمخدرات، جمارك... الخ).

أما على مستوى الاجراءات التنفيذية التي لاحاجة لتضمينها في وثيقة مبادىء مثل ميثاق ٩١، ولكنها ضرورية لتطبيق ماسبق ذكره، فإن بالامكان أن نورد مايلي على سبيل المثال لاالحصر:

- الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي لاعلان حياد العراق.

- الطلب إلى الدول الشقيقة والصديقة والمحايدة إرسال قوات لحفظ الأمن والنظام في الفترة اللازمة لنزع السلاح وتفكيك المؤسسات القديمة وتشكيل جهاز الشرعة الجديد.

- الامتناع عن وضع جهاز الشرطة الجديد تحت قيادة موحدة. ينبغي توزيع الشرطة علي الوزارات المختصة (إخضاع شرطة المرور لوزارة المواصلات مثلاً، الجمارك للمالية، السفر للداخلية.. إلخ) على أن تكون قياداتها مدنية وخاضعة بدورها لاشراف اللجان المختصة في البرلمان.

- نزع السلاح الشامل بالنسبة لكل المنظمات والأحزاب بدون استثناء وجمع الأسلحة وإتلافها.

ـ تحريم تجارة وحيازة السلاح نهائياً وفرض أشد العقوبات على المخالفين.

عراق الحضارات قادر على اتخاذ قرارات حاسمة كهذه. ينبغي ألا نخاف من السلام.

(١) بحثت هذه المقترحات وكثير غيرها (قضية التنوع القومي والديني الطائفي مثلاً) في وثيقة تقع في ثمانين صفحة تتناول الحرب الأخيرة وتصوري عن عراق المستقبل. لاأزال أنتظر إمكانية لنشرها.

(٢) أقول هذا رغم ارتباطي العاطفي الشخصي بالجيش، ورغم علمي بالارتباط المشابه الذي يشعر به كثير من العراقيين، ورغم الدور الوطني للجيش في تأريخ العراق المعاصر، إن المصلحة العليا للعراق تتطلب إلغاءه. ثمة أسئلة مهمة ترتبط بموضوع الجيش مثل: ماذا إذا تعرض العراق، رغم حياده ورغم الضمانات، إلى عدوان أو احتلال لأراضيه؟ لقد عثرت على أجوبة سهلة نسبياً على مثل هذه الأسئلة ضمنتها الوثيقة التي أشرت إليها في ملاحظتي السابقة ولامجال هنا للدخول في تفاصيلها. وربما عدت إليها ببعض التفصيل في مناسبة قادمة.

* أنور الغساني، شاعر عراقي وأستاذ صحافة في جامعة كوستاريكا. هذا ويدعو القراء إلى إرسال تعليقاتهم حول مقالته إلى نشرة (قضايا عراقية) التي نشرتها. وعنوانها هو:

IRAQ FOUNDATION
1919 Pennsylvania Avenue, N.W.
Suit 850
Washington, D. C. 20006 - 3404

الاشتراك السنوي

٤٠ دولارا أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
الى رقم الحساب
466184 / 12
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Lebanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص ب ٧١٢٢
تلفون: ٤٤٩٧٢٤
فاكس: ٧٧٣٩٩٢



فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر خمسة دنانير